محمود شلبي

مَا يَنفَعُ النَّاسَ

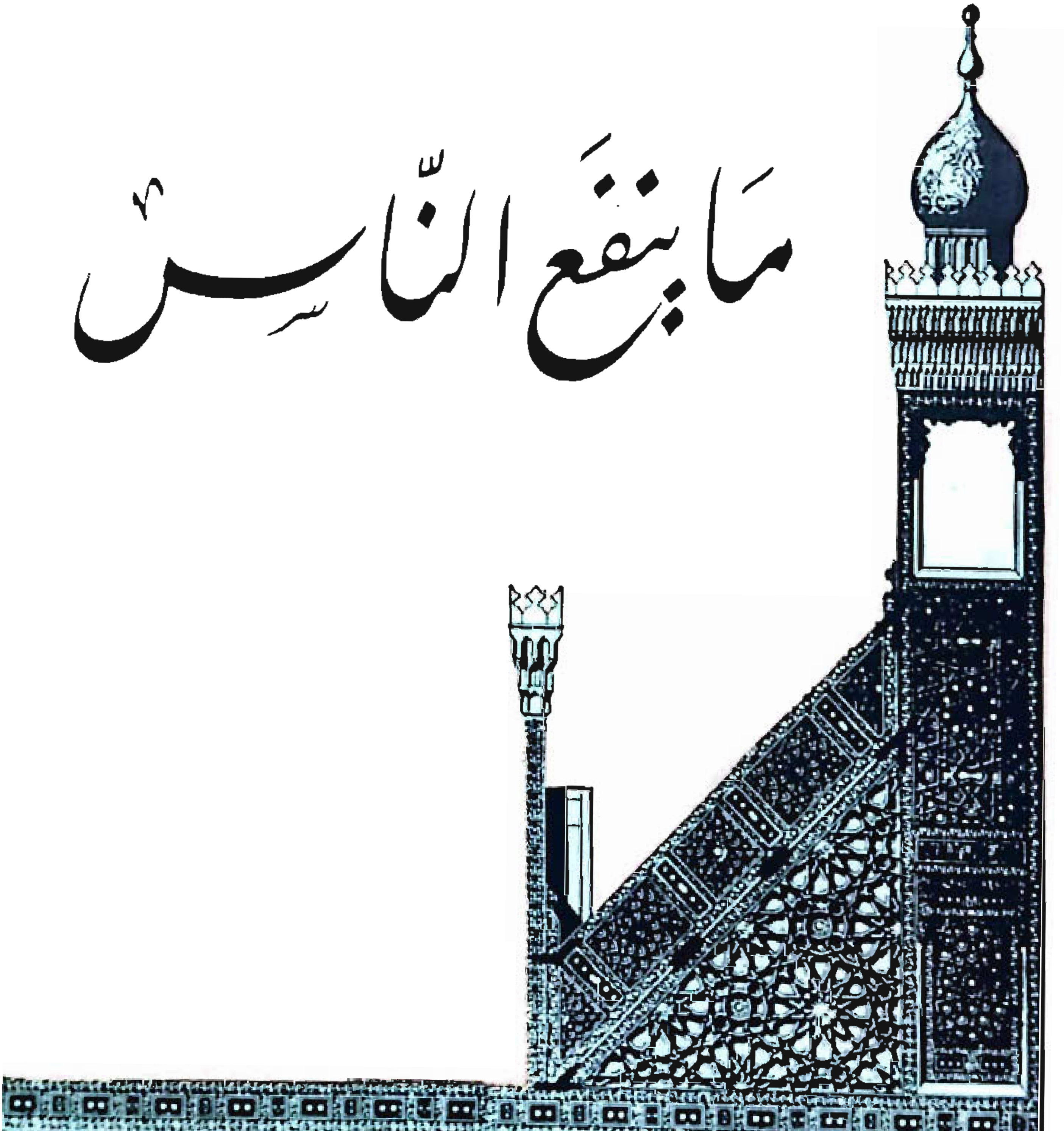

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

مَا يَنفَعُ النَّاسَ

محمود شلبي

ما ينفع النّاس

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

الاهداء

اللهم . . . منك . . وإليك

محمود شلبي

الطبعة الأولى
١٩٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـدمة

احمد الله . . . الذي لا إله إلا هو . . .
وأصلي . . . وأسلم . . . على الـرسـول . . . النبي الأميّ . . .
وبعد . . .
هذه مقالات . . . نشرت في المجلات . . .
. . . يجمعها كلها . . . موضوع واحد . . .
هو . . . نظرات جديدة . . . في مفاهيم الاسلام . . . فيهـا جراءة . . . ولكن محفـوفة . . . بـآداب الشـريعة البيضـاء . . . عسى ان يجعـل الله فيهـا . . . «مـا ينفـع النـاس» !!!

القاهرة في ١٩٧٦ م ١٣٩٦ هـ محمو شلبي

محمد رسول الله

هل أتى على العرب حين من من الدهر لم يكونوا شيئاً مذكوراً نعم . . . وقد كان ذلـك قبل أن يـولد فيهم محمـد ﷺ .

لم يكونوا شيئاً يستحق الذكر مجموعة من الرعـاة الحفاة، لا يعلمون شيئاً، ولا يستطيعون شيئاً ، ولا شيء يربطهم، ولا أمل لهم في شيء ، ولا ماضي لهم يرجعون إليه ، ولا حاضر لهم يتنافسون فيه ، وإنما كل فرد منهم يفكر في التهام أخيه؛ تماماً كالأسماك في البحار، يأكل كبيرها صغيرها ! !

فما أن تأذن ربك فيهم بمولد محمد ﷺ ، وما أن بعث

فيهم هذا المولود بعد أربعين عاماً من مولده، حتى تحول أمرهم من الأرض إلى السماء ، ومن الدنيا إلى العلياء ، ومن الباطل إلى الحق، ومن الظلام إلى النور ، ومن الضياع إلى الفوز ، ومن الأمية إلى العلم ، ومن الكفر إلى الايمان ، ومن لا شيء إلى كل شيء.

ماذا هناك ؟ وأي شيء غير أحوال العرب بعد ذاك ؟

هل هو مولده ﷺ ؟

كلا . . . فما كان مولده - في حد ذاته - بالشيء الذي يستطيع وحده أن يغير مصير العرب.

فقد لبث فيهم ﷺ ، أربعين عاماً بعد مولده ، فما استطاع عن يؤثر فيهم ، وما استطاعوا لأنفسهم نفعاً .

إذا ماذا هناك ؟

إنها الرسالة التي غيرت ، وهي التي فعلت الأفاعيل. ومن يومها . . . من تلك اللحظة التي نزل فيها جبريل عليه السلام، فغط محمداً ﷺ ثم أرسله ، ثم غطه ثم أرسله ثم غطه ثم أرسله ثم صاح فيه : إقرأ . . . من تلك اللحظة تغير العرب . وتغيرت الأرض ، وتغير التاريخ ، ومازال يتغير ويتطور ، وسيبقى متغيرا متطورا ، من أجلها . . . من أجل رسالة ذلك الرسول ، ذلك الذي نسميه الاسلام .

وأقرأ معي ما أنزله الله رب العالمين ، تبياناً لذلك الأمر العظيم ، والنبأ الخطير ، نبأ محمد الأمين :

« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماءُ بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الأنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجر عظيماً » .

محمد ؟؟ !

محمد وحده إنسان ككل الناس بشر ككل البشر . . .

إذا كاذا هناك ميزة عن الخلق وجعله إماما للأولين والآخرين ، في هذه الدنيا وهناك في يوم الدين !

إنها الرسالة . . الرسالة هي التي رفعت مقامه ، وجعلت له شأناً فوق كل شأن .

وماذا في تلك الرسالة ؟

ما هو ذلك الأمر الذي تميزت به عن سائر الرسالات ، حتى بذتهن جميعهن ؟ :

أنها جامعة نعة ، تبلغ الزمان طولا ، والسماوات عرضاً أوعت ما سلف من الرسالات ، وزادت عليها ما لم يأت فيها .

ورفعت عن النـاس الأغلال التي كـانت في أعنقـاهم ، وأطلقتهم أحرارا يهتفون من أعماق أفئدتهم :

لا إله إلا الله .

لا عبودية إلا لله .

أي حـريـة أعـظم ، وأي انـطلاق أوسـع من ذلـك الانطلاق ؟

رسـالة تصلك بـربك بغـير وسائط أو عـلائق ، تـدمـر الحجب ، تحـطم السدود ، تـطلق العقل ، تقـوي البدن ، تشعـل الروح ، تـذهب الحـزن ، تشـرح الصـدر ، تـرحم اليتيم ، تكسر اللئيم ، تحكِّم الكريم ، تزحزح الباطل بعيداً بعيداً حتى يستقيم .

أهذا كله في تلك الـرسالـة ؟

بل ذلك كله بعض بعض ما في تلك الرسالة .

ولعلك تدرك الآن لماذا جاء ذكر « رسـول الله » مقارنـا لكلمة « محمد » .

إن محمداً وحده لا يستطيع أن يفعل شيئاً ، ولن يستطيع ، ولكن « محمد رسول الله » يستطيع أن يغير أحوال الناس ، وأن يفتح قلوبهم .

ذلك كله بإذن الله ، لأنه أصبح رسولا لله .

لأن الله استعمله لنفسه . وصنعه على عينــه ، ثم قال له « بلغ ما أنزل اليك من ربك » . . .

وما من أحد يستطيع أن يكتب عن رسول الله حق كتابته .

وما كتبه الناس عن النبي ﷺ ، وما يكتبون ، وما سوف يكتبـون ، إن هو إلا أوهـامهم ، وظنونهم وخيـالهم ، الذي يتخيلون في رسول الله .

أما محمد ، أما رسول الله ، أما حقيقته ، أما سره ، أما عجائبه وغرائبه ، أما أنواره ، فما أولئك يستطيعون فيها شيئا .

وإنما الذين يكتبون عن رسول الله ، قوم بهرتهم الأنوار ، واستعجمت عليهم الأسـرار ، فراحـوا يعبـرون ويشيـرون ويمتدحون ويتخيلون ، ولهم المعـذرة . . . . فهو محمـد . . . رسول الله ! !

وماذا يستطيع الكاتب في محمد أن يقول ؟ .

أيقول هو عظيم ؟

نعم . . . هو عظيم . . . ولكن عظمة محمد شيء فوق عظمة الناس جميعاً .

أيقول هو عبقري ؟

نعم . . . هو عبقري حقاً . . .

ولكن عبقرية محمد فوق عبقريات الناس جميعاً . . . بل ان محمد أخرج إلى البشرية عباقرة ما زالت تتغنى بهم . . فما

يكون إذا منتج العباقرة إلا شيئا فوق هؤلاء جميعاً ؟

أيقول إنه بطل ؟ .

نعم . . . هو بطل حقا . . ولكن بطولة محمد شيء فوق بطولات الناس . وهل في الناس من يستطيع أن يقاتل وحده اربعة آلاف من الجنود ؟

لا ولن يجود في الناس من يقاتل أربعة آلاف وحده .

ولكن محمداً ﷺ قاتلهم وحده .

يوم حنين . . . اذ فر الجميع عنه ﷺ ، فما ان رأى رسول الله ﷺ نفسه وحده في الميدان ، حتى اندفع ببغلته الى العدو ـ وهو يومئذ اربعة آلاف ـ وجعل يردد :

أنا النبي لا كذب

أنا ابن عبد المطلب؛ من في الناس يستطيع هذا ؟

لا أحد . . . إلا محمداً !!!

إنها إذاً فوق البطولة التي إصطلح الناس على تسميتها بالبطولة.

فإذا كان محمد فوق العظمة ، وفوق العبقرية، وفوق البطولة، فما يكون إذاً ؟

يكون كما أراده الله ، لأن الله وحده هو الذي يعلم مقامه ، يكون «محمد رسول الله»

أرايت كيف وصف رب العالمين محمداً ﷺ ، أحكم وأدق وصف، فجاء معجزاً للناس اجمعين ؟

انه رسول الله ، بل خير رسول لله ، وخير ولد لآدم ، فان بهرتكم أنواره أيها الناس «وإن أعجز وصفه، وإن قصرت أفهامكم عن إدراك شمول عظمته ، فتذكروا رسول الله ، أن الله أدبه فأحسن تأديبه ، وصنعه على عينه فأحسن صنعته ، وأنزل في قلبه نوره ورحمته ما جعله رحمة للعالمين.

فعلى الذين كتبوا عن محمد ﷺ أن يعلموا أنهم اعجز من أن يكتبوا عن رسول الله ، وليعلموا أنهم لايكتبون شيئاً، وإنما هم يظنون .

وليس ذلك بضارهم شيئاً، يجتهدون قدر طاقتهم، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

وإن عجزهم عن إدارك شخصيته ﷺ ، دليل فخار لهم لا دليل شنار .

لأن المؤمن يعجز عن فهم الله وما يطعن ذلك في إيمانه .

كذلك الكاتب عن محمد يعجز عن إدراكه ، وما يطعن ذلك عظمة كتابته .

عبقرية صلاح الدين

لاحظت وأنا أقرأ سير عظماء الاسلام ، أن هناك صفة واحدة هي سر عظمة هؤلاء العظماء ، ولباب شجرة العبقرية الاسلامية .

تلك الصفة الواحدة هي «التصوف» بلغة أهل الحقيقة، أو الايمان بلغة أهل الشريعة .

ولتجدن أئمة هذا الدين في كل نواحيه ، الصوفية والذين آمنوا ، ذلك بأن منهم الخلفاء الذين أشتهروا بالعدل، والقواد الذين عرفوا بالجرأة ، والعلماء الذين أثر عنهم الصلابة في الحق، والعباد الذين سجل لهم التاريخ التفوق في العبادة، فهم الأئمة في كل ناحية، البارزون في كل ميدان .

فالصوفي الحق هو انسان آمن ايماناً صحيحاً، ثم أخذ يتكامل ايمانه ، ويزداد هدى ، حتى تحول من مؤمن فروض الى مؤمن نوافل« ما تقرب إلي عبدي بمثل ما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه . . . » .

ومتى كان المؤمن كذلك ، ارتفع الى مقام الامامة ، لا لأنه يسعى ليكون اماماً ولكن لأن ذلك هو الوضع الطبيعي للأمور، والارادة الماضية لله سبحانه ، والمكافأة الربانية المعجلة لأهل الله في هذه الدنيا «وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون» .

رفعهم الى مقام الامامة لما صبروا على طاعته في الفروض ، ثم لم يقنعوا بذلك فسارعوا الى زيادة الطاعات بالنوافل، ثم لم يقفوا عند ذلك ، بل ذهبوا يهدون الناس بأمر الله وعلى شريعة الله .

والامامة هنا امامة في الدين والدنيا وامتياز في كل نواحي الحياة .

ولكي ندرك ذلك علينا ان نمد أبصارنا فوق الصدر الأول للاسلام ، ولسوف نجد ان الامة الاسلامية في شبابها،

كانت أعظم أمة في كل شيء .

وكانت أقوى أمة في الأرض ، وآية ذلك أنها كانت تشمل العالم القديم المعمور وقتئذ كله، اللهم الا بعض دويلات اوروبا، أما المساحة من المحيط الهندي الى المحيط الاطلسي، ومن جنوب أوروبا الى أواسط أفريقيا ، فهذا كله عالم اسلامي، وامبراطورية واحدة ، يحكمها أمير المؤمنين، وخليفة رسول الله .

وكانت هذه الأمة خير أمة فعلاً بشهادة الله سبحانه «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله . . .» . كان مصدر الخيرية في تلك الأمة ، وسر عظمتها التي شهد بها الله في كتابه ، وشهد بها التاريخ في سطوره، أنها تؤمن بالله ، أنها أمة متصوفة ، يحكمها خليفة صوفي ، أمثال ابي بكر، وعمر وعثمان ، وعلي، وعمر بن عبد العزيز .

واذا نظرت الى تلك الأمة ولماذا سادت العالم، رأيت ايماناً في عوامها وتصوفاً في قادتها وخواصها .

فاذا استعرضت مواقف أمرائها الرائعة التي عطرت لتاريخ وجدت سرها هو التصوف .

واذا راعك عظمة علمائها وروعة مواقفهم من الأمراء ، فـاعلم أن سر ذلـك كله هو نفحـة التصوف السحـريـة في قلوبهم .

والقاعدة العامة التى لا تختلف ، ان سر عظمـة هذه الأمـة هو التصـوف.

وان سر عـظمة ابطال هذه الأمة هو التصوف .

وأنه اذا راعتك بطولة مـا من بطولات الاسـلام ففتش عن التصوف في ثناياها .

واليك لمحات من تصوف شخصية اسلامية ، قهـرت الغرب، وفتحت الشرق، فهي بذلك هزمت الدنيا بأكملها .

ذلك هو صلاح الدين الايوبي . . .

تحـدث النـاس عن كـل شيء من نـواحي هـذه الشخصية، عن فتوحاته، عن بطولاته، عن سمـاحته، عن كرمه ، ونسوا شيئاً واحداً هاما ، هو الأصل الأصيل والنبـع الدفين لشخصية البطل .

ذلك هو صوفية صلاح الدين .

فهل كان صلاح الدين صوفياً حقاً أم أن هذا زخـرف القول غروراً ؟ .

سأروي لك بعض المواقف للرجل، لتحكم بعدها على شخصيته ومدى صلتها بالتصوف .

عندما مات الخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميين في مصر، صادر صلاح الدين رئيس وزراء مصر قصور الخلافة وأموال الفاطميين، ووزعها على من شاء من الحاكمين والمحكومين بمصر، وحرمها على نفسه ، واكتفى بالاقامة في دار الوزارة التي كان يشغلها من قبل، فهل يفعل ذلك الا من كان في قلبه شيء من زهد صوفي ؟

ولي صلاح الدين الوزارة في مصر في سن الثانية والثلاثين ومات في سن السابعة والخمسين . وقضى الرجل ثلاثين عاماً أو يزيد حاكماً مطاعاً ، تدرج فيها من ضابط صغير في حملة أسد الدين شيركوه التي جاءت لنجدة مصر من السقوط في أيدي الصليبيين، الى رئيس الوزارة في مصر، ثم جاهد وجاهد حتى ضم لملكه اليمن وشمال أفريقيا وسورية ، والحجاز والعراق ، كل ذلك بالحرب والجهاد ، فاذا تم له توحيد المسلمين، قادهم جميعاً وحارب بهم الصليبيين ، حتى انتصر عليهم في موقعة حطين المشهورة ، وأخيراً كلل نصره بفتح بيت المقدس

واعادته الى الدولة الاسلامية .

وقضى الرجل هذه الثلاثين عاماً في غزو دائم، لم يهدأ لحظة واحدة، فهو دائماً يقاتل ودائماً يحارب، ودائماً يرغب في الموت والشهادة. فهل يحدث هذا الا من رجل في قلبه نفحات التصوف ؟ . . . وهل يقبل على الموت بسهولة في سبيل الله الآ من ملىء قلبه بنور التصوف؟ . .

والآية المشتقة من ذلك أن الرجل حارب الدنيا بأكلمها وانتصر على الدنيا بأكملها . وتفصيل ذلك أنه ما فتىء يحارب العالم الاسلامي في الشرق حتى انضوى تحت لوائه ، ثم حارب العالم الغربي المتجمع في الامارات اللاتينية بالشرق حتى انهزم أمام ارادته ، فاذا علم ان العالم آنئذ لم يكن سوى هذين المعسكرين ، المسلمون في الشرق ، والنصارى في الغرب ،أدركنا أن الرجل حارب العالم كله، وانتصر على العالم كله . فهل يستطيع ذلك الا من كان متصوفاً ؟ .

واليك أقصوصة من سيرة البطل، تكشف عن روحه المتصوفة، وقلبه الخالص لله .

« لما رجع السلطان صلاح الدين من احدى غزواته الى

دمشق في محرم سنة ٥٨٤ هـ - ١١٨٨، ، وجد الصفى بن الفايض وكيل الخزانة قد بنى له داراً بالقلعة هائلة مطلة على الشرف القبلي ، فغضب عليه وعزله وقال: إنا لم نخلق للمقام بدمشق ولا بغيرها من البلاد، وانما خلقنا لعبادة الله عز وجل والجهاد في سبيله، وهذا الذي عملته مما يثبط النفوس ويقعدها عما خلقت له».

ان هذه السطور تكشف حقيقة خباياه، وتبين الى أي مدى كان الرجل يحب الله عز وجل.

لقد كان صلاح الدين عالياً جداً في ذلك الموقف بقدر ما كان ذلك الذي بنى له داراً بالقلعة تافها جداً ، وشتان ما بين النفسيتين. ذلك يحب عبادة الله والجهاد في سبيل الله ، وذلك مشغول بالدنيا يبني القصور ويركن اليها . وفرق ما بين الاثنين كفرق ما بين السماء والأرض .

وأروع من ذلك كله ، أنه فارق الدنيا ولم يترك مالاً يورث أو ثروة تقتسم .

فقد ثبت أنه مات ولم يترك في خزانته من الذهب سوى جرام واحد اي دينار واحد . ولم يترك داراً ولا عقاراً ولا مزرعة ولا بستاناً ولا شيئاً من أنواع الأملاك .

فاذا كان الصوفي هو الرجل الذي يزهـد في الدنيـا ، فصـلاح الدين هـو الزاهـد عن اقتـدار، كـان يملك نصف العالم ويهدد النصف الآخر، ثم زهد في ذلك كله ، وهذا هـو التصـوف الصحيـح، تصـوف القـادرين لا تصـوف العاجزين .

وأخرى تتلألأ بأخلاق صلاح الدين الصوفية .

«لما خرج عماد الدين الى صلاح الدين، وقد عمل له دعوة احتفل فيها به ، فبيثمـا هم في سرور، اذ جـاء انسان فأسر الى صلاح الدين بمـوت أخيه ، فلم يـظهر هلعـاً ولا جزعاً، وأمر بتجهيزه سراً . ولم يعلم عماد الـدين ومن معه في الدعوة، واحتمل الحزن وحده ، لئلا ينكد ما هم فيه . وكان هذا من الصبر الجميل» .

ومن يقـدر على هـذا الا من كـان قلبـه اسس على التصوف؟ .

واليك جملة من أخلاقه، التي تفيض بالصوفية، كمـا رواها العلامة ابن كثير في البداية والنهاية .

« . . كان متقللا في ملبسه ومأكله ، ومركبه، وكان لا يلبس الا القطن والكتان والصوف، ولا يعرف أنه تخطى الى

مكروه ، ولا سيما بعد أن أنعم الله عليه بالملك . بل كان همه الأكبر ، ومقصده الأعظم نصرة الاسلام ، وكسر أعدائه اللئام . وكان مواظباً على الصلوات في أوقاتها في الجماعة. يقال انه لم تفته الجماعة في صلاة قبل وفاته بدهر طويل. حتى ولا في مرض موته . وكان يحب سماع القرآن والحديث والعلم . ويواظب على سماع الحديث ، حتى إنه يسمع في بعض مصافه جزء وهو بين الصفين . وكان رقيق القلب، سريع الدمعة عند سماع الحديث . وكان سخياً حييا ضحوك الوجه كثير البشر، لا يتضجر من خير يفعله ، شديد المصابرة على الخيرات والطاعات» .

والآن . . . هل كان صلاح الدين الأيوبي صوفياً ؟

نعم وانه لمن أئمة التصوف وأعلامه ؟

وما أرسلناك الاّ رحمة للعالمين

. . . ومضت السنون الاربعون . . وبعث الله رسوله الى الناس . .

فكانت بعثته ﷺ أعظم هدية قدمها الله تعالى الى عباده . وأكبر مِنّـةٍ امتنها على العرب خاصة وعلى الناس كافة . . .

لم يبعثه ملكاً جباراً ، يحكم الناس بالعصا والجبروت . .

ولم يبعثه برسالة محددة موقوته ، تنقضي بانقضاء رسولها . وتنتهي بانتهاء أمتها . . .

ولم يبعثه امتداداً لرسالة غيره ، يأخذ شريعته ممن سبقه . ثم يزيد عليها أو ينقص . .

وانما بعثه رحمة ! ! . .

رحمة شاملة كاملة منطلقة الى ابعد حدود الانطلاق ، لا

تعرف الآماد ولا الزمان ولا المكان .

ذلك أنه «رحمة» الله التي قال سبحانه فيها (ورحمتي وسعت كل شيء) . .

فكما أن رحمة الله وسعت كل شيء كان ويكون، فان محمداً ﷺ شخصية وسعت كل شيء .

وكما ان رحمة الله أوسع مما يخطر على قلوب البشر، فان رسول الله أوسع قلباً مما يخطر على قلوب أتباعه وغير أتباعه . .

ولا أحد يعرف قدر النبي ﷺ غير الله تعالى «الله أعلم حيث يجعل رسالته) هو سبحانه وحده الذي يعرف من هو محمد ﷺ، وما هي حقيقة محمد ﷺ، وما هو مقام محمد ﷺ . .

أما الخلق ، فلا يعلمون عن عظمة رسول الله الا ما يدفعهم اليه حبه ﷺ ، أو كرهه ان كانوا به يكفرون . .

فلم يكن بدعا ولا عجباً ان يثنى الله سبحانه على رسوله فيقول (ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) ذلك ان الله وحده هو الذي يقدر محمداً ﷺ حق قدره .

لذلك يطلب سبحانه من الذين آمنوا به أن يصلوا دائماً ويسلموا عليه دائماً . .

بعثه سبحانه رحمة . .

وفي تنكير كلمة « رحمة » ما يشير الى عظم هذه الرحمة واتساعها وشمولها . .

ولقد كان قلبه ﷺ كذلك حقاً وصدقاً . . .

كان يسع السماء ويسع الارض ، بل ويسع تجليات الله رب السماء ورب الارض . .

وينزل الى ذلك القلب جبريل عليه السلام فيأخذ عنه ويؤدي الى الناس ما أوحي اليه . وجبريل هذا لا تسعه الارض بما حوت كما نطقت بذلك الاخبار الصحاح . .

ويعرج به ﷺ الى السماوات العلى ، ويتقهقر جبريل عليه السلام ، عند مقام صريف الاقلام ، ويتقدم محمد ﷺ حيث **(فأوحى الى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى)** . .

فكيف باتساع قلب يسع ذلك المقام ، ويتلقى عن الرحمن بلا حجاب أو رسول؟

لقد كان ﷺ رحمة من مولده الى وفاته . .

كان مولده رحمة ، لانه جاء فارقا بين الحق والباطل ، فكان

بشيراً للمؤمنين ، ونذيراً للكافرين . .

وكانت رسالته رحمة لأنها جاءت بما فيه رحمة للناس جميعاً . .

فمما يرحم اليتامى أن تحسن اليهم ، فأمرت رسالته بالاحسان الى اليتامى . .

ومما يرحم الفقراء أن يعينهم الاغنياء ، فأمرت شريعته بعون الأغنياء للفقراء . .

ومما يرحم الاقوياء أن يتبصروا بالخطأ قبل أن يقعوا فيه ، وبذلك أمرت شريعة محمد ﷺ . .

ومما يرحم المرأة ان تحفظ من الابتذال والشيوع ، فجاءت رسالته بالحجاب وعدم الابتذال . .

ومما يرحم الحيوان ان يعطي حقه ، فجاء الاسلام يأمر بذلك . .

ومما يرحم الصديق أن يواده صديقه ، فجاء الرسول ﷺ يأمره بالمودة والتزاور في الله . .

ومما يرحم الامم أن يصلح بينها اذا اقتتلت ، فكان مما أمر به القرآن الاصلاح بين الطائفتين اذا اقتتلا .

ومما يرحم المحكوم أن يعدل فيه الحاكم ، فجاء الاسلام

يأمر بالعدل المطلق، ويضع لذلك الموازين . .

ومما يرحم الناس أن يعبدوا رباً واحداً ويتجهوا الى إله واحد، فكان ذلك أول ما أسس عليه الاسلام الذي جاء به محمد ﷺ . . ومما يرحم الناس أن يتراحموا ولا يبغي بعضهم على بعض فكان مما أمر به النبي ﷺ **«الراحمون يرحمهم الرحمن»** . .

ومما يرحم الناس أن لا يعتدي بعضهم على بعض فكان مما جاء به نبي الرحمة **«ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين»** . . .

ومما . . . ومما . . .

انه شيء لو ذهبنا نفصله لضاق بنا المقام، وما استطعنا له احصاء . .

ذلك ان النبي ﷺ رحمة فيها شمول الحق، ونور العدل وقوة الصدق، وصفاء الطهر . . .

ولم يجعلها الله خاصة بشيء دون شيء، وانما جعلها لكل شيء «للعالمين»

فهو نبي الرحمة، جاء برسالة الرحمة، **(لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم)** . .

عمر بن عبد العزيز

في المدينة . . في مسجد رسول الله ﷺ، نهل عمر بن عبد العزيز العلم من الصحابة والتابعين، وظهر عليه مخايل النجابة من صغره ، فكان يجلس الى شيوخها، ويهجر ملاعب شبابها .

وفي سنة ست وثمانين من الهجرة مات والده عبد العزيز بن مروان . فأراد عمه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، أن يكرمه بعد وفاة أبيه، فاستقدمه من المدينة ، الا ان الشاب الصالح خرج منها وهو كاره لذلك .

لقد كان يفضل مجالس العلماء والصالحين بالمدينة على مجالس الخليفة والطامعين .

وفي مجلس أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان بدمشق تقابل عمر بن عبد العزيز مع عمه الخليفة عبد الملك .

وأنبأه الخليفة انه استقدمه ليجعله مستشاراً له بدلاً من أبيه عبد العزيز رحمه الله . .

وبالغ عمه في اكرامه . . . وزوجه بنته فاطمة بنت عبد الملك وهي التي يقول فيها الشاعر :

بـنـت الـخـلـيـفـة والـخـليـفـة جـدهـا
أخـت الـخـلائـف والـخـلـيـفـة زوجـهـا

فهي فاطمة بنت الخليفة عبد الملك بن مروان . وجدها هو مروان أمير المؤمنين كذلك . . .

وأعجب من ذلك . . أن يكون بعد ذلك الوليد بن عبد الملك هو الخليفة بعد وفاة أبيه عبد الملك ، والوليد هذا هو أخوها . .

والأعجب من هذا كله أن تصير الخلافة الى زوجها عمر بن عبد العزيز .

ولذلك قالوا : ان هذه الخصائص لم تجتمع لاحد سواها . .

وفي يوم الجمعة في النصف من شوال من نفس العام ـ سنة ست وثمانين من الهجرة ـ مات أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، وولي من بعده ابنه الوليد ين عبد الملك ، فكان عمر بن عبد العزيز منه في مقام من الثقة التي كان عليها في حياة

ابيه ، بل ان الوليد زادت ثقته بابن عمه عمر اكثر من أبيه .

وآية ذلك أنه ما جاءت سنة سبع وثمانين من الهجرة ، حتى كان عمر بن عبد العزيز والياً على المدينة ومكة والطائف ، من قبل الوليد بن عبد الملك .

ونزل عمر بن عبد العزيز بالمدينة فاجتمعت عليه القلوب ، وأحبه أهلها من حبات القلوب . .

فكان أول ما فعله ، أن جمع الناس وخطب فيهم : «انما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه ، وتكونون فيه أعواناً على الحق ، لا أريد أن اقطع أمراً إلا برأيكم ، أو برأي من حضر منكم ، فان رأيتم أحداً يتعدى ، أو بلغكم عن عامل لي ظلامة فأحرج الله على من بلغه ذلك الا بلغني .

وفي سنة ثمان وثمانين من الهجرة ، بعث اليه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك من دمشق ، يأمره بادخال حجر أزواج النبي ﷺ في مسجد رسول الله ﷺ ، وأن يشتري ما في نواصيه حتى يكون مائتي ذراع في مائتي ذراع . وجعل أهل المدينة يبنون المسجد من جديد ، وذلك بعد نقض ما كان من القديم .

وفي نفس الأيام ، من ذلك الزمان ، شرع الوليد بن عبد الملك في بناء المسجد الاموي في دمشق وفي سنة ثمان وثمانين

من الهجرة حج بالناس وأجمعين عمر بن عبد العزيز .

وواجه الناس في ذلك الموسم الحر وقلة الماء . . . وأشرفوا على الهلاك . .

فلجأ عمر بن عبد العزيز الى الله . . وصلى بالناس في التنعيم صلاة الاستسقاء . .

فما أن وافى موكب الحجيج مكة ، حتى كان المطر قد غمر مكة ووديانها . .

لقد كان مستجاب الدعوة . . !

وفي سنة تسعين من الهجرة حج بالناس أمير المؤمنين الوليد ابن عبد الملك ، وأخلى مسجد رسول الله ﷺ من الناس ، وجاء الوليد ينظر بناية المسجد الجديدة وكان يرافقه والى المدينة عمر ابن عبد العزيز وراع الخليفة ان وجد رجلاً ـ لا يوجد سواه ـ يجلس الى القبلة . وسأل الخليفة عنه . . وقال: من الشيخ ؟ . . أظنه سعيد بن المسيب ؟

فقال عمر: نعم . . وهو على خير حال ، ولو علم بمكانك لقام فسلم عليك ، وهو ضعيف البصر .

فقال الوليد : قد علمنا حاله . . اني ذاهب اليه بنفسي ووقف أمير المؤمنين عليه . . . وسلم عليه . .

فما تحرك سعيد ولا نظر اليه !!

ولكن رد تحيته وقال: بخير والحمد الله، فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله؟ . .

فأخذ الوليد وقال : هذا بقية الناس . .

وفي سنة ثلاث وتسعين من الهجرة، جعل العراقيون يفرون الى المدينة فراراً من ظلم الحجاج ، وخوفاً من نزواته.

وجاءوا الى عمر بن عبد العزيز والى المدينة يهرعون ، يستجيرون برحمته ويلوذون بعدله . .

فأرسل عمر الى الوليد يشير عليه بعزل الحجاج ، ليستريح الناس من ظلمه . .

فبعث الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراق الى أمير المؤمنين يقول بلغني أن عمر بن عبد العزيز بعث اليك يحرضك على عزلي ، وأحب ان أقول لك ، ان من عندي من المراق وأهل الشقاق قد حلوا عن العراق ولحقوا بالمدينة ومكة ، وهذا هو أول الوهن الذي يدخل الى ملك بني أمية فبعث اليه الوليد ليشير عليه بمن يتولى المدينة ومكة .

وفي نفس العام ـ في شعبان ـ عزل الوليد عمر بن عبد العزيز عن الحجاز والمدينة .

وكان هذا هو جزاء نصحه لله ورسوله !

وخرج منها وهو يبكي . .

وسئل في ذلك فقال : أخشى أن أكون ممن نفته المدينة يعني بذلك الحديث النبوي : «ان هذه المدينة تنفي خبثها» ـ أو كما قال .

وفي النصف من جمادى الآخرة ـ سنة ست وتسعين من الهجرة مات الوليد بن عبد الملك ، وكانت خلافته تسع سنين وسبعة أشهر وصلى عليه عمر بن عبد العزيز . .

وبويع سليمان بن عبد الملك في اليوم الذي توفي فيه الوليد وهو بالرملة . . فاتخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز مستشاراً ووزيراً .

وفي سنة سبع وتسعين من الهجرة ، حج سليمان بالناس ، ومعه ابن عمه عمر بن عبد العزيز . . .

وعلى عرفات . . قال سليمان لعمر بن عبد العزيز : ألا ترى هذا الخلق الذي لا يحصى عددهم الا الله؟ ولا يسع رزقهم غيره ؟

فقال عمر : يا أمير المؤمنين هؤلاء رعيتك اليوم وهم غدا خصماؤك عند الله . .

فبكى سليمان بكاء شديداً وقال: بالله استعين .

وأثناء عودتهما من الحج ، أرعد الجو وأبرق ، واشتد الظلام وعصفت الريح ، فجعل عمر يضحك ويضحك ، بينما سليمان ومن معه في كرب شديد . . !

فقال سليمان: ما يضحكك يا عمر ؟

فقال عمر: يا أمير المؤمنين هذه آثار رحمته فيها شدائد ما ترى، فكيف بآثار سخطه وغضبه؟

وتلك شنشنة يعرفها العارفون بالله ، وأحوال يتذوقها الواصلون .

لقد كان قلب عمر بن عبد العزيز خالصاً لله ، يرى ما لا يرون ، ويتذوق ما لا يتذوقون ، ويطرب لأشياءهم فيها يحزنون ، ويحزن لأشياء هم لها يطربون .

فلا عجب اذا ضحك عمر بينما سخط سليمان وصحبه . ذلك أن مقاييس عمر ونظرته الى الأمور غير مقاييس هؤلاء ونظرتهم اليها .

عمر بن عبد العزيز

(٢)

في ذات ليلة خرج أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك يتفقد جنده ، وكان يمشي الى جواره مستشاره الأول عمر بن عبد العزيز، وإذا بصوت ينبعث ندياً طرياً في أجواز الفضاء، كان الصوت يأتي من بعيد وهو يترنم :

حـي طـيـفـا مـن الأحـبـة زارا
بـعـدمـا صـرع الـكـرى الـسـمـارا
طـارقـا فـي الـمـنـام تـحـت دجى الـلـيـل
ضـنـيـنـا بـأن يـزور نـهـارا
قـلـت مـا بـالـنـا جـفـيـنـا وكـنـا
قـبـل ذاك الأسـمـاع والأبـصـارا؟

ويثور أمير المؤمنين ، ويبعث في طلب المغني والذين

ينشدون معه ،ويعزم على قتل وخصائهم حسما للفتنة ، ولكن المستشار الأمين ـ عمر بن عبد العزيز ـ يكون رأيه أن ينفوا ليس الا ، ويقول لأمير المؤمنين إن هذا تعذيب نهى عنه رسول الله ﷺ ، فيأخذ برأيه ويكتفي بنفيهم بعيداً عن المعسكر .

. . وتحضر الوفاة سليمان بن عبد الملك ، فيستشير وزيره رجاء بن حيوة فيمن يكون الخليفة من بعده ، فيشير عليه بعمر بن عبد العزيز فيقول «أعلمه والله خيراً فاضلاً مسلماً يحب الخير وأهله» .

ويكتب سليمان وصيته : «بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من عبد الله سليمان بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز ، اني قد وليته الخلافة من بعدي ومن بعده يزيد بن عبد الملك ، فاسمعوا له وأطيعوا ، واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم عدوكم» ثم يختمها .

ثم يجمع الخليفة أهل بيته كلهم ويأمرهم جميعاً أن يبايعوا على ما في ذلك الكتاب المختوم .

كل ذلك وعمر بن عبد العزيز لا يعلم شيئاً مما حدث ! . .

ويخشى عمر أن يكون سليمان قد أوصى له بالخلافة وهو شيء لا يرغب فيه ، فيذهب الى رجاء بن حيوة ويستحلفه أن

يخبره ان كان الخليفة أوصى بالخلافة من بعده له ؟ . . فيقول رجاء : «والله لا أخبرك حرفاً واحداً مما أسره الي أمير المؤمنين» .

ثم يموت سليمان بن عبد الملك . . ويجمع كعب بن حامد ـ أمير الشرطة ـ الناس للبيعة في مسجد دابق ، ويأمرهم أن يبايعوا على ما في ذلك الكتاب المختوم .

ثم يفض الكتاب ويقرأه على الناس فاذا فيه : «كتاب من عبد الله سليمان ابن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز ، اني قد وليته الخلافة من بعدي . . . »

وتقاطر الناس الى آخر المسجد حيث كان يجلس عمر بن عبد العزيز يهنؤنه بالثقة التي وضعها فيه أمير المؤمنين ، ويبايعونه بقلوبهم ، فيستقبل ذلك كله بالدهشة ، ويقول كلمته الخالدة : «ان الله وإنا اليه راجعون!» . .

لقد كان عمر يرى في ايلولة الخلافة اليه مصيبة نزلت عليه تستوجب الاسترجاع . . !

فأين هذه النفوس من نفوس الذين يتهالكون على حقير المناصب كما يتهالك الذباب على دنيء الطعام . . ؟

ويحمل الناس عمر بن عبد العزيز ويضعوه على المنبر ليقول لهم شيئاً ، فلم يزد على أن قال : أيها الناس ، اني لست بمبتدع

ولكني متبع ، وان من حولكم الأمصار والمدن ان أطاعوا كما أطعتم فانا واليكم ، وان هم أبوا فلست لكم بوآل . .

أرأيت زهدا في الخلافة أكثر من هذا . . ؟

ليس الرجل حريصاً عليها ، ان انتظموا وأطاعوا كان بها ، وان اختلفوا وعصوا فإليهم خلافتهم ، يلقي بها في وجوههم ، فانه لا يريدها .

ثم يستطرد عمر فيقول : «أيها الناس . . ان لي نفساً تواقة ، لا تعطي شيئاً الا تاقت الى ما هو أعلى منه ، واني لما أعطيت الخلافة تاقت نفسي الى ما هو أعلى منها وهي الجنة ، فأعينوني عليها يرحمكم الله . . . »

أنطر كيف يكشف عمر عن خبيئة نفسه من حيث لا يدري.

انه يرى الخلافة وهي أعلى منصب في العالم وقتئذ شئياً تافهاً ، لا ينبغي أن يكون مطلباً لنفسه العالية ، وانما المطلب هناك . . في الدار الآخرة . . في الجنة . .

صوفية من أرفع أنواع التصوف ، وربانية من أعلى مراتب الربانية .

ونادى عمر في الناس بعد ذلك ، أن يقوموا التشييع جنازة أمير المؤمنين .

وجيء بمراكب الخلافة ، وقيل لعمر تفضل اركب ، ليركب من وراءك .

وهـنا انتفض عمر واستيقظ فيه احساسه العالي فقال : ماشاء الله لا قوة الا بالله . . لا أركب شيئاً من هذه الدواب ، اني خليفة ولست بملك ، اصرفوا هذه الخيول جميعاً ! ان معي دابتي الخاصة ، هذه بغلتي التي اشتريتها من مالي الخاص ، هذه هي التي أركبها ! . .

ثم يركب دابته التي اشتراها من ماله هو لا من أموال الدولة ويـتمـتم :

بسم الله . . الحمد الله الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وانا الى ربنا لمنقلبون . .

لم ينس الرجل آداب السنة الشريفة في شيء . حتى في مثل هذا الجمع الجامع ، واللحظة الرهيبة . يذكر الله ويتجه الى الله .

ويمضي عمر ومن ورائه الناس الى دمشق لاداء واجب تشييع الجنازة ، فيحدث مـنـه ما هو أعجب مما حدث .

يتجه به الناس نحو قـصـر الخلافة في دمشق ، ويميلون بدابته ميممين وجوههم الى الـقـصـر ، فيصيح فيهم عمر : الى أين تذهبون . . ؟

فيقول رجاء بن حيوة، الوزير ، الى قصر الخلافة يا أمير المؤمنين .

قال عمر : هذا أمر مستحيل ، أأنزل في قصر الخلافة . . ان هذا لن يكون . . !

قال رجاء : أنت الآن أمير المؤمنين، والمنصب له أحكامه .

قال عمر: لا أنزل الا في منزلي الخاص .

قال رجاء: وقد تولاه اليأس : لك ما شئت يا أمير المؤمنين .

قال عمر : دعوني وما ترتاح اليه نفسي . . أنا سأسأل امام الله . . أنا المسئول عنكم جميعاً . . سيرد الى منزلي الخاص . .

فهل سمعت في أي نظام من النظم القائمة الآن في مشارق الأرض ومغاربها ، نظاماً بلغ من التواضع لله والخوف من الله ، والحرص على حقوق الشعوب ، ما بلغه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الذي كان يحكم ثلاثة ارباع العالم ، ويأبى أن يركب مركباً تملكه الدولة ، أوينزل في منزل هومن الأملاك العامة ، أو حتى يسر سروراً ولو قليلاً بتربعه على اكبر عرش في الكرة الأرضية . . ؟

انك لم تسمع ولن تسمع ، ذلك بأنهم كانوا على كل شيء ، ونحن لسنا على شيء . .

كانوا على كتاب الله وسنة رسول الله ، يتبعون ولا يبتدعون ، ويتواضعون ولا يتكبرون ، ويزهدون ولا يطمعون .

كانوا أئمة بحق وخلفاء رسول الله بحق . . رضي الله عنهم وأرضاهم .

عمر بن عبد العزيز

(٣)

تدخل فاطمة بنت عبد الملك على زوجها أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، فاذا به يجلس مغموماً مهموماً .

فاطمة : ما بك يا عمر ؟

عمر : كيف لا أحزن وليس هناك من أحد من أهل المشارق والمغارب الا وهو يطالبني بحقه أن أؤديه اليه ، كتب الى في ذلك أو لم يكتب، طلبه مني أو لم يطلبه .

وتتنهد فاطمة في عمق ثم تقول : أمن أجل هذا تحزن ؟
فيقول عمر :

قد جاء شغل شاغل
وعدلت عن طرق السلامة
ذهب الفراغ فلا
فراغ الى يوم القيامة

ثم يخرج عمر من منزله الى مسجد دمشق الجامع ، وينهض خطيباً في الناس : أيها الناس ، من صحبنا فليصحبنا بخمس والا فليفارقنا ، يرفع الينا حاجة من لا يستطيع رفعها ، ويعيننا على الخير بجهده، ويدلنا من الخير على مالا نهتدي اليه ، ولا يغتابن عندنا أحداً ، ولا يعرضن فيما لا يعنيه .

وكان المسجد يموج كعادته بالعلماء والشعراء ، فما أن سمع الشعراء مقالته حتى انفضوا عنه ، وعلموا ألا مغنم عنده ولا مطمع في عطائه ، بينما اقترب منه العلماء وفرح به العباد .

وقال عمر مخاطباً أهل العلم والتقوى ممن بقي أمامه : قد ترون ما ابتليت به وما قد نزل بي ، فما عندكم ؟

فقال محمد بن كعب : اجعل الشيخ أبا ، والشاب أخا ، والصغير ولداً ، وبر أباك ، وصل أخاك، وتعطف على ولدك .

ثم أتبعه رجاء : ارض للناس ماترضى لنفسك، وماكرهت ان يؤتى اليك فلا تأته اليهم، وأعلم أنك لست أول خليقة تموت .

فأتبعه آخر : أجعل الأمر واحداً ، وصم فيه عن شهوات الدنيا ، وأجعل فطرك فيه الموت . فقال عمر : لا حول ولا قوة إلا بالله . فتأمل خلق عمر بن عبد العزيز ، وكيف كان ينحني للموعظة الحسنة والكلمة الطيبة .

على أن أروع ما تألقت فيه نفسية عمر بن عبد العزيز بعد أن ولى الخلافة هو هذا الموقف.

حاور عمر زوجته فاطمة وجعل يجادلها في أمر أموالها وجواهرها ومصاغها، فقالت أنه من مالها الخاص.

فقال عمر: لولا أنك بنت الخليفة وأخت الخليفة ما كان لك اليها من سبيل.

وما زال يخاورها ويداورها ويخيرها بين أن تختاره أو تختار الابقاء على هذه الاموال، حتى نزلت على رأيهواقتنعت وردت أموالها كلها الى بيت المال.

ولم تقف القصة الرائعة عند ذلك الحد ولكن امتدت الى شيء أعمق من ذلك وأمس بأوطار القلوب.

قال عمر: يا فاطمة بنت عبد الملك، إني قد اصبحت في شغل شاغل بأمر هذه الخلافة، وإني وان كنت من قبل استطيع اداء حقك اليك، أما الآن فاني في شغل بالناس عنك، فان شئت ان تعاشريني على ذلك فأهلاً، والا تعالى أسرحك سراحاً جميلاً.

ونادى عمر في جواريه بعد أن أجتمعن إليه، وخيرهن بين الدار الآخرة وزينة الدنيا.

بين أن يبقين عنده ولا حق لهن عنده من المتعة وبين ان يسرحهن سراحاً جميلاً .

وانتحب النساء وولولت الجواري ، ولكنهن كلهن اخترن البقاء مع عمر، ولم يشترطن عليه ما كن ينلنه منه من متعة قبل الخلافة .

موقف رائع ، وصوفية عالية ، وروح مشرقة اشراقاً شديداً .

من من الناس يستطيع ذلك؟ . . من يستطيع ان يعرض عن زوجاته جميعهن من أجل اعباء الخلافة ؟ . . .

لا أحـــد . . الا أن يكون مثل عمر! . .

وبدأ عمر يصلح ما أفسده بنو أمية من قبله .

كـــانت المنابر حين ولى عمر مأمورة ان تسب عليا رضي الله عنه في خطبة الجمعة ، فما ان ولى أمير المؤمينن عمر بن عبد العزيز حتى بعث كتاباً الى ولاته في مشارق الارض ومغاربها ، يأمرهم فيه أن ينتهوا عن ذلك الامر القبيح ، وان يقولوا بدلاً من سباب علي رضي الله عنه «**ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون**» .

وامتدحه الشاعر كثير عزة في ذلك فقال :

ولـيـت فـلم تشـتـم عـليـا ولـم تـخـف
بـريـا ولـم تـتـبـع مقـالـة مـجـرم
تـكـلمـت بـالـحـق الـمـبـيـن وانـمـا
تـبـيـن آيـات الـهـدى بـالـتـكـلـم
وصـدقـت مـعـروف الـذي قـلـت بـالـذي
فـعـلت فـاضـحـى راضـيـاً كـل مـسـلم

فعقب عمر على مقالة الشاعر :أفلحنا اذا يا كُثَيِّر عزة. جزاك الله خيراً.

ونظر أمير المؤمنين فرأى أن الامبراطورية الاسلامية فيها ولاة من آثار بني أمية ليسوا هم الصنف الذي ينبغي ان يكون في مقام الامامة من الناس.

فواصل اصدار أوامره العليا.

يعزل يزيد بن المهلب عن العراق ويعين مكانه عدي بن أرطأة الفزاري على البصرة، ويعين على الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب.

يعين على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي.

يعين على مكة عبد العزبز بن عبد الله بن خالد بن أسيد.

يعين على المدينة أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم

يعزل عن ولاية مصر عبد الملك بن أبي وداعة ويولي عليها أيوب بن شرحبيل . يعين للافتاء جعفر بن ربيعة ، ويزيد بن أبي حبيب ، وعبيد الله بن أبي جعفر .

يعين على افريقية وبلاد المغرب اسماعيل بن عبد الملك المخزومي .

وتعتبر هذه الحركة حركة ثورية من عمر بن عبد العزيز ، انه يعزل ولا يبالي ويولي ولا يبالي .

ولو كان أحداً غيره لخشى على نفسه أن يتكتل عليه المعزولون ويعزلوه هو ، ولكن عمر لم يكن حريصاً على الخلافة ، من أجل ذلك عزل هؤلاء جميعاً ولم يخش الا الله ، فخافه هؤلاء جميعاً وذلوا أمام ربانيته .

وتلك صوفية اخرى لعمر بن عبد العزيز . وقوة شخصيته لا يستطيعها الا من كان له قلب من نور كنور عمر بن عبد العزيز .

ولم تقف قوة الحق المنطلق في نفسية عمر بن عبد العزيز عند تلك الآفاق التي لا يستطيعها الا طراز الهواة المهديين من الرجال ، ولكن ذهبت الى أبعد من ذلك .

ان هناك نفراً من بني أمية قد أثروا ثراء فاحشاً مما كان في أيديهم وأيدي آبائهم من السلطة والجبروت .

فلا بد من رد هذه الاموال جميعاً الى بيت المال .

ولتغضب بنو أمية ، وليفعلوا ما شاءوا ، ان الله معه وحسبه .

وجمع عمر أمراء بني أمية في داره ، وكان ممن حضر فاطمة بنت مروان عمته وذات الرأي النافذ في بيت الأمويين .

وقال عمر : لا بد من رد ما بيد أمراء بني أمية الى بيت المال .

وصاح المجتمعون : كيف ولما ؟

قال عمر : لولا ما كان في يدكم ويد آبائكم من سلطان ما اجتمع لكم كل هذه الاموال. فهي حق لبيت المال.

وقالت فاطمة عمته : ولكن يا عمر . . . احذرك سطوة بني أمية .

عمر: شيء ليس في تقديري . .

فاطمة : ان هناك آخرين كثيرين غير بني أمية عندهم من الاموال ما يفوق أموالنا .

عمر: ينبغي أن نكون قدوة للناس .

فاطمة : وهل فعلت أنت ذلك يا عمر ؟

عمر : تعلمين أن دخلي السنوي كان قبل الخلافة أربعين الف دينار، واني تنازلت عنها كلها لبيت المال منذ وليت هذا الامر.

فاطمة : أنت تنازلت وغيرك لا يريد ذلك .

عمر : ليس الامر أمر رأي وهوى ، اني آمركم أن تنزلوا عن أموالكم ، وتردوها الى بيت المال، شئتن ام لم تشاءوا .

وضاقت صدور الحاضرين ، ونظر بعضهم الى بعض .

فقال عمر : والله لو أقمت فيكم خمسين عاماً ما أقمت فيكم الا ما أريد من العدل !

عمر بن عبد العزيز
(٤)

ودخلت فاطمة بنت عبد الملك ليلاً على عمر بن عبد العزيز تتفقده كما تتفقد الزوجة زوجها . .

فوجدته واضعاً خده على يده ، جالساً في مصلاه ، يبكي بكاء مراً .

فقالت فاطمة : أي عمر . . . ماذا يبكيك ؟

فقال عمر: قد وليت من أمر هذه الأمة ما وليت ، فتفكرت في الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعاري المجهود ، واليتيم المكسور ، والأرملة الوحيدة ، والمظلوم المقهور ، والغريب ، وألاسير، والشيخ الكبير، وذي العيال الكثير والمال القليل، وأشباههم في أقطار الارض وأطراف البلاد ، فعلمت ان ربي عز وجل سيسألني عنهم يوم

القيـامـة، وان خصمي دونهم محمـد ﷺ ، فخشيت أن لا يثبت لي حجة عند خصومته، فرحمت نفسي فبكيت !

فانظر الى أي مدى كان احساس عمر بن عبـد العزيـز بمسئولية الحكم.

كان يوقن يقيناً لا شك فيه أن الله سائله يوم القيامة عما استرعاه ضيع أم حفظ .

كان يحس احساساً عميقاً بمعنى قوله سبحانه «**وقفوهم انهم مسئولون، مالكم لا تناصرون**».

فينفـطر قلبه ، وتنهمر عينـه ، اشفاقاً على نفسه، ورحمة بها .

الا أن فاطمة بنت عبد الملك لم تكن لتنهزم بمثل تلك البساطة أمام زوجها عمر بن عبد العزيز .

انها امرأة وللنساء كيدهن العظيم ، ومكرهن العميق.

ونادت فاطمة جارية لها تفوقها حسنـاً وجمالاً وقـالت لها : اسمعي . . تعلمين أن عمر بن عبـد العزيـز كان قـد طلب مني أن أنزل عنك ، أما بيعاً أو هبة ؟

قالت الجارية: نعم سيدتي.

فزادتها فاطمة ايضاحاً وقالت : كان ذلك قبل ان يلي

أمر الخلافة. أخبرني إذ ذاك أنـه معجب بك أيمـا اعجاب، وخيرني بين أن أنزل عنك له اما بالبيع واما بالهبة ، فرفضت رفضاً قاطعاً .

فأعجبت الجارية نفسها ، وتولاها احساس بخطرهـا، وقالت : ثم ماذا سيدتي ؟

قالت فاطمة : ان لك لشأنا الآن يا ميمونـة ، وسوف اجعلك سببـاً أن يدع عمـر ما هـو عليه من اعتـزال النسـاء والتخلي عن الـدنيا . سـأزينك أبهى زينـة ، وأخلع عليك أجمل ما أملك من الملابس ، ثم أدخل أنا أجاسه وأخبره أنني قد وهبتك له كما طلب مني قبل ،

واطمأنت فاطمة الى مكرها ، وكان مكراً في تفكيرها عظيماً .

ودخلت على عمـر، وجعلت تجـالسـه وتـداعبـه، ثم قالت: أتذكر ميمونة ؟

قال عمر: أذكرها صالحة طيبة .

قالت : لعلها حسناء تعجبك.

قال : كنت قد طلبت اليك أن تنزلي عنها اما بيعـا أو هبة .

قالت : الآن قد فعلت . . قد وهبتها لك .

ثم خرجت فاطمة تسعى حثيثاً، ودخلت ميمونة اليه في أجمل ما تكون كأمرأة.

فسألها عمر: هل لك حاجة ؟

ميمونة : مولاي . . عمر . . بلغني أنك تكن لي حباً عظيماً يا مولاي .

فقال عمر: قد جاءني أمر شغلني عنكن . . . ولكن من أين أنت يا ميمونة ، وكيف جئت الى هذه البلاد ؟

قالت الجارية، وقد انكسر ما كان فيها من تفتح واقبال: ارتكب أبي ببلاد المغرب جناية ، فصادره موسى بن نصير، وأخذوني في جناية أبي ، وبعثني الى أمير المؤمنين الوليد بن عبد لملك، فوهبني الوليد الى أخته فاطمة بنت عبد الملك زوج أمير المؤمنين .

فانتفض عمر وقال: انا لله وانا اليه راجعون ، كدنا والله نفتضح ونهلك ، أنت من الآن حرة لوجه الله، ارجعي الى بلدك مكرمة معززة .

فبكت الجارية، وتأثرت من كريم موقفه ، وتملكها ما يتملك السجين اذا فك إساره فجأة فقالت : لقد ازددت لك

جباً يا أمير المؤمنين .

أما فاطمة فساءها ما آل اليه كيدها ، وانقلبت لا تلوي على شيء !

ذلك هو عمر بن عبد العزيز ، الرجل الذي يتفجر شباباً ورجولة ، الذي لم يكتمل له أربعون عاماً ، ثم هو يعرض عن أمرأة حسناء لعوب ، كان يتمناها قبل الخلافة ، لان احساس المسئولية أمام الله قد استيقظ فيه في أعلى صور اليقظة ، فلا مجال للشهوات بعد ذلك .

ولو أن رجلاً غير عمر ـ ايا كان ايمانه ـ جاءته احدى نسائه اللائي احلهن الله له ، في مثل ما جاءت به تلك الجارية الى عمر ، لاحتواها بين ذراعيه، وأخذها اليه وهو يقول : شيء أحله الله لي فكيف أحرمه على نفسي ؟ . . أو يقول: **قل من حرم زينة الله** .

الا أن عمر لم يفعل ذلك ، ولو فعل ما نقص ذلك من تقواه شيئاً .

وانما غلب عليه احساس أعلى وأسمى، احساس المسئولية أمام رب العالمين .

فذهب يسألها : من اين أنت ، وكيف جئت ؟

وقد صدقت فراسة الرجل، وتبين له أنها أخـذت بغير حق في جناية أبيها ، فتذكـر قولـه سبحانـه «ولا تزر وازرة وزر أخـرى»، فصاح من أعمـاقـه : كـدنـا والله نفتضـح ونهلك .

نعم، ماذا يفعل اذا أوقفه الله يوم القيامة وسأله : لماذا لم تنصف هـذه المسكينـة يـا عمـر، وتـردهـا الى أهلهـا ومنزلها ، وقد علمت انها أخـذت بغير حق ؟

وماذا هو قائل والله لا تخفى عليه خافية ؟

كل ذلك وأكثر من ذلك كان يدور في رأس الـرجل، والجارية تنثر كيدها وتنشر حسنها من حوله .

احساس رباني غلب فيه احساساً حيوانياً .

احساس انساني أمات فيه احساساً أنانياً .

ذلك هو عمر بن عبد العزيز ، وتلك هو صوفيته .

وليت الامر وقف بك عنـد هذه المـرتبة يـا عمر، اذا لسلكوك بما فعلت في عـداد عـظمـاء التـاريـخ ، وأعـلام العباقرة .

ولكن هناك حادثة أخرى ، تمـوج بالـربانيـة ، وتفوح بالانسانية ، وددت لو أن كل انسان في هـذه الدنيـا قرأهـا فوعاها .

عمر بن عبد العزيز
(٥)

كان عمر يجلس في منزله، فاذا بأصوات غاضبة ترتفع ، ثم يدخل رجال بصبي صغير يبكي ويحاول ان ينفلت منهم رعباً .

فسأل عمر: ماذا ؟ . . لماذا جئتم به ؟

وكانت أم ذلك الطفل واسمها مريثة ، من ورائه، فقالت : هذا ابني وهو يتيم .

فقالت فاطمة بنت عبد الملك ، وهي في جنون من الغضب: أمن أجل أنه أبنك وأنه يتيم يهجم على أبني وهو اصغر منه سناً ، ويضربه بحجر فيفتح به رأسه !؟

وانتظر الجميع فصل الخطاب من عمر .

فجعل أمير المؤمنين يهون على مريثة ويقول : لا تخافي . . . ما الذي حدث ؟

فقصت الام عليه القصة وأنبأته أن ولدها يتيم .

فما ان سمع عمر قولها حتى قال على الفور: هل فرض له في بيت المال؟

فهل كان لعاطفة الابوة والقرابة سبيل على عقله

قالت مريئة ، وقد ذهب عنها ما بها من خوف على ولدها: كلا يا سيدي.

عمر: كيف ؟ . . ان له حقاً معلوماً في بيت المال لانه يتيم ، وأعلم أن مثله يستحق الاعانة ؟ . .

فقالت الام : ولكن هذا ما حدث يا أمير المؤمنين .

فقال عمر لمن حوله : اكتبوه في المستحقين .

وصاحت فاطمة : ولكن ولدك الذي يسيل منه الدم بغير ذنب .

فلم يزد أمير المؤمنين على أن قال في طمأنينة : على رسلك يا فاطمة . . (ذلك يتيم أرعبتموه!!)

وخرجت الام وولدها لا تكاد تحملهما أرجلهما من الفرح والسرور !

ذلك ما قضى به عمر في قضية رفعت اليه ، والجاني فيها صبي غريب، والمجني عليه ابنه الصغير ، والشهود

أمهات الصبيين ، تلك غريبة عنه ، وهذه زوجه .

وحكمه ؟

اللهم أنت تشهد أن عمر بن عبد العزيز قضى في تلك القضية بما هو فوق طاقة البشر !!

ولو أن مثل تلك القضية رفعت الى انسان ما ، فقضى فيها بأن يفتح الصبي المجني عليه رأس الصبي الجاني ، لقيل ذلك هو العدل ، والسن بالسن والبادي أظلم.

ولو أنه قضى فيها ، أن يضرب الصبي الجاني ، لقيل غاية الرأفة والرحمة أن يفعل به ذلك .

ولو أنه قضى فيها ، بشتم الصبي وايلامه بقارص الكلم، لقيل انما كان ذلك عن تساهل من القاضي .

فكيف وعمر لم يفعل شيئاً من ذلك كله ، ولا ما هو أهون من ذلك كله ، وهو أن يتغير لونه ولو قليلاً ، ويغضب ولو يسيرا ، عندما يرى ابنه وقد فتحت رأسه ، وتدفق منها الدم غزيراً . وذلك شعور لا يؤاخذ عليه ، وهو شيء لا يدافع ولا سبيل للانسان عليه .

الا ان عمر لم يظهر عليه حتى ذلك الشعور الذي هو غريزي في كل انسان !

بل ترك المشاعر الانسانية جانباً، ومات فيه احساس الأبوة وغلب عليه اذ ذاك احساس رباني رفيع .

غلب عليه العطف على الطفل الجاني لانه يتيم .

يتيم ؟ . .

كلمة خرجت من فم مريئة تدافع بها عن نفسها وولدها ، مخافة أن يبطشوا به .

فما كان من أمير المؤمنين الا أن التقطها بقلبه، فاهتز لها وجدانه،وانتفضت لها روحه الطاهرة ، وناداها : لبيك يا مريئة لبيك . . هوني هوني عليك . . أكتبوه في المستحقين! . .

ذلك ما قضى به عمر بن عبد العزيز في تلك القضية .

وهو لعمري قضاء فوق ما يكون القضاء ، وحكم ليست تدانيه الاحكام .

وعمر بن عبد العزيز في ذلك الحكم ، يرتفع عندي الى ما يداني مقام الخليل ابراهيم عليه السلام «**اذ قال له ربه أسلم ، قال أسلمت لرب العالمين**» .

ذلك أن إبراهيم عليه السلام عندما أضجع ابنه الصبي الصغير اسماعيل عليه السلام ليذبحه امتثالاً لأمر الله ، لم

يكن فاقداً لشعور الابوة وحنانها على ولده، وانما كان يحس احساساً عالياً فوق ذلك الاحساس الغريزي . كان عليه السلام يغلب عليه الاحساس بطاعة الله ، يحب الله وأمر الله أكثر مما يحب ابنه، فغلب احساس على احساس ، وكان ما كان منه عليه السلام .

وذلك هو المعين الذي فاض منه تصرف عمر بن عبد العزيز في تلك القضية . فكما أن الخليل عليه السلام رضي ذبح ابنه ارضاء لله وحباً لله .

فكذلك عمر بن عبد العزيز نسي ما حدث لابنه ارضاء لله وحباً فيما عند الله .

بذلك يرتفع عمر بن عبد العزيز الى مقام عزيز ، لا يدانيه فيه الا القليل.

وخرج عمر بن عبد العزيز يوماً يتنزه في بساتين دمشق الغناء وفي رفقته «رجاء» فوقف على راهب يجلس جلسة المفكر المتأمل .

فقال عمر للراهب : عظني .

فقال الراهب : عليك بقول الشاعر :

تجرد من الدنيا فانك انما
خرجت الى الدنيا وأنت مجرد

فقال عمر: جزاك الله خيراً .

واستدعى عمر «أبا سلام» من العراق ، فلما مثل أمامه قال: ما أردنا المشقة عليك، ولكن أردت ان تشافهني بحديث الحوض مشافهة .

فقال أبو سلام : سمعت ثوبان يقول قال رسول الله ﷺ وسلم ؛ «**حوضي ما بين عدن الى عمان البلقاء، ماؤه أشد بياضاً من اللبن ، وآحلى من العسل، وأكوابه عدد نجوم السماء، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها ابداً، وأول الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين ، الشعث رؤوسا، الدمس ثيابا ، الذين لا ينكحون المتنعمات ، ولا تفتح لهم السدر**»

فقال عمر : لكني نكحت المتنعمات ، فاطمة بنت عبد الملك.

لقد كان رضي الله عنه يخشى ان يحول زواجه بفاطمة بنت عبد الملك ـ وهي بنت الخليفة ـ وبين السبق في الآخرة !

وهذا مقياس لعمر الله ، رفيع في ميزان النفوس .

* * *

ودخل عليه ذات ليلة ـ وهو أمير المؤمنين ـ رجال يسمرون عنده ، فرأوا عنده مصباحين ، فسألوه في ذلك فقال: أما أحدهما فملك لبيت المال، وأما الآخر فملكي الخاص . أكتب على الاول حوائج المسلمين، وأكتب على الثاني أعمالي الخاصة .

ثم هبت ريح شديدة ، فأطفأت السراج ، فنهض عمر يصلحه ويوقده، فقيل له : لو أيقظت غلامك فأشعله بدلاً منك.

فقال عمر : لا أحب أن أجمع عليه عملين ! .

فقال أحد الجالسين : أنا أوقده اذن يا أمير المؤمنين .

فقال عمر: ليس من المروءة استخدام الضيف . تأمل ما في هذه الفعلة من آيات الأخلاق وبدائع الصفات .

حاكم الدنيا يأبى أن يستعمل مصباح الدولة في حوائجه ، وانما يشعل مصباحه اذا كان في أمر نفسه ، ويشعل مصباح الدولة اذا كان في أمر الدولة !

بل وأبدع من ذلك، لا يريد أن يجمع على خادمه عملين ، عمل بالليل وعمل بالنهار، وتركه ينام ليستريح من عمل النهار .

فأين ذلك من استبداد الناس في هذا الزمان بالخدم ، وتسخيرهم في غير ما رأفة ولا رحمة .

وفوق ذلك وذلك يأبى أن يشعل أحد ضيفانه المصباح لأن ذلك ليس من المروءة !!.

* * *

عمر بن عبد العزيز

- ٦ -

وقام أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز من نـومه ذات ليلة ، وقص على زوجه رؤ ياه التي رأى .

قال عمر: رأيت كأني دفعت الى أرض خضراء واسعة كأنها بساط أخضر، واذا فيها قصر كأنه الفضة ، فخرج منه خارج فنادى : أين محمد بن عبد الله ، اين رسول الله ؟ أذ أقبل رسول الله ﷺ حتى دخل ذلك القصر ، ثم خرج آخر فنادى : أين أبو بكر الصديق ؟ ، فأقبل فـدخل . ثم خـرج آخر فنادى : أين عمر بن الخطاب ؟ ، فـأقبل فـدخل . ثم خرج آخر فنادى : اين عثمان بن عفان ؟ ، فأقبل فدخل . ثم خـرج آخر فنـادى : أين علي بن أبي طـالب؟ ، فـأقبـل فدخل . ثم خرج آخر فنادى : أين عمر بن عبد العزيز ؟ ،

فقمت فدخلت فجلست الى جانب أبي عمر بن الخطاب ، وهو عن يسار رسول الله ﷺ ،وأبو بكر عن يمينه ، وبينه وبين رسول الله ﷺ رجل ، فقلت لأبي : من هذا ؟. قال : هذا عيسى بن مريم. ثم سمعت هاتفاً يهتف، بيني وبينه نور لا أراه ، وهو يقول : يا عمر بن عبد العزيز، تمسك بما أنت عليه ، واثبت على ما أنت عليه .

ثم اذن لي في الخروج فخرجت ، فالتفت فاذا عثمان بن عفان وهو خارج من القصر وهو يقول: الحمد الله الذي نصرني ربي . واذا علي في أثره وهو يقول: الحمد الله الذي غفر لي ربي .

وبعد أن قص أمير المؤمنين عليها ما رأى ، بشرته خيراً كثيراً في آخرته .

وعندى إن تلك الرؤ يا رؤ يا حق ، بل هي تتلألأ نوراً وتبدو كفلق الصبح .

ولقد أجمع الفقهاء والعلماء والعباد ، على أنه رضي الله عنه هو الخليفة الخامس بعد رسول الله ﷺ .

***

ووقفت ذات يوم احدى الجواري تروح عليه من شدة الحر فنامت وهي تروحه .

فما كان منه رضي الله عنه الا أن قام وجعل يروحها كما كانت تروحه وهو يقول: أصابك من الحر ما أصابني !

***

ومن روائعه رضي الله عنه أن جاءته امرأته تخبره بموت ابنهما عبد الملك وكان ابن تسع عشرة سنة ، فما زاد على أن قال : أمر رضيه الله فلا أكرهه !

قولة عميقة عمق نفس عمر بن عبد العزيز ، لا ينطق بها الا من كان على مثل تقواه وهداه .

***

واستفاض في انحاء العالم عدل عمر، وتناقلت الأفواه سيرته العاطرة الزاهرة ، فأقبل الناس يدخلون في الاسلام أفواجاً .

وكان ممن أسلم طائعاً مختاراً ، كثير من ملوك الهند والسند، وتسموا بأسماء العرب.

وبعث أحدهم اليه خطاباً جاء فيه : «من ملك الهند والسند، ملك الأملاك ، الذي هو ابن ألف ملك، وتحته ابنة ألف ملك ، والذي في مملكته نهران ينبتان العود والكافور التي يوجد ريحها من اثنى عشر فرسخا ، والذي

في مـربـطه ألف فيـل، وتحت يـده ألف ملك، الى ملك العرب. أما بعد، فان الله قد هداني الى الاسلام ، فابعث الى رجلاً يعلمني الاسلام والقرآن وشرائـع الاسلام، وقـد أهديت لك هدية من المسك والعنبر والند والكافور فاقبلها ، فانما أنـا أخـوك في الاسلام، والسلام».

فسـر أمير المؤمنين سـروراً بالغـا عندمـا قرىء عليـه الخطاب ، وأمر بارسال الفقهاء والعلماء اليه .

وكيف لا يدخل الملوك وتدخل الشعوب الاسلام عن طواعية واختيار وقد سمعوا عن عدله في سائر الناس ؟

كيف لا يكـون عمر بن عبـد العزيـز سبباً في اسـلام الملايين وقد كان يخدم نفسه بنفسه ، ويكنس بيته بيديه؟

وكان قبل الخلافة يلبس القميص الغليظ المـرقوع . كيف لا وقد اهديت اليه تفاحة من رجل يحبه في الله فشمها ثم ردها اليه فقيل له في ذلك انرسول الله ﷺكان يقبل الهدية فقال: ان الهدية كانت لرسول الله ﷺ هدية فأما نحن فهي لنا رشوة !

***

وفي سنـة احدى ومـائة مـرض أمير المؤمنين مـرضـاً شديداً فبعث يوصي عماله : «أما بعـد . . ان الذي ولاني

الله من ذلك وقدر لي ليس على بهين، ولو كانت رغبتي في اتخاذ أزواج ، أو اعتقال أموال، لكان في الذي اعطاني من ذلك ما قد بلغ بي أفضل ما بلغ بأحد من خلقه، وأنا أخاف فيما ابتليت به حساباً شديداً ، ومسألة غليظة ، الا ما عفا الله ورحم . . »

***

وبعث اليـه أحد أصحـابه وردة من بسـاتين دمشق ، يشمها في مرضه ،علهـا تروح عنه شيئاً مما به، فجعل يسد منخريه ، وهو يقول : لا حول ولا قوة الا بالله ، ثم يأمرهم أن يبتعدوا بها ، فقيل له في ذلـك فقال: وهـل يستفاد من الورد الا برائحته ؟!

***

وحدثوه في أمـر التداوي من مـرضه، وأن ينـظروا له طبيباً فقال: لو كان دوائي في مسح أذني ما مسحتها ، نعم المذهوب اليه ربي !!

لقد كان الرجل يتعجل الذهاب الى الله . . هناك حيث يلتقي بالأحبة . . محمداً وصحبه .

***

وفي رجب من نفس العـام بعـد أن اشتكى عشـرين

يوماً ـ اشتد قلقه ليلة ، فسهر أهله معه . فجعلت فاطمة تبكيه هي والجواري .

فقال عمر: من بكى فليبك على نفسه، ميت يشيع ميتاً !

فلما اقترب الفجر من تلك الليلة قالت فاطمة للغلام : امكث معه يا مرثد، ان أراد شيئاً تكن قريباً منه ، أما نحن فسوف نذهب نغفو قليلاً في الطابق الأسفل.

فلما كان من الفجر، صحا عمر صحوة فقال لمرثد: أخرج . . أخرج ودعني وحدي .

فقال مرثد: لا أستطيع أن أدعك وحدك الآن .

فقال عمر: أخرج . . اني أرى شيئاً ما هو بانس ولا جن .

فخرج مرثد مسرعاً .

أما عمر فجعل يردد: تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين .

ثم دخلت عليه فاطمة بنت عبد الملك ، فوجدته قد وجه نفسه للقبلة وهو ميت!

ذلك شيء من سيرة عمر بن عبد العزيز، الرجل الذي

كان يحكم نصف العالم على خوف من الله ، وأساس من تقوى الله .

الرجل الذي كان دستوره الذي يأخذ نفسه به ، ويأخذ الناس عليه ، الآية التي اختارها لتكون على المنابر يوم الجمعة «ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون» .

وما كان اختياره رضي الله عنه لهذه الآية، وامره أن تحل محل لعن الامام علي رضي الله عنه في خطب الجمعة، الا لأنه كان يتمثلها ويحبها ويطبقها .

لقد كان مثالاً عملياً لتلك الآية .

فكان يعدل لأن الله يأمر بالعدل .

وكان في مقام الاحسان لأن الله يأمر بالاحسان. وكان ينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي لأن الله ينهى عن كل ذلك .

وما زال رضي الله عنه يترقى بالأمة في هذا السبيل حتى كان الرجل في عهده يلقى الرجل فيسأله كم ورده الليلة وكم قام من الليل .

* * *

وهكذا سعدت به الأرض حينا من الدهر .

ثم انتقل سريعاً الى السماء ليسعد به أهل السماء كما سعد به أهل الأرض .

سلام على عمر بن عبد العزيز، سلام على عباده الذين اصطفى .

* * *

وما ينطق عَن الهَوى

عن عمر بن الخطاب قال بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس الى النبي ﷺ وسلم فأسند ركبتيه الى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال يا محمد أخبرني عن الاسلام فقال الاسلام ان تشهد ان لا اله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا قال صدقت قال فعجبنا له يسأله ويصدقه قال فأخبرني عن الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال صدقت قال فأخبرني عن الاحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فان لم

تكن تراه فانه يراك قال فأخبرني عن الساعة قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل قال فأخبرني عن أماراتها قال ان تلد الأمة ربتها وان ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان قال ثم انطلق فلبثت ملياً ثم قال لي يا عمر أتدري من السائل قلت الله ورسوله اعلم قال فانه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم . (أخرجه مسلم).

يعتبر هذا الحديث من أعلى وأحلى وأكمل أحاديثه صلى الله ﷺ. ففيه بيان من رسول الله ﷺ، وسؤال من جبريل عليه السلام .

وتتجلى العظمة في أبهج معانيها عندما يكون السائل جبريل والمجيب محمد.

وأي عظمة تلك التي اجتمع لها الجمال والكمال من طرفيه . فلو ان صحفياً ذائع الصيت قام الى رئيس دولة كبرى يسأله لرأيت الناس يتلهفون على قراءة الأسئلة وأجوبتها، احساساً منهم بخطورة الكلام وعظمة البيان. فكيف والسائل هنا هوجبريل؟

وما أدراك ما جبزيل ؟.

سفير رب العالمين لدى رسول الله وأنبيائه. الروح

الأمين ، الذي أئتمنه الله على كلماته ، فحملها وأوحاها الى رسله ، وهم بدورهم أوحوها الى عباد الله .

وكيف والمجيب هنا هو محمد ؟

وما أدارك ما محمد؟ .

محمد رسول الله .

خير خلق الله، وأصفاهم روحاً ، وأسماهم نفساً ، وأعلاهم ايماناً، وأقواهم حجة ، وأنصعهم بياناً ، وأرفعهم مقاماً .

وعندما يجتمع للسؤال شرف السائل وشرف المسئول ، فهو خير سؤال وجوابه خير الجواب .

ويزيد السؤال شرفاً، أنه عن أنباء هي أخطر الانباء، وأخبار هي اشد الاخبار خطورة لو يعقل الناس .

انه يسأل عماذا ؟

يسأل عن أمور هي أمور كل الناس، وأحوال هي احوال كل الناس.

قال جبريل: يا محمد . . . أخبرني عن الاسلام .

ما هو الاسلام يا محمد؟ .

وينبغي هنا أن يتنبه أولئك الذين يعملون في حقل

الدعوة الاسلامية ، فليصغوا بآذانهم وقلوبهم ، فان نفس السؤال يلقى عليهم من الكفار والعصاة والمسلمين أنفسهم .

يريد الناس كافة ان يعلموا ما الاسلام ، في كلمات قليلة ، ناصعة واضحة بيضاء .

هاكم اجابة محمد ﷺ، العقل الرائع، والقلب السليم ، والفكر العميق .

قال محمد ﷺ : أن تشهد أن لا اله الا الله .

أصل الأصول ، وقلب الشريعة ،وروح الحقيقة أن تشهد يا انسان أن لا اله الا الله .

وماذابقي من الحقائق بعد هذه الحقيقة ؟

آه لو تشعشعت هذه الحقيقة وحدها الى قلبك أيها الانسان.

انك اذا أعظم ما خلق الله ، لأنك أدركت اعظم الحقائق التي أرادها الله من هذا الكون الرائع .

وماذا يبقى من العلم بعد ادراكك لتلك الحقيقة العظمى؟ .

لا شيء والله . . . من بلغها فقد بلغ العلم كله ، ومن

فقدها فقد فقد العلم كله ، ولو كان أعلم الناس بعلوم الناس .

وذلك هو السر في أن الله تعالى يدخل جهنم من ينكرها ويدخل الجنة من يؤمن بها .

ذلك أن كل شيء بدونها باطل . وكل شيء معها حق .

ثم يزيد رسول الله ﷺ الخير خيراً فيقول: وان محمداً رسول الله .

بأبي أنت وأمي يا رسول الله . . . تالله انك لأنت الطريق الى الله ، وأنت الذي عرف الناس كيف يعرفون ربهم .

وان أولئك الذين آمنوا بالله وكفروا بك قوم كذابون .

لأن كل من آمن بالله ، طالبته روحه ان كان صادقاً في ايمانه ـ أن يبحث عن الطريق الى الله .

ولن يكون الطريق الى الله ، الا ما جئت به ، وبلغته عن ربك .

ثم اني أطالب كل انسان أن يتعمق ذلك المعنى «أن محمداً رسول الله» .

ما معنى أن محمداً رسول الله ؟.

معناها ؟...

آه لو فكرتم فيها أيها الناس...

ان من معانيها أن محمداً رسول الله حقاً وصدقاً. فاذا انسكب ذلك في نفسك، أحببته ﷺ، فاذا أحببته أتبعته، فاذا اتبعته وجدت نفسك فجأة مع الله.. هنالك تخر للأذقان ساجدا وأنت تبكي وتقول... أشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله.

هاتان هما الحقيقتان العظميان.. طوبى لمن آمن بهما.. ثم طوبى لمن آمن بهما...

ثم يقول ﷺ بعد أن فرغ من بيان الاصل الأول من لاسلام: وتقيم الصلاة.

شيء هين اقامة الصلاة، فان أكثر الناس يصلون، فما بالهم لا يعرفون الحق من الباطل ؟.

كلا إن أكثر المصلين لا يصلون.

إنهم يأتون بحركات تقليدية ميتة، ويقومون ببهلوانيات لا روح فيها ولا حياة

ولو صلى المصلي حقاً، لانفتحت له ابواب السماء

ولانبجست له عيون المعارف واللطائف ، ينفجر بالحب والرحمة والجمال.

ولكن الناس لا يصلون .

انهم يقومون اليها كسالى، ويتحاملون على أنفسهم كالحبالى .

ولكنهم لو صلوا الصلاة لوقتها، في حضور وخشوع ، واقبال على الله ، وأتموا فرائضها وسننها ، لخرجوا منها بشيء رائع .

بحضرة الهية يذوقون فيها ألواناً وأصنافاً من الفيوضات الربانية .

ثم يقول ﷺ: وتؤتي الزكاة .

مفروضة أو مسنونة .

يخرج زكاة ماله لأن الله أمر أن يخرج الاغنياء فضول أموالهم للفقراء. ثم هناك من بعد الزكاة الصدقات ، وهو باب آخر له من أبواب الترقي للمؤمن .

مجتمع متكافل متعاون متكامل .

وأن أكمل السبل وأهداها لمقاومة المبادىء الشريرة لهو العدل .

العدل الحقيقي ، لا العدل المزيف .

العدل الذي ينتصر للفقراء من الاغنياء ، وليس ذاك الذي يضعه الاغنياء ليستذلوا أعناق الفقراء .

والزكاة هي مظهر من مظاهر تحقيق العدالة الاجتماعية في الاسلام.

ثم يقول ﷺ: وتصوم رمضان .

شهر من اثنى عشر شهراً، يتخلى فيه الانسان لربه ، ويدع طعامه وشرابه وشهوته من أجل الله .

ومن صام حقاً غفر له حقاً .

«من صام رمضان ايماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه . . .»

ثم يقول ﷺ، وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا .

تلك خاتمة المطاف للمسلم، أن يزور بيت الله العتيق، فيتذكر جهاد النبي ﷺ، وبلاءه في دين الله ، ونصرة شريعة الله .

وليربط المسلم نفسه بمعنويات ذلك الدين ومنابعه .

ولكن لمن ؟.

لمن استطاع اليه سبيلا. . . لا حرج في الدين. . .

وكـذلـك في كلمـات قليلة، جمـع رسـول الله ﷺ فأوعى.

وصدق الله : وما ينـطق عن الهوى، ان هـوالا وحي يوحى . . .

جبريل يسأل
ورسول الله يجيب

«. . . قال فأخبرني عن الإيمان قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال صدقت. . .».

(أخرجه مسلم)

يسأله جبريل عليه السلام: فأخبرني عن الإيمان.

قال رسول الله ﷺ: أن تؤمن بالله .

وهنا نقف وجهاً لوجه مع إحدى المشكلات الإسلامية الكبرى.

هل الإسلام شيء والإيمان شيء آخر ؟

فمن قائل أنهما بمعنى واحد، ولهم في ذلك نصوص ونصوص، ومن قائل أنهما شيئان متغايران ، ومن قائل أنهما

يتلازمان حيناً ويفترقان حيناً، ومن قائل أن الإسلام هو الانقياد الظاهري، والإيمان هو الانقياد الباطني.

وعندى أن ذلك كله يشير الى الموضوع من زاوية ويغمض عينيه عن بقية الزوايا.

والحقيقة لا تسطع مشرقة إلا إذا أحطت بها علماً من جميع جوانبها.

إنك إذاً من العالمين بها.

ومالنا نحن وهذا الذي يقوله الناس، أيا كان مقامهم من العلم أو الفقه او الفلسفات!.

ومالنا ندع الإشراق النبوي، والحلاوة القدسية، التي تترقرق من النبع الإلهي صافية خالية، دانية قطوفها، ونغرق أنفسنا في حدود وسدود وقيود من مفاهيم الناس؟.

إن رسولنا الذي أرسله الله إلينا عرف الإسلام تعريفاً جامعاً مانعاً، فلما جاءه جبريل يسأله عن الإيمان، عرف الإيمان تعريفاً متبايناً للإسلام.

إذاً هذا شيء وذلك شيء.

الإسلام له حدود ومعالم، والإيمان له حدود ومعالم كذلك.

فلننته عند قوله ﷺ ، ولا نقدم بين يدي الله ورسوله .

قال رسول الله ﷺ : أن تؤمن بالله . . .

إن رأسي لتدور وتدور، إن أنا تركتها تفكر في ذلك المعنى .

وهل الله مما يستطاع التفكير فيه ؟

إني لا أدري كيف التعبير ولا ماذا يمكن ان يقال؟

أن تؤمن بالله . أن تصدق بوجود الله .

هل هذا هو المعنى ؟

إنه يبدو تعبيراً تافهاً .

إذاً ماذا يكون المعنى ؟.

إن الله سبحانه وتعالى خلق كل شيء ليعبده ليس إلا ، فكل شيء يسبح بحمده، فينبغي أن تؤمن أنت بوجود الله ، لأنك إن تأبيت وأنكرت ، فكل ذرة فيك تسبحه رغم أنفك ، فأولى لك ثم أولى، أن تتجاوب مع أنغام الكون السارية في كل شيء.

* * *

ثم يقول ﷺ : وملائكته . . . إن هناك ألواناً لاحصر لها من الملائكة ، هناك حملة العرش، وهناك ملائكة

الجنة ، وملائكة النار، وملائكة السماوات ، وملائكة القطر، وملائكة الموت ،وملائكة النفخ، ، وملائكة الرحمة . وملائكة العذاب ، و . . و . . و. . وما يعلم جنود ربك إلا هو . . .

الأمر إذاً شيء كبير . . .

إن هناك مخلوقات لا حصر لها غير سكان هذه الأرض من إنس وحيوان .

وكل هذه المخلوقات تسمى ملائكة ومنها ما هو أضخم من السماوات والأرض مجتمعة ، ومنها ما هو دون ذلك، ولكل درجات عند ربه، وما منهم إلا له مقام معلوم، وإنهم لهم المسبحون، وإنهم لهم الصافون .

هل هذا مما يستطاع التفكير فيه ؟ .

إنه شيء فوق مدارك الإنسان المحدودة

ولكنه حق . . إي والله حق . . وإن غاب عن حواسنا وأعيننا .

***

ثم يقول ﷺ : وكتبه .

أصدق بالقرآن والإنجيل والتوراة وصحف إبراهيم ، مما أعلم ومما لم أعلم .

ولله كتب لم يقصصها علينا ، كما أن له سبحانه رسلاً لم يقصصهم علينا ، رحمة بنا لا نسياناً، ذلك لأن عقولنا لا تسع أكثر مما قص علينا .

ولقد ضاقت عقولنا ، وقصرت أفهامنا عن القيام بما أنزل إلينا، فكيف يكون الحال لو أن الله حدثنا بكل شيء ، وفصل لنا كل ما حدث ؟ .

لقد كان من الممكن ان يقص الله علينا قصة الرسل جميعاً، وقصة كتبهم كلها ، وإن هذا لشيء هين على الله .

ولكن الله يعلم ضعفنا وقلة حولنا ، فأمسك عنا شيئاً وحدثنا بشيء .

أو من بكتبه جميعاً، ما قصها وما لم يقصصها .

لأنها كلها صادرة منه ، فهي كلها جاءت بحقيقة واحدة، اختلفت طرق الأداء واتحدت غاياتها .

* * *

ثم يقول ﷺ : ورسله .

من آدم عليه السلام إلى محمد عليه الصلاة والسلام أومن بهم جميعاً ، لأنهم جاءوني من عند ربي، وما جاءوني إلا بما يرحمني، فكيف لا أومن بهم ؟ .

إن الله أرحم بي من والدي، فهو إذا لا يبعث إلي إلا ما فيه خيري.

إذا ينبغي توقير الرسول ،وتعظيمه وطاعته، أياما كان زمانه ومكانه وأمته التي أرسل إليها .

آدم، نوح ، إبراهيم، موسى ، عيسى ، محمد ما هؤلاء جميعاً ؟ .

إنهم الرحمة المهداة إلى البشر الضعاف الضالين ، ليأخذوا بأيديهم إلى الله .

فهم جميعاً على العين والرأس.

أمرهم أمر الله ، وطاعتهم طاعة الله ، وحبهم حب الله، وطريقهم طريق الله .

عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين .

* * *

ثم يقول ﷺ: واليوم الآخر.

واليوم الآخر ـ في لغة الشريعة ـ من لحظة الموت حتى يدخل الناس إما الجنة وإما النار، ثم ما يكون لهم بعد ذلك من نعيم أو عذاب ، لا يعلم منتهاه إلا الله .

أومن باليوم الآخر، من أوله إلى آخره .

أومــن أنني في يوم ما ـ معلوم لله ـ وساعة ما ـ مجهولة لي ـ سيأتيني الموت ، فجأة أو بغتة، فيبهتني ويأخذني فلا فوت .

أومــن انني سوف أموت ، وأترك كل هذه السخافات التي تشغلني وتشغل سائر الناس .

أومن أنني سأترك أولادي وامــرأتي ووالدي وأحبـائي وأصـدقائي ، وانسلخ عنهم جثــة ، لا تسـاوي شيئـاً ، لـو عرضت للبيع لزهدت فيها حتى الـكـلاب.

ذلك أنا كـإنـسانمادي ، أو حفنة من تراب ورماد.

أما أنا كروح كرمه الله ، فــأومن أنني إن كنت مقبـولاً فـروح وريحـان وجنـة نعيم ، وإن كنت مـطروداً فعــذاب وجحيم .

أو من بذلك ، ومتى آمنت بذلك ، هـانت الدنيـا في نــاظري ، وتخلخلت القيم التي يحتــرمهــا النــاس في تفكيري .

واتجهت بكلي إلى الله ، أحترم ما يحترم، وأحتقر ما يحتقر، وأحب ما يحب، وأكره ما يكره .

أما تلك القواعد والقيم التي ابتدعهـا الناس ، وظنـوا

أنها مقدسات وقوانين، فلا وزن لها في تفكيري طالما أنها لا وزن لها في تقويم الله .

أومن بذلك كله ، وأومن أنني يوماً ما سأجمل على كواهل الرجال، نعشاً كريه المنظر، غبي الإخراج .

ثم أدلَّى في الحفرة ، ويتولى عنيٍ ما كنت مغروراً بهم وكانوا بيَ مغرورين ، حامدين الله أن تخلصَوا من جيفتي التي كانت تثير الرعب في نفوسهم وهي بالمنزل .

وأومن بحياة القبر، إما روضة من رياض الجنة وإما حفرة من حفر النار!

وأومن بالنفخة الأولى التي سيصعق فيها كل شيء ويهلك .

وأومن بالنفخة الثانية التي سيبعث فيها كل شيء .

وأومن أنني سأحاسب ، وسوف أساق إلى الجنة أو إلى النار.

وأومن وأومن . . . بما فصله كتاب الله وسنة رسول الله .

ما هذا ؟ .

أذلك هو اليوم الآخر ؟

بلى . . . بل هذه إشارات في اليوم الآخر وإنه لأكبر مما تظنون .

* * *

ثم يقول ﷺ: وتؤمن بالقدر خيره وشره .

تلك مشكلة المشاكل ، وعقدة العقد، في علم البشر الضعاف، أما في علم الله فهي ليست شيئاً، إنها معلومة له سبحانه، مستقرة عنده ، ماضية في خلقه كما أرادها .

والذين في قلوبهم زيغ يقولون فيها أقوالاً ، ويؤلفون فيها كتباً ، ويجادلون فيها جدلاً .

بل لم تظفر قضية باهتمام الناس بمثل ما ظفرت به تلك القضية .

كل إنسان يفكر فيها ، وكل إنسان له رأي فيها .

لو أحصيت ما كتب عنها في التراث الفكري ، لرأيته ألوفاً وألوفاً من الكتب.

ولو تسمعت إلى أقوال المتجادلين فيها من آدم حتى قيام الساعة، لسمعت ما لا حصر له من الخلق وهم يتحاورون فيها.

والأمر فعلاً وحقاً أمر خطير.

ولكن هل من المستطاع الوصول إلى سر القدر؟

هل هناك من إجابة شافية كافية على ذلك السؤال؟

ما هو القدر ؟

القدر هو ما قدر الله على الإنسان من خير أو شر.

جميل . . . ولكن لماذا قدر لذلك الإنسان غير ما قدر لذاك ؟

لست أدري .

جميل . . . فلماذا إذاً هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار؟

لست أدري أيضاً .

إذاً أنت أيها الإنسان لست تدري شيئاً؟

هذا هو الحق . . . بل وأشد من ذلك ، أنك ستظل لا تدري عن ذلك شيئاً ! !

فالخير لك أن تبتعد عما هو ليس من قبيل المعرفة الإنسانية .

إن القدر هو السياسة العليا لله ـ إن جاز هذا التعبير ـ وهو أمر يعلمه الله وحده.

ولن يسمح لغيره بعلمه .

وما ذلك إلا رحمة للعالمين .

فمن القدر ـ مثلاً ـ الساعة التي تموت فيها ،أخفيت عنك رحمة بك ، ويمكنك أن تتصور حالك لو كشف لك الغطاء وعلمت متى تموت .

فلا مخرج إلا التسليم .

التسليم التام المطلق لله . . .

وهذا هو الإيمان بالقدر خيره وشره . . .

«قل كل من عند الله . فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً؟!!»

رسول الله
يعرفنا الاحسان

قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك . (مسلم).

قال النووي: «هذا من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ لأنا لو قدرنا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى لم يترك شيئاً مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت واجتماعه بظاهره ، وباطنه على الإعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها إلا أتى به فقال ﷺ: اعبد الله في جميع أحوالك كعبادتك في حال العيان فان التتميم المذكور في حال العيان إنما كان بعلم العبد بأطلاع الله سبحانه وتعالى عليه فلا يقدم العبد على تقصير في هذا الحال للاطلاع عليه وهذا المعنى موجود مع عدم رؤ ية

العبد فينبغي أن يعمل بمقتضاه فمقصود الكلام الحث على الاخلاص في العبادة ومراقبة العبد ربه تبارك وتعالى في إتمام الخشوع والخضوع وغير ذلك .

وقد ندب أهل الحقائق الى مجالسة الصالحين ليكون ذلك مانعاً من تلبسه بشيء من النقائص احتراماً لهم واستحياءمنهم ، فكيف بمن لا يزال الله تعالى مطلعاً عليه في سره وعلانيته !!

قلت : هاتيك الكلم الغوالي لسن مما يطيقه بشر، وإنما هو شيء فوق طاقة البشر، هو الوحي ، هو النبوة تتحدث بأعلى معانيها .

يسأله جبريل عليه السلام : فأخبرني عن الاحسان .

ما الاحسان يا رسول الله !

فهل كان جبريل في حاجة إلى السؤال وإجابته ، أم أنه أسلوب من البيان والتبيين للناس أجمعين؟ .

مما تأسى له النفس ويندى له الجبين ، أن كلمة الإحسان الجليلة الجميلة ، تدلت وتنزلت من عليائها ،ليطلقها الناس في زماننا هذا على توافه الصدقات ، وحقير الأفعال . يقولون فلان محسن، يعنون بذلك أنه كثير

الصدقات. ويقولون: إحسان لله يا أسيادي ، يعنون صدقات لله . . . الخ هذا التعبير النازل الذي ألصقوه بالاحسان زورا وبهتاناً .

إنما الاحسان شيء عظيم، فوق أوهام صعاليك التعبد، وأراذل المتسولين.

وكما تحول كثير من عظائم الأمور في هذا الدين، إلى أوهام وسخافات ، فقد تحول الاحسان إلى صدقات وخرافات .

الاحسان الذي هو أعلى مقام في هذا الدين؛ نزلوا به وجعلوه شيئاً تافهاً ينحصر في ملاليم تدفع لفقير أو محتال !!.

وتلك مصيبة الأديان على كر الأزمان ، وفي كل زمان ومكان .

ينزل الدين من السماء غضا طرياً؛ الهياروحياً، يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور. . .

فيتلقفه المرتزقة، ومن لا صلة لهم بشيء من معانيه ، يشوهون جماله ، وينزلون بسموه، ويجعلون منه تمائم وتعاويذ ، ووسائل إلى أكل مال الناس بالباطل.

فالمصيبة ليست في الدين ذاته ، وإنما في محترفة الأديان .

فماذا كان جواب محمد رسول الله ﷺ؟ .

فما كان جوابه إلا أن قال: أن تعبد الله كأنك تراه .

وهذه الاجابة المقدسة تنقسم الى قسمين، القسم الأول: أن تعبد الله ، والقسم الثاني : كأنك تراه .

أن تعبد الله . . .

لم يقل النبي ﷺ، أن تحيا أو أن تعيش ، وإنما قال ان تعبد، فلماذا هذا ؟ . هل هو مجرد تعبير أو كلمة تنوب عن كلمة ؟ .

جل كلامه ﷺ عن أن يكون مجرد تعبير.

إنما كان اختياره لكلمة «تعبد» لسبب عميق .

هل تدري ما هو هذا السبب ؟ .

السبب أن الفكرة العامة والسبب الأصيل في خلق الانسان هو عبادة الله «وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون»، فالتعبير بالعبادة عن الحياة دون غيرها سن الكلمات من أدق وأعمق التعابير.

إنك أيها الانسان مخلوق لله وراجع إلى الله، وحياتك فيما بين مولدك إلى مماتك ينبغي أن تكون لله ، ومتى كانت

كذلك تحولت كلها إلى عبادات .

ما معنى هذا ؟

معناه أنك تستطيع ان تحول كل ما يصدر عنك من أفعال وأقوال وسكنات وحركات بل وأنفاس ونبضات ، إلى عبادات تثاب عليها وتؤجر عليها .

كيف ذلك ؟ .

ذلك ممكن ، بل هو الحق الذي قررته الشريعة «إنما الأعمال بالنيات» فمتى اتجهت صادقاً إلى الله في حياتك، تحول كل ، ما يصدر عنك إلى عبادات .

إذا أكلت باسم الله كان ما تأكل عبادة .

وإذا شربت باسم الله كان ما تشرب عبادة .

وإذا ما أتيت امرأتك باسم الله كان ما فعلت عبادة .

وإذا ما نمت على الفطرة متجها إلى الله كان نومك عبادة .

أرأيت لماذا اختار النبي ﷺ التعبير بكلمة «أن تعبد»؟

ذلك من أسرار الأنوار الكامنة في نور كلمته ﷺ .

فكأنما الرسول ﷺ يريد أن يقول «أن تحيا لله» .

ولكن الجمال والجلال يكمنان فيما هو آت من الجملة المقدسة لا فيما مضى منها ، يكمنان في قوله «كأنك تراه» .

كأنك تعاينه ، كأنك يا إنسان ترى الله جهرة في كل أحوالك ، لا يغيب ذلك عنك أبداً .

وهنا ينكشف لنا الغطاء عن سر هذه الحياة الدنيا .

إنها تقوم على فكرة هي غاية في الجمال، وغاية في الخفاء . وان كانت غاية في الظهور لمن كشف الله له الغطاء .

تلك الفكرة هي أن الله أقام هذه الحياة الدنيا بكل ما فيها ، ليعلم من يؤمن بالله بالغيب ومن لا يؤمن به .

من يصدق ان الله حق موجود قائم رغم أنه لا يراه ومن لا يصدق ؟ .

إن الله لم يره أحد منا ، ولن يره، في هذه الحياة ، فكيف إذن نصدق أنه موجود، تلك هي المشكلة، التي يفترق فيها الناس فرقاً وشيعا .

وهذا هو الفارق بين الايمان والكفر ، بين الحق والباطل .

أهناك اله أم ليس هناك إله ؟ .

فان صدقت به قبل منك كل ما كان منك على ما كان منك ، وإن لم تصدق به رد عليك كل ما صدر منك رغم ما كان منك .

والمؤمن يؤمن ان الله حق قائم يرى ويسمع كل شيء .

وأنه شيء من هذه الأشياء التي يراها الله ويسمعها دائماً وأبداً .

وهذه الحقيقة تقوم في قلوب المؤمنين، وتتأكد أو تتلاشى من أفئدتهم على قدر نقصان إيمانهم وزيادته .

فمن أشرقت في قلبه تلك الحقيقة منهم ، كان ذلك هو الحقيق أن يسمى محسناً .

فمقام الإحسان مقام عزيز ، لا يعيش فيه الا من أخلصهم الله لنفسه، وصنعهم على عينه .

الناس يحاولونه ولكنهم لا يصلونه، وإن وصلوا اليه تدلوا وهم دونه .

ومن كان في شك من ذلك، فليخبرنا متى استقام للناس إيمانهم ، حتى عاشوا كأنهم معاينون الله جهرة في كل آن ؟

اللهم رحمة من عندك تهدى بها قلوبنا ، فنعبدك كأننا نراك .

أما الشطر الثاني من تعريف الاحسان : فان لم تكن تراه فانه يراك فانه يتلألأ بهاء وسناء ورواء .

إنـه يراني ، يـراني حين أقـوم ، وحين أنـام ، وحين أكذب وحين اصدق، وحين استقيم وحين أضل، وحين أولد وحين أموت ، وحين أعبده وحين أكفره ، وحين اتجه اليه وحين أعرض عنه ، وحين اتوب اليه وحين أنقض عهدي معه ، يراني في كل ذلك، وفي غير ذلك، بل يراني قبل أن أخلق، بل ويراني فيما أنا قادم عليه من عيوب سأكون فيها ، ولما أصل اليها بعد ، يراني أولاً وآخراً فكيف الفرار .

كلا لا فرار .

أنا في قبضته منذ كنت نسيا منسيا وحين كنت ، وحين أكون ميتاً فانسى .

رحمتك اللهم ،رحمتك يا أرحم الراحيمن .

التوكـل

قال رسول الله ﷺ : يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب قالوا ومن هم يا رسول الله قال هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون . (مسلم) .

قـال النـووي : «اختلفت عبـارات العلمـاء من السلف والخلف في حقيقة التوكل ، فحكى الإمام أبو جعفر الطبري وغيره عن طائفة من السلف أنهم قالوا لا يستحق اسم التوكل إلا من لم يخالط قلبه خوف غير الله تعالى من سبع أو عدو حتى يترك السعي في طلب الرزق ثقة بضمان الله تعالى له رزقه ، واحتجوا بما جاء في ذلك من الآثار. وقالت طائفة : حده الثقة بالله تعالى والايقان بأن قضاءه نافذ واتباع سنة نبيه ﷺ في السعي فيما لا بد منه من المطعم والمشرب والتحرز من العدو كما فعله الأنبياء صلوات

الله تعالى عليهم أجمعين . قال القاضي عياض : وهذا المذهب هو اختيار الطبري وعامة الفقهاء . والأول مذهب بعض المتصوفة وأصحاب علم القلوب والإشارات . وذهب المحققون منهم إلى نحو مذهب الجمهور. ولكن لا يصح عندهم اسم التوكل مع الالتفات والطمأنينة الى الأسباب ، بل فعل الأسباب سنة الله وحكمته والثقة بأنه لا يجلب نفعاً ولا يدفع ضراً ، والكل من الله تعالى وحده .

قال الإمام القشيري : اعلم أن التوكل محله القلب، وأما الحركة الظاهرة، فلا تنافي التوكل بالقلب بعدما تحقق العبد أن الثقة من قبل الله تعالى ، فإن تعسر شيء فبتقديره ، وإن تيسر فبتيسيره .

وقال سهل بن عبد الله التستري رضي الله عنه : التوكل الاسترسال مع الله تعالى على ما يريد .

وقال أبو عثمان الجبري : التوكل الاكتفاء بالله تعالى مع الإعتماد عليه .

وقيل التوكل : أن يستوى الاكثار والتقلل» .

قلت : لعل مشكلة التوكل من أدق وأوسع مشاكل المسلمين على الأطلاق .

وهي أمر ينبغي الفصل فيه ، والقضاء على الاختلاف فيه ، رحمة بالناس ، وأخذا بأيديهم إلى حقائق هذا الدين الحنيف .

دعا الله تعالى إلى التوكل في الأمور كلها ، وجاء كتابه ناطقاً بذلك ، ومن ورائه أحاديث رسوله ﷺ .

وبدأ المسلمون يفهمون في التوكل مفاهيم شتى ، كل يفلسفه حسبما يراه .

ومن هنا كانت هذه العبارات المختلفة في تعريف التوكل .

ومضى الزمن فحمل الينا مخلفات المسلمين في الموضوع ، فجاءت متضادة متضاربة ، بل تكاد تهدم بعضها بعضا .

فهل هذا صحيح ؟ .

كلا . إن كل حقيقة اختلف فيها ، إذا تدبرت في أقوال الناس فيها ، اضطربت معك والتوت عليك . حتى تضعها على هذه القاعدة ، فإذا هي تتجلى ولا خلاف فيها .

تلك القاعدة هي أن الحق واحد ، والناس يختلفون في فهمه .

ولقد عانت البشرية من ذلك وما زالت تعاني ، وسوف تعاني أبداً من هذا الأمر ، أمر اختلاف نظرة الناس إلى الشيء الواحد .

الحق واحد والناس يختلفون في فهمه .

خذ مثلاً الحقيقة العظمى «الله» ثم انظر كيف اختلف الناس في فهمها ، تكاد تدور رأسك من هول ما ترى وتسمع .

كل إنسان يفهم الله فهما غير الآخر ، ولن تستطيع توحيد الخلق على فهم واحد أبداً .

وهكذا كل حقيقة ، وهكذا موقف الناس فيها دائماً وأبداً .

ومن حقائق هذا الدين حقيقة التوكل ، وقد أصابها ما أصاب سواها من الحقائق .

فعرفها المسلمون تعاريف شتى ، إلا انها تتلخص في اتجاهين رئيسيين :

الاتجاه الأول : أن التوكل هو ألا يخالط قلبك خوف غير الله تعالى حتى تترك السعي في طلب الرزق ثقة بضمان الله تعالى لك رزقك. وإلى هذا يميل جمع من المتصوفة .

والاتجاه الثاني : أن التوكل حده الثقة بالله تعالى والإيقان بأن قضاءه نافذ واتباع السنة في السعي فيما لا بد منه من المطعم والمشرب والتحرز من العدو كما فعله الأنبياء. وهذا الاتجاه هو اختيار عامة الفقهاء .

فأين الحق من هذا كله ! .

الحق أن هؤلاء أصابوا وهؤلاء أصابوا وإن بدا بينهما الاختلاف .

حيث يمكن التوفيق بين المذهبين بالتدقيق والتحقيق لا بالتلفيق .

ذلك أن الشخصية المتوازنة هي الشخصية المرغوب فيها في هذا الدين .

ويشير إلى ذلك المعنى الرسول ﷺ حيث يقول «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل» .

فالاسلام في جوهره وحقيقته يريد من المسلم أن يكون متوكلا على الله دائماً وذلك يكون بقلبه ، فيربطه على الله ، ويصله بالله ، وبذلك يستمد من الله قوته ، ويأخذ منه سبحانه الطاقة اللازمة ليندفع بها في الحياة .

فإذا ما تم للمسلم ذلك ، وهو ما يوجهنا الدين اليه دائماً ، وينميه في نفوسنا ، بإدامة الذكر ، والاكثار من الصلاة ، وغير ذلك من وسائل توصل العبد بربه ، إذا ما تم للمسلم ذلك ، فعليه أن يندفع ، أن يتحرك أن يكون حياً كأي شيء حي .

ذلك أن الحي كائن يتحرك والميت كائن لا يتحرك .

فعليك كمسلم أن تتحرك ، وهو ما يسميه القرآن «العمل» وما العمل الا الحركة . لأنه لا يتصور عمل بلا حركة .

ولكن أي عمل؟

العمل الصالح . الذي فيه صلاح نفسك وصلاح مجتمعك .

أرأيت ؟

هذا هو التوكل .

قلب موصول دائماً بالله . وجسم يعمل لله . وهذا هو سر تكرار هذا التعبير في القرآن الكريم دائماً وأبداً «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» .

فلا اختلاف إذا بين الذين قالوا التوكل هو ترك الأسباب . والذين قالوا التوكل هو الأخذ بالأسباب .

وإنما الخلاف آت من اختلاف فهمهم في التوكل .

أولئك يريدون اعتماداً تاماً على الله فيغمضون من أجل ذلك اعينهم عن الأسباب . وتلك نظرة فيها شطح وإسراف في التعبير. وإن كانت في ذاتها صدقاً وحقاً .

وهؤلاء يريدون اعتماداً على الله مع الأخذ بالقانون الطبيعي الذي وضعه الله للحياة ، وذلك أقرب إلى الحق وأهدى سبيلاً .

ذلك أن التوكل شيء غير العمل لكل مكان معلوم .

التوكل عمل قلبي موضعه القلب شأنه في ذلك شأن النية .

فان قيل ان النية هي ترك العمل بالكلية ، صح أن يقال إن التوكل هو ترك العمل بالكلية .

وهذا إسراف في القول وشطط في التعبير.

أما العمل فموضعه جسم الانسان القلب يتوكل ، والجسم يعمل هما شيئان متباينان ، إلا أنهما متعاونان . وقد فصل فيهما القرآن الكريم حيث قال وكرر ما قال: «الذين آمنوا وعملوا الصالحات ».

ومن هنا يزول الخلاف فيما اختلفوا فيه .

والآن ما هو التوكل ؟.

التوكل هو أن تربط قلبك بربك الذي خلقك ، أن تعتمد عليه في امرك كله .

ثم بعد ذلك تنطلق في هذه الحياة تعمل فيها لأن الله وضع لها قانوناً لا يتبدل ولا يتغير، هو الأسباب والمسببات .

وأنت بانطلاقك مع العاملين ، تدرك أن الأسباب من صنع رب العالمين، وأنه أمرك بالأخذ بها ، وذلك هو الطريق المستقيم .

وإلى ذلك يشير قوله سبحانه «وتوكل على الحيْ الذي لا يموت». وبقليل من التفكر فيها تدرك من عجائبها وغرائبها الشيء الكثير .

وتوكل على الله الحي الذي لا يموت .

هذا هو الاتجاه الصحيح ، لأن الله حي أبدا لا يموت أبدا ، فأنت بتوكلك عليه إنما تعتمد على شيء حي يستطيع أن يمدك بالحياة الحقيقية المتجددة .

أما إذا توكلت على شيء غيره ، فأنت تعتمد على فانٍ هالكٍ ميت ، لا يستطيع أن يمدك بشيء ؛ لأنه هو نفسه ميت لا حياة فيه اصلاً .

يا لها من أسرار كبرى وعظائم عظمى «توكل على الحي الذي لا يموت» .

لا ينبغي أن نتوكل إلا على مصدر الحياة ومعطي الحياة ، وذلك لا يكون إلا الله .

الله الذي هو الحي وحده لأنه لا يموت .

أما الانسان أما الملائكة أما أي شيء دونه فلا يسمى حيا إلا تجوزا لأنه يوماً ما يموت ، ومن الجهالة الاعتماد على من لا بقاء له .

أرأيت من أسرارها وأنوارها ؟ .

قلبك اربطه بالله الذي لا يموت ، ومتى وصلت قلبك بالحي ؛ بواهب الحياة لكل حي ، اعطاك الحياة . . . الحياة الحقيقية بجمالها وجلالها .

إنك إذا حي بمعنى كلمة حي . وعلامة الحي هو العمل ، الابداع ، الانتاج .

إن الله حي فهو يخلق ويصنع ويبدع ويعطي ويمنع .

كذلك علامة الإنسان الحي ، هو الابداع والصناعة ، والاعطاء والمنع ، والرضا والغضب.

مخلوق يشع الحيوية ويشرق بالنور .

ذلك هو المتوكل .

أما التبطل والتعطل باسم التوكل فذلك أمر ليس من سنة النبيين والمرسلين ولا من هدى الهداة والمهديين. آية ذلك قوله سبحانه «يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً».

أمر الرسل بالعمل وهم في اعلى مقامات التوكل.

وقوله ﷺ «رهبانية أمتي الجهاد».

اعتبر ﷺ الجهاد هو الرهبانية الصحيحة .

ذلك أن المجاهد في الله ، رجل إيجابي لا سلبي.

المجاهد تجرد من الدنيا وخرج ليموت إعلاء للحق وإرضاء لله .

أما الراهب فتجرد من الدنيا وخرج ليعيش ويواصل الحياة في زوايا النسيان.

فالمجاهد أرقى وأرقى .

وشتان بين من يتقدم للموت ومن يجبن عن الموت ويحرص على الحياة .

وذلك هو التوجيه الإسلامي الصحيح ، وتلك هي دعوة محمد ﷺ النقية الخالصة كما أنزلها رب العالمين .

فالتوكل هو أن تصل قلبك بالله صلة تعطيك طاقة ربانية دافعة دافقة تجعلك مخلوقاً ربانياً تنطلق مجاهداً عاملاً ، لا تعرف سكوناً ولا هدوءا ، حتى تعود الى الله إما سعيدا وإما شهيدا ؟ .

ثلاثة لا يكلمهم الله

قال رسول الله ﷺ : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ، ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر (رواه مسلم)

قال النووي : أما تخصيصه ﷺ الشيخ الزاني والملك الكذاب والعائل المستكبر بالوعيد المذكور، فقال القاضي عياض سببه أن كل واحد منهم التزم المعصية المذكورة مع بعدها منه ، وعدم ضرورته إليها، وضعف دواعيها عنده ، وإن كان لا يعذر أحد بذنب لكن لما لم يكن إلى هذه المعاصي ضرورة مزعجة ، ولا دواعي معتادة . أشبه أقدامهم عليها المعاندة والاستخفاف بحق الله تعالى ، وقصد معصيته لا لحاجة غيرها .

فإن الشيخ لكمال عقله وتمام معرفته بطول ما مر عليه من

الزمان وضعف أسباب الجماع والشهوة للنساء ، واختلاف دواعيه لذلك ، عنده ما يريحه من دواعي الحلال في هذا ويخلي سره منه فكيف بالزنا الحرام ؟ وإنما دواعي ذلك الشباب والحرارة الغريزية وقلة المعرفة وغلبة الشهوة، لضعف العقل وصغر السن.

وكذلك الامام لا يخشى من أحد من رعيته ولا يحتاج الى مداهنته ومصانعته ، فإن الانسان إنما يداهن ويصانع بالكذب وشبهه من يحذره ويخشى أذاه ومعاتبته ، أو يطلب عنده بذلك منزلة أو منفعة وهو غني عن الكذب مطلقاً .

وكذلك العائل الفقير قد عدم المال، وإنما سبب الفخر والخيلاء والتكبر والارتفاع على القرناء الثروة في الدنيا ، لكونه ظاهراً فيها وحاجات أهلها إليه ، فإذا لم يكن عنده أسبابها فلماذا يستكبر ويحتقر غيره؟ . فلم يبق فعله وفعل الشيخ الزاني والإمام الكاذب الا كضرب من الاستخفاف بحق الله تعالى والله اعلم - إنتهى .

من هم أولاء الثلاثة الهلكى؟ هم الشيخ الزاني ، والملك الكذاب ، والفقير المستكبر، ثم لماذا قطع لهم ﷺ بالهلاك المبين دون سواهم؟ .

لأنهم أحقر خلق الله وأحطهم سبيلا ، وأرذلهم أسلوبا في الحياة .

أمااولهم فليس من شك في انحداره والتوائه

الشيخ الزاني؟. رجل بلغ الشيخوخة، والشيخوخة فناء وضـعـف .

كل ما في الانسان يضعف في شيخوخته، بصره، سمعه، شهوته، كلامه، مشيه؛ قدرته على العمل، قدرته على التفكير «وجعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة» فالآية تشير إلى أن الشيبة مرتبة أخرى غير الضعف الذي يأتي بعد الشباب أن الشيبة هي آخر ما يصل اليه المرء من انحطاط في قواه العقلية والبدنية والشهوية. وليس أدل على ذلك من قوله سبحانه وتعالى «ومن نعمره ننكسه في الخلق..» وقوله «لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين».

فالشيخوخة إنهيار في كل شيء ليس فيها ما يدعو المرء الى المعصية

فإذا تحول شيخ رغم ما هو عليه من ضعف وانهيار الى المعاصي؛ فهو إنسان دنيء وضيع ؛ لأنه صادم الواقع، ولبس غير لباسه ؛ وزيف حقيقته .

فإذا كانت المعصية نوعاً كبيراً من المعاصي كان، الجرم أكبر والدناءة اعظم .

فكيف وهي الزنا ؟ .

وما ادراك ما الزنا !

كبيرة الكبائر. وأم الخبائث ورذيلة الرذائل. ومن هو الزاني؟ هو عتل زنيم. استحل ما ليس له . وجاء في الأرض بفساد عريض .

فإن جاء الزنى من شيخ فان تلك هي الطامَّة . وانك لا تدري مدى الجريمة في شيخ يزنى . . . إنه يفسد في الأرض أضعاف ما يفسد الشاب الزاني ذلك ان الشيخ لعدم رغبة المرأة فيه . يأتي شيء ليوقعها في شراكه، يبذل المال يبذل الإغراء، يرتكب ما شاءت المرأة ليرضيها ويرديها.

فمتى تم له افتراسها جاء بما لم يأت به الشباب ليظل محبوباً عندها .

أي نفسية تلك التي استبدلت التوبة بالغضب ، والتقرب إلى الله بالبعد عنه ، والتسبيح والذكر بالغزل ومديح النساء ؟ .

إنها نفسية الشيخ الزاني ! .

فهو نفس بعيدة . بعيدة عن الله . . . فكان ما قرره ﷺ لها في الآخرة جزاء وفاقا .

أما الهالك الثاني فهو الملك الكذاب .

والملك الكذاب جريمته شنعاء لأنه غش رعيته ، وأضلها

وأفسدها وأتعبها، واستحق بذلك لعنة الله والناس أجمعين .

رجل آتاه الله ملكاً وملكه من رقاب العباد، يأمر فيطاع و ينهى فيطاع، ورغم هذا فهو غاش لأمته ، كذاب إذا قال، كذاب إذا فعل، فليس من شك أنه يستحق بذلك غضب الله وإعراضه عنه يوم القيامة .

ونحن لا نريد ان نكون ظالمين في أحكامنا على الحكام، وإنما نريد أن نزن الأمر بين الشعب والحاكم بميزان دقيق.

أما الحاكم فمطلوب منه أن يعدل بين الناس .

وأما الشعب فمطلوب منه أن يطيع الحاكم ما دام عادلاً ولكن هذا كله تحصيل حاصل، وتقرير واقع ، وقول معاد . . . وإنما الأمر كل الأمر هو هذا السؤال: ما هو العدل ؟ .

يقول تعالى «إن الله يأمر بالعدل» فما هو هذا العدل؟

هل هو التسوية بين الناس في كل شيء ؟

كلا . . . فإن أقدار الناس مختلفة ، وحاجاتهم مختلفة ، وظروفهم مختلفة، فما كان عدلاً بالنسبة لأحدهم فهو ظلم لغيره .

فما هو العدل إذن ، هل من مقياس يقاس به ذلك العدل ؟ .

إني لأنظر في تاريخ البشرية من لدن آدم حتى يومنا هذا، فلا أجد أثراً لذلك العدل اللهم إلا تلك النفحات التي نعمت بها

البشرية قليلاً ثم لم تلبث أن أختفت سريعاً .

أما سائر تاريخ البشر فهو قصة سوداء مظلمة لا أثر فيها للعدل ولا للنور .

من أجل ذلك ينبغي ان نعلم ما هو العدل ؟ .

والعدل لا يمكن لمخلوق مهما أوتى من العلم والتجربة أن يحدده، ولكن الله وحده هو الذي يستطيع أن يحدده .

ذلك أن علم الله شامل كامل ، فهو لذلك يستطيع أن يحكم بين عباده بالحق .

أما الناس فعبيد أهواءهم لا يعلمون أين الحق من الباطل ، ولا يستطيعون التخلص من أهوائهم عندما يحكمون على شيء .

فالعدل الحقيق أن يسمى عدلاً هو ما أمر الله به ، والظلم الحقيق أن يسمى ظلماً هو ما نهى الله عنه .

والحلال بين والحرام بين بعد ذلك .

فما من شيء فيه عدل إلا أمرنا الله به ، وما من شيء فيه ظلم إلا نهانا الله عنه .

بذلك تستبين المعالم ، وتتلألأ الأنوار ، ويسعد الخلق حين يحتكمون إلى ما أنزله الله إليهم .

وبغير ذلك لا تنتظر عدلاً في الأرض ، ولا تأمل سعادة في الحياة .

ألا وإن العدل هو مفتاح السعادة للأمم والأفراد، وإن الظلم هو طريق الشقاء لهم أجمعين.

فالملك الكذاب هو الملك الذي كذب بما أنزله الله ، هو هذا الذي لم يحكم شعبه بما أنزل الله ، فأشقاهم وأضناهم ، فاستحق بذلك غضب الله وعذابه .

أما الهالك الثالث فهو الفقير المستكبر .

والكبر كما حدده النبي ﷺ هو «بطر الحق وغمط الناس»

أما بطر الحق فهو الإعراض عنه ورفضه .

وأما غمط الناس فهو تنقيصهم ووضع اقدارهم وعدم الإعتراف لهم بفضل.

وإذا اجتمع في فقير هاتان الصفتان ، فهو هالك خاسر.

ذلك أن الفقر يدفع صاحبه إلى الإستكبار على الناس بغير الحق، بدافع الإحساس بالحقارة والشعور بمركب النقص .

فإذا رأى غنياً ، عابه ، واذا رأى فقيراً أحتقره ، وإذا رأى محسناً اتهمه بالرياء، وإذا رأى مؤمناً رماه بالنفاق.

لا يرى خيراً في أحد ، ولا يتصور احداً في خير.

وهو يضمر بذلك العداء للمجتمع ، فهو عنصر هدام لا بناء .

ولا يستطيع الفقير التخلص من هذا، إلا بالإِيمان بالله ، واداء ما افترض الله عليه

لأن الفقير إذا آمن ، علم أن كل شيء بقدر، وأن الأرزاق بقدر، وان الغنى والفقر بلاء يبتلى الله به عباده، لا يدلان على رضاه أو على غضبه ، وأن الله يأمره بالعمل، وينهاه عن تحقير الخلق، وأن لكل إنسان مـزيَّـةً ونقصاً، ، فليس كل الفقراء سيئين وليس كل الأغنياء سيئين .

وهكذا تتحول نفسه من الشر إلى الخير ، ومن السخط إلى الرضى، ومن الهدم إلى البناء .

أما إذا حيل بين الفقير وبين الإيمان، فهو كما قال ﷺ «عائل مستكبر»، ضائع هالك لا خير فيه ولا إنتاج له إلا السخط والشر.

أم القرآن

عن النبي ﷺ قال: من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج ـ ثلاثاً ـ غير تمام فقيل لأبي هريرة إنا نكون وراء الإمام فقال أقرأ بها في نفسك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله تعالى: حمدني عبدي وإذا قال الرحمن الرحيم قال الله تعالى أثنى على عبدي وإذا قال مالك يوم الدين قال مجدني عبدي ـ وقال مرة فوض إلى عبدي ـ فإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين قال هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل فإذا قال هو .اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال هذا لعبدي ولعبدي ما سأل. (رواه مسلم).

قال العلماء: المراد بالصلاة هنا الفاتحة ، سميت بذلك لأنها لا تصح إلا بها، كقوله ﷺ الحج عرفة .

والمراد قسمتها من جهة المعنى لأن نصفها الأول تحميد الله تعالى وتمجيد وثناء عليه وتفويض اليه ، والنصف الثاني سؤال وطلب وتضرع وافتقار .

لأنها سبع آيات بالاجماع، فثلاث في أولها ثناء أولها الحمد لله ، وثلاث دعاء أولها أهدنا الطراط المستقيم . والسابعة متوسطة وهي إياك نعبد وأياك نستعين .

هذا والتحميد هو الثناء بجميل الفعال. والتمجيد هو الثناء بصفات الجلال .

وقوله مالك يوم الدين ، معناه ان الله تعالى هو المنفرد بالملك ذلك اليوم ، وبجزاء العباد وحسابهم . والدين الحساب ، وقيل الجزاء ، ولا دعوى لأحد ذلك اليوم ولا مجاز وأما في الدنيا فلبعض العباد ملك مجازى، ويدعى بعضهم دعوى باطلة وهذا كله ينقطع في ذلك اليوم هذا معناه والا فالله سبحانه وتعالى هو المالك والملك على الحقيقة للدارين وما فيهما ومن فيهما وكل من سواه مربوب له عبد مسخر ؛ ثم في هذا الاعتراف من التعظيم والتمجيد وتفويض الأمر مالا يخفى. انتهى.

***

فكرت طويلاً فكرا عميقاً في الفاتحة ، وماالحتوتـهمن اسرار وأنوار ، فأدركت أنها بحر لا ساحل له ولا قرار.

لماذا كانت هي السبع المثاني؟ .

لماذا أسماها ﷺ أم القرآن ؟

لماذا اسماها ﷺ أم الكتاب ؟ .

لماذا اسماها مرة اخرى فاتحة الكتاب؟ .

لماذا أسماها الله سبحانه وتعالى في هذا الحديث ـ الذي بين ايدينا ـ الصلاة ؟ .

لماذا اطلق عليها كلمة الصلاة ، هل هي الصلاة، أم ان الصلاة فيها اشياء أخرى غيرها ، ولكن لماذا اختارها لتكون هي الصلاة دون غيرها ؟ .

وفككت القيود والسدود عن عقلي ، وأطلقته يفكر ويتدبر ويستنبط .

وتذكرت قوله سبحانه «أفلا يتدبرون القرآن ؟ «أم على قلوب أقفالها؟؟» .

فأدركت على الفور أن على قلبي قفلا محكماً، ينبغي ان يحطم وأن يلقى بعيداً .

نعم إنني محجوب ، وعلى قلبي ران ، وعلى روحي غيوم سود .

وناديت من أعماق أعماقي ، ان لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . ففك القيد ، وحطم القفل ، وتبددت الغيوم ، وتجلت شمس الحقيقة ، وأشرقت الأرض بنور ربها . . .

* * *

اما ان الفاتحة أم القرآن ، وأم الكتاب ، فذلك حق وتفصيله أنها الملخص الوافي الكافي للقرآن كله .

فلو جيء بالقرآن وقيل للناس لخصوا لنا هذا الكتاب ، ما استطعنا أن نجمعه ملخصاً في أقل ولا أدل ولا أشمل ولا أكمل من الفاتحة .

فهي لذلك تحوي القرآن كله حقاً وصدقاً وما كان اختيارها في اوله محض ترتيب ولكنها وضعت كذلك لتكون بمثابة العنوان للكتاب ، أو المقدمة للمؤلف ، أو الفهرس الجامع للسفر الطويل .

ولننظر هل هي كذلك ؟

بسم الله الرحمن الرحيم .

الآية الأولى التي حوت ما في الفاتحة كما حوت الفاتحة ما في القرآن .

فاذا كانت الفاتحة ملخص القرآن فالبسملة ملخص الفاتحة .

وعلى ذلك لم يغال الذين قالوا إن البسملة فيها سر القرآن كله .

بل أعجب من ذلك . . . أن الباء التي في أول البسملة فيها سر البسملة كذلك . فكأن هذه الباء حوت القرآن كله بالتبعية ! ! .

هل هذا صحيح ؟ .

بل هو الحق الحقيق وإليك التفصيل :

هذه الباء معناها السبب ، والاسم من معناه الإذن ، فباسم الله اي بإسم الله كان كل شيء ويكون ، ولن يكون شيء إلا باسم الله

فالله هو سبب كل شيء ، موجد كل شيء ، محدث كل شيء . خالق كل شيء ، وهل التوحيد إلا هذا ؟

وماذا في التوحيد أعمق من هذا ؟

ولا نريد أن نتعمق «الباء» اكثر من هذا فالامر أدق وأرق . وأشق لأنه حق .

أما الحمد الله رب العالمين ، فمعناها ان كل شيء يحمد الله لأن الله رب كل شيء ، وأنا أحمدك يا رب كل شيء .

وأما إياك نعبد وإياك نستعين ، فهي تفويض من العبد لربه ، والله يقول إذا سمعها من العبد «هذا بيني وبين عبدي ولعبد ما سأل» .

ما معنى هذا ؟ .

معناه أن دعوى العبد أنه يختص الله بالعبادة دون سواه وأنه يختصه بالاستعانة دون خلقه ، أن هذه الدعوى لا يعلم صدقها من كذبها إلا الله ، لأنه هو الذي يعلم السر وأخفى .

هذا بيني وبين عبدي ؟ .

هذا شيء أنا وحدي أعلمه من عبدي ، ولا أحد غيري يعلم ذلك منه فهذا شيء بيني وبين عبدي .

ولعبدي ما سأل .

إن كان عبد ي صادقا فله ما سأل «وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان . . . » .

وإن كان كاذباً في دعواه ، فليس له عندنا شيء ، لأنه لا يعقل ما يقول .

أرأيت ؟ . عجائب وغرائب في تلك الفاتحة .

إنها حقاً أم القرآن ، لأنها اعلنت التوحيد والتفويض والتمجيد والتحميد لله ، واعلنت من العبد السؤال والتضرع والافتقار لله .

وإلى اي شيء جاء يدعو القرآن غير تلك المعاني ؟

وإنها أم القرآن لأنها تدوي في الأرض والسماء ، في الأولى والآخرة ، أن الملك لله دون سواه .

مالك يوم الدين ؟؟ .

له وحده ملك يوم القيامة إن كنتم تجهلون انه الملك لهذه الدنيا لسبب ما أنتم فيه من فتن ملوككم ورؤ سائكم .

إن الناس يعيشون في أوهام . ويخيلون لأنفسهم أنها حقائق، بل يرفعونها إلى مقام التأله، فيعبدونها من دون الله .

نعم . . . وهذا هو سر شقائهم .

اتخذوا إلههم هواهم . . . وعبدوا أوهامهم وظنـونهم وشهواتهم ، أطاعوها فيمـا أمرت ونهت وأعـرضوا عن الله الحقيقى ، حتى إذا جاءوه وعرضوا عليه يوم الحساب، ضل عنهم ما كانوا يفترون ، وعلموا ان الملك يومئذ لله .

تعلن الفاتحة هذا . . . مما لا تسعه هذه الصفحات ، ولا ما هو أوسع من تلك الصفحات .

ذلك أن الله أنزلها ملخصاً لكتابه وأنزل البسملة ملخصاً للفاتحة ، وأنزل الباء ملخصاً للبسملة .

فهل قلنا شيئاً في الفاتحة ؟

والله ما قلنا شيئاً . . .

الموت

كان الوقت صباحا ، حين دخل عمي مكتئبا ، حزينا أسيفا ، وأنبأني النبأ وقلبه يتمزق بين صدره .

قال : لقد وقع لنا أمر كان أبعد شيء عن تصورنا .

قلت : أي أمر ؟

قال : إن ابني ووحيدي ، الذي لم يكمل من حياته عاما واحدا ، قد أصيب بمبادىء شلل الأطفال ، وقد جئنا به على عجل من القرية ، ودخلنا به الى القاهرة نلتمس له علاجا لا يوجد إلا فيها . قالوا لنا : لا يوجد لهذا المرض من علاج ، إلا في « معهد شلل الأطفال » الذي خصصته الدولة لهذا الغرض الخطير .

قال : وهو الآن بذلك المستشفى ، وإني ذاهب اليه أنظر ماذا يفعلون .

وهو في طريقه الى المعهد ، كنت معه ألازمه ، وأخفف عنه بعض ما يعاني من قلق وأحزان .

ودخلنا الى الحجرة التي يعالج بها الطفل ، فماذا رأيت ؟

رأيت عجبا . . . أجهزة ثلاث في داخل كل جهاز طفل لا يزيد عمره عن عام أو عامين ، ولا يبدو من الطفل إلا رأسه ، أما رقبته وسائر جسمه فقد اختفت تماما داخل أسطوانة الجهاز .

ورأيت « حسن » ابن عمي ، يرقد في الجهاز يعاني آلاما لو صبت على عملاق لذاب منها وذهب . الجهاز يعلو بصدره وينخفض ، وأمه تقف بجواره تحاول أن تقطر له غذاء من لبنها بالطريقة الصناعية ، وأخرى تمسك بجهاز الأوكسوجين وتقربه من أنفه ليستطيع أن يتنفس الصغير .

ونظر الأب الى ابنه ووحيده ، ونظر الطفل الى أبيه ابتسم رغم ما يعاني !!

كان كل شيء يبشر بالأمل .

حتى الطبيبة كانت تنشر آمالها وتطمئن الأب وتعده خيرا .

وخرجنا لبعض أمرنا ، فرأيت أمرا أعجب وأغرب .

مئات من الأمهات ، المترفات والفقيرات ، يحملن صغارهن ، ويتزاحمن في المعهد التماسا للعلاج .

وجاءت إحداهن الى جوارنا ، وألقت بحملها ساخطة ثم قالت : شيء لا يطاق ، أربع سنين وأنا آتية ذاهبة كل يوم ولا فائدة ، أربع سنين ، والله أربع سنين . ونظرت الى ما ألقت على الأرض ، فكانت طفلة ذات خمس سنين ، وقد تقوست ساقاها وتدلت قدماها ! !

ما هذا ؟

هذا شيء يسير من أمر هذا المرض الخطير .

* * *

وفي المساء . . . عندما يدخل الليل في خفاء الى القاهرة فيلفها بين ذراعيه . . . كانت الأم تقف ملازمةلطفلها رغم ما كانت عليه من إعياء .

ولاحظت الأم أن وجه الطفل البريء الباسم ، بدأ يتحول الى الزرقة ، وأن نبضه بدأ يتلاشى .

وصاحت الأم في المسئولين فجاءوا يهرعون ، وبذلوا ما يطيقون وما لا يطيقون لاسعاف الصغير .

إلا أن القدر كان فوق الحذر ، فوقع ما كانوا يحذرون .

لقد مات !!

وما أن رأت الأم ذلك حتى صاحت وصاحت ، ثم أخذها اغماء شديد فوقعت على الأرض شبه ميتة أو الميتة تشبهها .

وما أن علم الأب بالخبر حتى خر مغشيا عليه . . .

وكانت ليلة ليلاء . . . بطيئة كريهة . . .

وأصبح الصباح الثاني ينادينا بأداء الواجب نحو الجثة .

. . . ودخلنا الى المشرحة . . . أنا وأبوه وصديق . . . ودخل معنا رجلان ، أحدهما المسئول عنها والآخر محترف يقوم بتكفين الموتى .

وجيء بالطفل ، كما ولدته أمه ، عاريا عريا تاما ، لم يتغير فيه شيء إلا عينيه . . . كانتا مغمضتين كأنه في نوم عميق .

وجعل الرجل يباشر غسله . . .

فما أن رأى أبوه ما يجري حتى انهار من الحزن ، وانفجر يبكي بكاء لو ألقى على جبل لزلزله ، ثم قام الى ابنه

وقبله في جبينه قبلة أودع فيها كل ما يحسه من آلام الفراق .

ونظرت الى الرجل وهو ينشر أثواب الكفن ، ثم يلف فيها الصغير .

وقلت : آه يا ابن آدم . . . هذا هو المصير المحتوم ، مهما طال الأجل أو قصر .

وخرجنا به ملفوفا ، وانطلقنا الى المدافن . . .

كان القبر مفتوحا . . . كأنه ينتظر في لهفة دخوله اليه !

وتناول الدفان جثة الصغير ونزل به الى الآخرة .

ونزلت معه ورأيته وهو يضعه في ركن من القبر ، وهو لا يشغل منها إلا شبرا .

أما سائر القبر فكان خاليا خلوا تاما .

وخرجنا في لحظات ، وأبوه يبكي ويبكي . . .

وجاءوا بالفؤوس ، وسدوا فوهة القبر بالتراب ، ورشوا عليه من الماء فعاد كما كان ، كأنه لم يدخله أحد .

وعدنا . . . ودخلنا الحياة مرة ثانية . . .

* * *

ما هذا ؟

حقيقة أم خيال ؟ كلا بل هو الحق . . .

فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون .

إنه الموت . . .

شاهدته وعاينته ولازمته ، فرأيته أقوى الأدلة ، وأسطع الحقائق ، وأنطق الشواهد ، على قدرة الله وعجز الإنسان .

طفل في إحدى عشر شهرا من العمر ، تنزل به نازلة لا يعلم من أين جاءت . . . فلما جيء به علم الأطباء أن اصابته خطيرة ، لأنه أصيب بشلل الأطفال ، وكانت اصابته قاتلة لأنها جاءت في المخ والنخاع ، مما استحال معه الشفاء .

فما معنى هذا ؟

معناه أن الحياة خطيرة جدا جدا ، وأن الذين يطمئنون اليها قوم مغفلون جدا جدا .

فما منا من أحد إلا ويجوز عليه ما جاز على ذلك الطفل .

وما منا من أحد إلا وهو ينتظر ما كتب الله عليه من مصائب وبلايا .

والذين يغمضون أعينهم عن تلك الحقائق المرة ، إنما يغمضونها فرارا من قرارتها .

حتى إذا فاجأتهم ، ونزلت بهم بوجهها الكالح ، انهاروا أمامها وتضعضعوا .

ما هذا ؟

أهو الموت ؟ . . نعم كأنه هو . . . أو هو بعينه . . . هو الذي نفر منه ولكنه يلاقينا رغم أنوفنا .

والموت هو أقوى الحقائق وأقدرها على اخراس الألسن وتحدي الكافرين .

وهو أعظم حقيقة ـ في رأيي ـ تبرهن على ضعف الإنسان وجبروت ذي الجلال والإكرام . .

أي ضعف أشد من ضعف الإنسان ساعة يموت ؟

لماذا لم يدرء عن نفسه الفناء ؟

إنه لا يستطيع . . . ولو استطاع الإنسان ألاّ يموت ما مات أبدا . . . ولصنع المستحيلات للحيلولة بينه وبين الموت .

ولكن الله أراد له أن يموت ، فما أحد يستطيع ألا يموت ، لأنه لا وزن لارادة الخلائق أجمعين مجتمعين مع ارادة الله .

ومن كان في شك من ذلك ، فليأتنا بأحد استطاع ألا يموت .

وبذلك كان الموت دالا على وجود الله ، أكثر من دلالة الحياة على وجود الله .

ولعل ذلك من أسرار قوله سبحانه ﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ ، ذكر الموت قبل الحياة ، لأن الموت أدل عليه من الحياة

ذلك أن الحياة حجاب يحجب الخلائق عن ربهم وعن الحقائق .

أما الموت فهو كشف لذلك الحجاب ، ورفع للستار ، فتتجلى الحقائق للإنسان ، ويعلم ما لم يكن يعلم .

ولعل ذلك من أسرار قوله سبحانه ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ .

لقد كنت أيها الانسان في غفلة عن الموت فجاءك الموت ، فكشفنا به عنك غطاءك .

كشفنا بالموت الستار ، كشفنا الحجاب الذي كان يحجبك عنا .

فماذا بعد ذلك ؟

بصرك يا انسان الآن بعد الموت ، وبعد انسلاخ روحك من جسمك ، بصرك الآن حديد ، حاد شديد يبصر كل شيء .

وبذلك استحق الموت أن يذكر في الآية قبل الحياة .

ذلك أن الموت يخلص الانسان من الحياة ، يخلصه من الغفلة ، فتنكشف له الحقائق التي كان يجهلها أويكذب بها أو لا يدركها .

فإذا به وجها لوجه أمام الحق الذي لا مراء فيه .

لا حسد إلا في اثنتين

عن النبي ﷺ قال : لا حسد إلا في اثنتين ، رجلٌ آتاه الله القرآن ، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجلٌ آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار .

(رواه مسلم)

قال النووي : قال العلماء الحسد قسمان ، حقيقي ومجازي ، فالحقيقي تمني زوال النعمة عن صاحبها ، وهذا حرام بإجماع الأمة ، مع النصوص الصحيحة وأما المجازي فهو الغبطة ، وهو أن يتمنى مثل النعمة التي على غيره ، من غير زوالها عن صاحبها ، فإن كانت من أمور الدنيا كانت مباحة ، وإن كانت طاعة فهي مستحبة .

والمراد بالحديث لا غبطة محبوبة إلا في هاتين الخصلتين وما في معناهما .

قوله ﷺ (آنـاء الليل والنهـار) أي ساعـاته وواحـده الآن . انتهى .

***

كلما تأملت هـذا الحديث الشـريف أحسست بعظمـة النبوة ، وإشراق أنوارها ، وتلألؤ سناها في ثناياه .

لا حسد . . .

لا ينبغي التحاسد ، لا ينبغي أبدا أن تتمنى زوال نعمة الغير . . .

هذا شيء لا يليق بالمؤمن ، لأن المؤمن يعلم أن كل شيء بقدر . . وأن الله قسم بين الناس أرزاقهم وأخـلاقهم وكـل شيء فيما بينهم ، فمـا شاء الله كـان وما لم يشـأ لم يكن . . . ولو أن أهل الأرض اجتمعوا على أن يضروك لم يضـروك إلا بشيء قد كتبـه الله لك ، ولـو أن أهل الأرض اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعـوك إلا بشيء قد كتبـه الله لك . . . جفت الأقلام وطويت الصحف . . . الخ . هـذه النصوص والتوجيهات والحقائق التي يؤمن بها المؤمن .

نعم التحاسد شيء لا يليق بالمؤمن لأنه إذا تمنى زوال نعمة غيره ، فقد صادم القدر ، وعارض أمر الله .

إنه مهما يتمنى فلن يكـون له مـا تمنى أم للإنسان مـا تمنى ! . . . كلا . . . بل لله الآخرة والأولى .

هب أنك رأيت إنسانـاً في نعمة ، ومكثت طـول عمرك تتمنى زوالها ، هل هذا التمني يذهبها عنه ؟ كلا . . فأولى لك ثم أولى أن تنصرف بعواطفك إلى شيء آخر يعود عليك بالنفع وعلى غيرك .

والحسـد صفة من أخس الصفـات تجعل القلب يغـلي بالأحقاد غليانا ، وتوشك أن تذهب بكل خير تبقى في قلب الإنسان .

أنظر كيف دفع الحسـد إخوة يـوسف ، وهم أولاد نبي إلى التآمر على أخيهم الطفل . فذهبوا ليقتلوه ؟ . . .

فماذا كان رد القدر عليهم ؟

كان ردا دامغا قويا . . . أن من الله عليه ، وآتاه الملك والنبوة . . وهما أرفع نعمتين يمن الله بهما على إنسان . أما الملك فهو أعلى مقام في الدنيا ، وأما النبوة فهي أعلى مقام في الآخـرة آتاه الله هـاتين النعمتين العظيمتين ، ردا عليهم وعلى أمثالهم ، إنه لا ينبغي معـارضة القـدر ، ولا مقاومـة الإرادة الإلهيـة . وجاء بـإخوتـه فقراء أذلاء يستجـدونـه أن يحسن اليهم ويتصدق عليهم . . .

كـذلـك جـزاء المحسنين . . وكـذلـك يكـون عقـاب الحاسدين .

نعم لا ينبغي أن يحسد المؤمن . . . وإنما يسأل الله من فضله الواسع . . . ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض وسلوا الله من فضله ﴾

ما أجمل وأحلى ذلك التوجيه الإلهي الكريم ؟

لا تتمنـوا أيهـا النـاس مـا فضلنـا بـه بعضكم على بعض . . . نهي إلهي كريم عن صفة حيوانية خسيسة . . . فهل وقف القرآن عند ذلك ؟

كلا . . . وإنما سارع يضع العلاج فما العلاج ؟ وسلوا الله من فضله . . . إن خزائن الله مليئة لا تغيض . . . وهذا الذي تراه من النعم التي تغمر الخلق جميعا إنما هو بالنسبة إلى ما في خزائنه سبحانه « كما يغمس أحدكم إصبعه في الماء ثم ينزع فلينظر ماذا يرجع ؟ ». لا شيء والله يا رب لا شيء . . . لا شيء ما فيه الناس جميعا من النعم بالنسبة إلى ما في خزائنك . . إذاً العلاج أن نسأل الله من فضله . . . أن أتوجه إلى الله وأدعوه أن يؤتيني مما في خزائنه . . . وهو الجواد المعطي الذي لا يردك خائبا أبدا . .

لا ينبغي إذاً أن يكـون الحسـد من المؤمن . بعـد أن تجلت تلك الحقائق وتألقت . . .

ذلك توجيه الله سبحانه وتعالى ، وتلك تعاليم كتابه في علاج الحسد . . فما توجيه رسول الله ﷺ ، وما تعاليمه في علاج الحسد ؟

لن يخرج ما يصدر عن رسول الله عمـا ينزل من عنـد الله ؟

رجـل آتاه الله القـرآن ، فهو يقـوم به آنـاء الليل وآنـاء النهار .

إذا أردت أن تحسد أيها المؤمن فاحسد هذا الإِنسان .

أنظر . . كيف يوجه صاحب الرسالة قلوبنا إلى أعلى ثم إلى أعلى الأعلى . . . ثم ما يزال يتسامى بنا ويتسامى حتى يحلق بنـا إلى أعلى مقام في الآخـرة وهو أن تكـون عالمـا عاملا بالقرآن .

رجل آتاه الله القرآن . . . آتاه الله القـرآن حفظاً وفقهـا ودراسة وبحثاً وتفصيلا وإجمالا . . . فهـو يقوم بـه . . فهو يعمل به . . . آناء الليل وآنـاء النهار هـو يعيش ليله ويومـه بالقرآن . . . يطبقه على نفسه . . . ويدعو الناس إليه . . .

فهو داعية إلى الله عن فقه وإدراك ، وفهم وشمول . . . هو خير الناس إذاً ، وأوسعهم قلبا ، وأرفعهم مقاما عند الله .

إنه يتكامل في نفسه . . . ويدعو سواه إلى الكمال والتكامل ، ومن من الناس أعظم من هذا ؟

وهل تطيق أيها المؤمن ذلك ؟

هذا ما يدعوك رسول الله ﷺ إليه ، ويحببك في حسد من كان شأنه كذلك .

تمنى أن تكون كابن عباس ، تمنى أن تكون كأبي هريرة ، تمنى أن تكون كالشافعي ، تمنى أن تكون كابن حنبل تمنى أن تكون كابن القيم ، تمنى أن تكون كالغزالي . . .

تمنى ما شئت من العلماء العاملين . واحسدهم على ما آتاهم الله . . وحاول أن تكون مثلهم ، أو حتى شيئا ولو قليلا منهم .

أرأيت جمال التوجيه ، وكمال الإرشاد ؟ . . إنها النبوة . . ومن يستطيع الإرشاد غير رسول الله ؟

* * *

هذا من ناحية النعم التي تؤدي إلى العلو في الآخرة ، أو هذا من ناحية النعم الأخروية . فما بال النعم الدنيوية

التي هي مطمح النفوس جميعا . . وهدف الناس كلهم . . ﴿ بل تحبون الأولى وتذرون الآخرة ﴾؟

ورجل آتاه الله مالا ، فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار . .

نظر النبي ﷺ فعلم أن المال هدف الناس جميعا ﴿ وتحبون المال حبا جما ﴾، وأن صاحب الأموال محسود دائما من الذين تخلفوا عن اللحاق بمواكب الأغنياء و« إن كل ذي نعمة محسود » فجعل ﷺ يضع العلاج النبوي لهذا الداء .

وأي داء ؟ . . المال يا صاحبي . . المال الذي عبده ابن آدم من دون الله .

المال . . إله الناس جميعا ، يعبدونه من دون الله . . إلا من آمن بالله . . فانتزع نفسه من تلك العبودية المالية المهينة .

أي الناس أعظم في نظركم أيها الناس ؟

أليس هو أغناهم ؟

أليس هو المليونير ؟

لا تتمنوا ما هو فيه . . لأنه مفتون بما هو فيه . إنه يمتحن بذلك المال . هل أدى ما افترضه الله عليه في ماله

من زكاة وصدقات ؟

فإن لم يكن الغني من أولئك الذين يؤدون حق الله في أموالهم ، فاعلموا أنه مبتلى مغضوب عليه من الله . . . وإنما زاده ليزيده ضلالا وبعدا . . . ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ . . نعم فأيما غني لم يؤد حق الله في ماله فهو من أحط الناس قدرا عند الله ، وأبعدهم منه درجة يوم القيامة .

تلك حقيقة . . ويزيدها جلاء إذا علمنا أن الأغنياء الذين لا يفكرون إلا في تضخيم ثرواتهم على حساب الضعفاء والفقراء . إنما هم قوم مجرمون حقا . . لأنهم اكتنزوا إيراد الأرض لأنفسهم ، بينما جعله الله أصلا رزقاً للناس جميعاً .

فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار . أما إن كان الغني ينفق أمواله ، ليلا ونهارا ، دائما وأبدا . . في سبيل الله في طاعة الله ، يخرج زكاته ، يكثر من الصدقة . . بل يبذل ماله دائما في سبيل الله ، فذلك رجل عظيم . . موفق إلى الخير . . هذا هو الغني العظيم الذي يبذل ماله في الخيرات ، فيما ينفع الناس . .

أمثال أبي بكر الذي جاء بماله كله ووضعه بين يدي رسول الله !

أمثال عمر الذي جاء بنصف ماله يريد أن يسبق به أبا بكر إلى رسول الله .

أمثال عثمان الذي كان يجهز الغزوة كلها من ماله الخاص . .

أمثال كل غنى موفق إلى الخير في ماله .

* * *

لا حسد ينبغي من المؤمن . . فإن أراد أن يحسد فليحسد الدعاة في دعوتهم إلى الله ؛ وليحسد الأغنياء في نزولهم عن مالهم حبا في الله . .

وهل هذا من الحسد ؟

كلا إنه استباق إلى الخيرات !

أنت الحـــق

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل :

اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ولك الحمد، أنت قيام السموات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ، ومن فيهن ، أنت الحق، ووعدك الحق ، وقولك الحق ولقاؤ ك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق . . . اللهم لك اسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي، ما قدمت وما أخرت ، وأسررت وأعلنت . . أنت إلهي . . لا إله إلا أنت . (مسلم)

قال النووي : (أنت نور السماوات والأرض) قال العلماء معناه منورهما وخالق نورهما .

(أنت قيام السماوات والأرض) قال ابن عباس الذي لا يزول ، وقال غيره هو القائم على كل شيء ، ومعناه مدبر أمر خلقه .

(أنت الحق) قال العلماء : الحق في أسمائه سبحانه وتعالى معناه المتحقق وجوده، وكل شيء صح وجوده وتحقق فهو حق ، ومثله قوله ﷺ في هذا الحديث ووعدك الحق وقولك الحق ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والساعة حق . . . أي كله متحقق لا شك فيه .

(اللهم لك اسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك انبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي) إلى آخره . معنى أسلمت استسلمت وأنقدت لأمرك ونهيك ، وبك آمنت أي صدقت بك وبكل ما أخبرت وأمرت ونهيت . وإليك أنبت أي أطعت ورجعت إلى عبادتك، أي أقبلت عليها ، وقيل معناه : رجعت إليك في تدبيري أي فوضت إليك . وبك خاصمت أي بما اعطيتني من البراهين والقوة خاصمت من عاند فيك وكفر بك ، وقمعته بالحجة وبالسيف وإليك حاكمت أي كل جحد الحق حاكمته إليك وجعلتك الحاكم بيني وبينه لا غيرك مما كانت تحاكم إليه الجاهلية وغيرهم من صنم وكاهن

ونار وشيطان وغيرها ، فلا أرضى إلا بحكمك ولا اعتمد غيره .

ومعنى سؤ اله ﷺ المغفرة مع أنه مغفور له أنه يسأل ذلك تواضعاً وخضوعاً وإشفاقاً وإجلالا ، وليقتدى به في أصل الدعاء والخضوع وحسن التضرع في هذا الدعاء المعين .

وفي هذا الحديث وغيره مواظبته ﷺ في الليل على الذكر والدعاء والاعتراف لله تعالى بحقوقه والإقرار بصدقه ووعده ووعيده والبعث والجنة والنار وغير ذلك انتهى .

* * *

إني أرى في هذا الحديث إشعاعاً عجيباً .

أرى فيه أنه ليس من قول البشر وليس في طاقة بشر . فإن الكلام يدل على صاحبه ، ويكشف عن خبيئة نفسه فأي كلام هذا ؟

إنه شيء لا أستطيع أن اعبر عنه . !! شيء عال غاية العلو ، مشرق غاية الإشراق، ليس نوره من نور هذه الدنيا ، ولا علوه بشيء يستطاع الوصول إليه .

إنها النبوة تتكلم :-

مع من تتكلم ؟.

مع الله !!!

وفي أي الأوقات ؟!

في خير وقت . . . في السحر . . . عندما تهجع الجفون ، ويسكن الليل ، وتجمد الحركة . . . وتخشع الأصوات للرحمن . . . في ذلك السكون الجميل . . . ينبعث ﷺ، ويتسلل من فراشه . . . لأنه على ميعاد . . .

من هذا الذي واعد رسول الله ﷺ ؟.

إنه الرحمن . . . حيث قال له «. . . قم الليل إلا قليلاً . . .»

فصار ذلك أمراً ، بل فرضاً عليه ﷺ . . .

فهل كان ذلك فرضا ، فيه ثقل الفريضة على النفس ؟.

كلا . . . بل هو ميعاد ضربه الله لحبيبه المصطفى ﷺ . . . ليس شيئاً ثقيلاً ثقل الفرائض، ولا شاقاً مشقة الواجب، وإنما هو موعد ضربه الرحمن لحبيبه، فانشرح له صدر الحبيب ﷺ، وطرب له فؤاده، وقرت به عينه . . .

ومن يومها . . من يوم أن ضرب الله له الليل موعداً ، وهو ﷺ يحضر إلى ربه في نفس الميعاد ، لم يتخلف عنه ليلة واحدة حتى لحق بالرفيق الأعلى . . عجباً !! عشرون عاماً أو

تزيد والنبي ﷺ يواظب على قيام الليل . . . لم تفلت منه ليلة واحدة، خلال هذه المدة الطويلة !!

إنه الحب . . . الحب الحق . . حب الرحمن لنبيه ﷺ، وحب رسول الله ﷺ لربه سبحانه وتعالى .

حب صادق أشد من الصدق نفسه . فالمحب هو الله ، والحبيب هو رسول الله . . . ولا احد أصدق من الله حباً ، ولا أحد أصدق من الرسول حباً !.

ووقع الاختيار على محمد . . . ممن ؟.

من الله جل وعلا . . .

وتفضل الله تعالى عليه فأحبه . . . فامتلاء القلب النبوى بحبه سبحانه . . .

فهل يطيق النبي ﷺ ، بعد ذلك بعداً عن الله . . . عن المحبوب ؟؟

كلا . . . فكان السحر . . . كان الليل موعد اللقاء بين الله وحبيبه .

من أجل ذلك نرى النبي ﷺ ، ينام قليلاً ثم يقوم الى صلاته ، وينام ثم يقوم ، لا يهدأ في نومه هدوء الناس في نومها . . . وإنما ينبعث مشتاقاً إلى ربه . تواقاً الى اللقاء .

فلم يــك قيــام الليــل كفــريضــة عــلى النبي ﷺ بالمعنى الذي يفهمه الناس من الفرائض .. وإنما كان شيئاً يتمناه ﷺ ، ويحبه أشد الحب ، ويحرص عليه حرصاً شديداً. شيئاً يجد فيه راحة نفسه ، وقرة عينه ، ولذة أنسه ...

ولست أدري أي شيء يستطيع ملء فؤاده ﷺ غير لقاء الله ؟

أي شيء يستطيع ملء هذا الفؤاد الذي هو أوسع من السماوات والأرض غير حب الله ؟؟.

وكان اللقاء اليومي ... كل ليلة .. كل سحر ... عندما ينزل ربنا تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا ... وانبعث ﷺ في صفاء الليل يناجي ربه ... يناجي حبيبه ... فماذا قال؟

«اللهم لك الحمد» ... إحساس عميق بنعمة الله ، وشعور دافق بالرغبة في شكر الله .. فتحرك لسانه ﷺ ، اول ما تحرك بتسجيل ذلك الإحساس... اللـهم لك الحمد... أشكرك يا رباه أن آتيتني تلك النعمة الكبرى .. نعمة النبوة العظمى .

ثم ماذا قال بعد ذلك ﷺ؟

« انت نور السماوات والأرض» أنت ؟ .. تأمل ما في تلك المناجاة من فطرة وبساطة؟ . أنت ؟ ... أنت وحدك منور

السماوات والأرض . . .

لولاك ما استنار شيء ، ولأظلم كل شيء .

«ولك الحمد» . . . مرة أخرى أحمدك . . . إنني لو مكثت الليالي ذوات العدد أحمدك ، لم أوفك حقك من الحمد يا رب، إن أحداً لا يستطيع حمدك .

« أنت قيام السماوات والأرض» أنت . . . أنت . . مدبر كل شيء في السماوات والأرض . . . بك يقوم كل شيء ، بك حياة كل شيء . .

«ولك الحمد» . . . مرة ثالثة . . . أحمدك . . . إن نعمك تغمر الخلائق جميعاً . . .

« أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن» أنت سيد السماوات والأرض، وسيد من فيهن ، أنت الرب الحق ولا أحد سواك .

وعند ذلك . . . كان قلبه ﷺ عليه وسلم يكاد يطير من الفرح . . . وكانت روحه ﷺ ، تسبح في نور الحقيقية. . . وتكشف لها أسرار الخليقة . . . فيزداد ﷺ أنسا ، ويـزداد ﷺ من حبيبه قربا . . . فيعلم علم اليقين أن ؟؟ .

«أنت الحق» . . . اي والله يا ربي أنت الحق وحدك . . أنت المتحقق وجوده حقاً وصدقاً . .

فهل هناك حقائق أخرى بعد تلك الحقيقة الكبرى ؟ .

نعم . . . هناك فروع لذلك الأصل وكل ما يصدر عن الحق حق . . .

« ووعدك الحق» . . . نعم ربي . . ما وعدت عبادك سوف يتحقق كله . . سوف يقع كله ، ولكن الناس لا يعلمون .

«وقولك الحق . . . إي والله . . . إن من نفس إلا وهي سوف تلقي ربها ذلك حق . . . سوف ألتقي بك يارب .

« والجنة حق» . . وسوف يتحقق للمؤمنين بك ما وعدتهم، فيــروا بأعينهم أن الجنة كائن حق . «والنار حق» . . . وسوف يتحقق للكافرين ما اوعدتهم سوف يعاينون جهنم . . . سوف يدخلونها . . . وسوف يعلمون أن النار لا مرية فيها ولامراء .

«والساعة حق» إي وربي . . . إن الساعة بأهوالها . . . يوم تمور السماء موراً . . . يوم ينفخ في الصور . . . يوم يقوم الناس لرب العالمين . . . يوم يعرضون عليك صفا صفا ، يوم يموج بعضهم يومئذ في بعض . . . يوم تبيض وجوه وتسود وجوه . . . كل ذلك ربي حق . . . سوف يقع وسوف يكون . . .

وهنا . . ازدادت روحه ﷺ نوراً على نور، وسبحت في

آفاق أعلى وأعلى . . . وازداد من ربه قرباً ثم قرباً . . . هنالك تجلت له الحقائق تموج في بعضها موجاً . . . وانكشف له حجاب بعد حجاب ، فإذا به ﷺ يقول . . .

«اللهم لك أسلمت » . . . أي والله استسلمت لك طوعاً . . . لأنني لا استطيع إلا ان أستسلم . . لا أستطيع بعد ان اريتني ما أريتني . «وبك آمنت » صدقت لك . . وكيف لا اصدق بخالقي وخالق كل شيء ؟ لا استطيع . . لا استطيع إلا ان اصدق بك . . . إنني اعاين جهاراً أسرار عظمتك وجبروتك ورحمتك . . .

« وعليك توكلت» . . . كيف اتوكل على شيء سواك . . كيف لا أتوكل على الحي القيوم الذي لا يموت ؟

«وإليك انبت» . . . أفوض اليك كل أموري . . لأنك خير من أفوض اليه أموري . . .

«وبك خاصمت» . . . هل كان يستطيع محمد ﷺ أن يخاصم الناس جميعاً وحده ، لولا ان الله معه ،؟ كلا . . . ولكن بما أعطاه من حجة وقوة ، استطاع ان يخاصم الناس في الله ، وان يقيم عليهم جميعاً الحجة . . .

وأعلن النبي ﷺ ذلك لربه . . . اعترافاً بفضله

عليه . . . وتسجيلاً لنعمته إليه . .

« وإليك حاكمت» لا أرضى إلا بحكمك . . . ولا اعتمد غيره . . . لأنك خير الحاكمين . .

فماذا كان وسؤاله ﷺ بعد ذلك ؟

هل طلب الدنيا هل طلب الملك ، هل طلب الرياسة ، هل طلب شيئاً يفنى ؟؟.

أنظر ماذا طلب من ربه . . .

« فأغفر لي ما قدمت وأخرت » . محمد ﷺ الذي لا ذنب له يطلب المغفرة !!!

كان هذا عن تواضع أم عن حقيقة ؟.

هو عن تواضع إن شئت ، وعن حقيقة إن شئت .

أما أنه عن تواضع ، فذلك ما ينتظر من عبد الله في مقام كهذا .

وأما أنه عن حقيقة فذلك ان النبي ﷺ ، يعلم انه لم يذنب حقاً . . . ولكنه يعلم إلى جانب ذلك أنه مهما جاهد في الله ، فهو لم يوف الله حقه . . . فكان منه طلب المغفرة . . . اللهم اغفر لي التقصير- ولا تقصير -، اغفر لي عدم القيام بحقك . . . إنها النبوة في حالة إحساس بفضل الله عليها ، ولقد كان فضل الله عليه عظيماً .

«وأسررت وأعلنت». . .أنت تعلم سرى وعلانيتي . .

فاغفر لي ما كان من باطني أو من ظاهري .

فماذا كان ختام ذلك التطواف ؟

«أنت إلهي .. لا إله إلا أنت» أعلنها صادقة خالصة .. بيني وبينك

* * *

وكذلك كان النبي ﷺ ليلاً . . . لم يكن نواماً ولكن كان قواماً . . .

وكان قيامه لقاء مع حبيبه الأعلى يناجيه ويناغيه . وربه تبارك وتعالى يتفضل عليه بما شاء من الرحمات والتجليات والايحاءات .

وكان دعاؤه ﷺ بالليل ـ وكل دعائه خير ـ أسمى وأعلى ما عرفت البشرية من المناجاة الربانية . .

تتموج ادعياته ﷺ صاعدة إلى ربها ؛ أنور من النور ، وأسمى من السمو . . .

ليس فيها الا الثناء على الله . . . والاعتراف بفضل الله . . والإقرار بالعبودية لله . .

كل اولئك . . يفوح كالعطر الأقدس ، من صدره الشريف، وهو يئز أزيز المرجل، من البكاء من خشية الله .

وإن أجمل واجل دعاء، لهو دعاء المحب الباكي . . . ؟

إنَّ في الليل لَساعةً ؟!

عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: إن في الليل لساعة ، لا يوافقها رجل مسلم ، يسأل الله خيراً ، من امر الدنيا والآخرة ، إلا أعطاه إياه ، وذلك كل ليلة .

(مسلم)

وعن أبي هريرة ان رسول الله ﷺ قال: ينزل ربنا تبارك وتعالى ، كل ليلة ، إلى السماء الدنيا ، حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول: من يدعوني فاستجيب له ؟. ومن يسألني فأعطيه ؟. ومن يستغفرني فأغفر له ؟ .

(مسلم)

* * * *

قال النووي : فيه اثبات ساعة الاجابة في كل ليلة ،

ويتضمن الحث على الدعاء في جميع ساعات الليل رجاء مصادفتها قوله ﷺ ينـزل ربنا).

هذا الحديث من أحاديث الصفات ، وفيه مذهبان مشهوران للعلماء ومختصرهما ، أن احدهما ـ وهو مذهب جمهور السلف وبعض المتكلمين ـ أنه يؤمن بأنها حق على ما يليق بالله تعالى ، وأن ظاهرها المتعارف في حقنا غير مراد، ولا يتكلم في تأويلها ، مع اعتقاد تنزيه الله تعالى عن صفات المخلوق ، وعن الانتقال والحركات وسائر سمات الخلق .

والثاني مذهب اكثر المتكلمين وجماعات من السلف ، وهو محكي هنا عن مالك والأوزاعي ، انها تتأول على ما يليق به بحسب مواطنها . فعلى هذا تأولوا هذا الحديث تأويلين ، أحدهما تأويل مالك بن انس وغيره ، ومعناه تنزل رحمته وأمره وملائكته ، كما يقال فعل السلطان كذا اذا فعله اتباعه بأمره ، والثاني أنه على الاستعارة ، ومعناه الاقبال على الداعين بالإجابة واللطف، والله اعلم .

* * * *

حديثان جليلان ، يكمل أحدهما الآخر ، فهما كوكبان دريان .

أما احدهما فيبدء بقوله ﷺ «إن في الليل لساعة» . . . ان في الليل لوقتاً . . . وقتاً لا يعلمه الا الله . . . وقتاً تستجاب فيه الدعوة .

ياله من وقت ! .

« لا يوافقها رجل مسلم» لا يوفق اليها رجل مسلم ، أو امرأة مسلمة ، لا يوافق قيامه ودعاؤه تلك الساعة.

« يسأل الله خيراً» يدعو الله بشيء من الخير .

« من أمر الدنيا والآخرة» سواء كان السؤال عن شيء من خير الدنيا او شيء من خير الآخرة .

«إلا أعطاه إياه» إلا تفضل الله عليه واستجاب له ومنحه ما يسأل .

« وذلك كل ليلة» وذلك يكون في كل ليلة الى يوم القيامة .

* * *

وأما الآخر فقوله « ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة» يحدث ذلك كل ليلة، فمن فاتته ليلة فعليه بالأخرى .

« الى السماء الدنيا» الى سماء هذه الدنيا ، الى السماء الأولى .

«حين يبقى ثلث الليل الآخر» ويكون ذلك في الثلث

الأخير من الليل. في الثلث الأخير من كل ليلة. «فيقول» فيقول سبحانه وتعالى.

« من يدعوني فأستجيب له؟» من يسألني فألبي سؤاله.

«ومن يسألني فأعطيه؟» أيًاما كان السؤال، قليلاً أو كثيراً.

« ومن يستغفرني فأغفر له؟» ومن يطلب مني غفران ذنوبه فاغفرها له؟.

هذان هما الحديثان.

يتلألأن... ويموجان موج النور.

إلا أن فيهما سراً.. فما هو ذلك السر.؟.

هل كل رجل مسلم، أو امرأة مسلمة، انبعث في جوف الليل، يدعو الله، يستجيب له الله؟.

والجواب نعم... ولكن على قاعدة الدعاء التي تقتبس من فقه الأحاديث وروح الشريعة.

وتلك القاعدة ينبغي ان تستقر رؤوسنا جميعاً لتتجلى لنا مشكلات الدعاء.

كل دعاء يصدر منك يصّاعد الى الله، ما دمت صادقاً في دعائك، متجها الى الله في اخلاص.

والدعاء في هذه الحالة عبارة عن طلب من العبد يطلبه من الله.

والله سبحانه يستجيب الدعاء باحدى ثلاث .

إما أن يعجل.

وإما أن يستبدل .

وأما أن يؤجل .

أما تعجيل الدعاء فهو أن يعطيك الله ما تسأل وزيادة .

وأما استبدال الدعاء فهو ان يدفع الله عنك من السوء مثل ما تطلب من الخير وزيادة .

وأما تأجيل الدعاء فهو ان يؤخر الله تنفيذ الدعاء الى يوم القيامة، فيعطيك في الآخرة ، عوضاً عما طلبت في الدنيا .

وإذا وُضعت تلك القاعدة في الاعتبار، قرت قلوب الداعين ، واطمأنت ان الله لم يضيع دعاءها .

الشخصية المتوازنة

من أعجب ما في هذا الإسلام ، انه يزن الأمور بالقسطاس المستقيم ، فلا انحراف الى يمين ، ولا انحراف إلى شمال ، ولكن خطاً مستقيماً ، لا ترى فيه عوجاً ولا أمتاً .

فهـو بحق دين أنـزلـه الحكيم الخبيـر ، ليبين للنـاس الطريق السوي في كل شيء من أمر الدنيا والآخرة .

ينظر الإسلام إلى الإنسان نظرة الحق والواقع ، لا نظرة الخيال والأساطير .

فـالإنسان في نـظر الإسلام مخلوق من روح وجسم ، فعلى هذا ينبغي اعطاء كل منهما حقه في الحياة .

ويـرى الإسلام على هـذه القاعـدة أن للروح غذاءهـا وللجسم غذاءه .

ثم يـأتي في ذلك بـالعجب العجاب ، الـذي لن تجد مثله في دين سواه أو نظام غيـره والإسلام بهـذا يتميز على جميع الأديان، ويرتفع فوق مستوى كافة نظم الإنسان وليس من الحق الزعم بأن الإسلام لخص أخلاق البشرية المتوارثة وكون نظامه الذي يدعو إليه .

ليس هـذا الزعم من الحق . . . لأن الإسـلام نزل من السماء ولم يأت من الأرض نزل من عند الله ولم يـأت من عند البشر .

والله سبحانه ليس في حاجة الى سخافات البشر وأوهام الخلائق ليبتدع منها نظاماً ينزله إلى الناس

وإنما هو سبحانه يعلم العلم كله ، ويعلم مـا لا سبيل للخلائق الى علمه ، فهو سبحانـه عندمـا ينزل الى النـاس نظاماً ، إنمـا ينزل من عنـده علماً لم يسبق للخـلائق علمه فالإسلام شيء من علم الله ، أذن الله أن ينزل إلى الناس ، ليكون نوراً يهديهم في ظلماتهم التي بعضهـا فوق بعض ، يحتكمون إليه إذا اختلفوا ، ويهتدون به إذا ضلوا

وكمـا أن علم الله كـامـل لا سبيـل الى النقص فيـه ، فكذلك الإسلام نظام كامل لا سبيل الى النقص فيه .

« اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام دينا » .

فزعم الزاعمين أن الإسلام أخذ من أخلاق السابقين وكون منها نظاماً ألقاه الى الناس ، زعم باطل وفهم خاطىء لا يصدر إلا عن الذين لا يفهمون من أين نزل الإسلام .

يضع هذا الدين للناس الموازين القسط فيما يأخذون وفيما يدعون .

ويبلغ في ذلك شأوا ليس في استطاعة بشر أن يبلغه ، وإليك دلائل ما نقول .

التوحيد . . . يبنى الإسلام رأيه على كلمة « لا إله إلا الله » لا معبود بحق سواه . . . فهو يقرر أن هناك آلهة كثيرة تعبد من دون الله ، ولكنها باطلة كلها والمعبود بحق هو الله .

ثم يعلن في قوة وصراحة رأيه في ذات الله وصفاته في كلمات ليس أبلغ منها في الوجود كله حيث يقول « ليس كمثله شيء » .

قضي الأمر ، وفرغ الإسلام بذلك من أخطر وأدق وأعمق وأوسع مشكلة في حياة الإنسان . ألا وهي مشكلة

الخالق والمخلوق أونظرةالإنسان إلى إلهه وما ينبغي أن يعتقده في خالقه .

وهكذا ينزل حكم الله في تلك القضية مشرقاً كالشمس واضحاً كالنهار .

الصلاة . . . خمس صلوات في اليوم والليلة ، محدودة معدودة ، فيها حق للجسم من الحركات والوضوء ، وحق للروح من الالتجاء والدعاء والصفاء .

الصوم . . . النهار كله لا طعام ولا شراب ولا نكاح ، والليل كله طعام وشراب ونكاح . وواضح جداً أن الإسلام يضع في اعتباره أن تأخذ الروح حقها ، ويأخذ الجسم حقه ، لا هذه تبغي ولا هذا يعتدي .

الزكاة . . . المال كله ملك لصاحبه ، إلا ما ينبغي عليه أن يخرجه للفقراء والمجتمع . . . وهو بذلك يحفظ على الإنسان غريزة التملك الفطرية ، ويهذب من جشعه باخراج الصدقات .

الحج . . . عبادة تجمع بين حق الجسم وحق الروح ، والمال المبذول والسفر والمشقة والجؤار على عرفة والطواف بالبيت . كل أولئك يجمع بين المادية والروحية في توازن عجيب .

إلا أن الإسلام يبدو أعجب وأعجب في أخلاقه التي وجه الناس إليها .

مشكلة الجنس ـ تلك المشكلة التي حيرت البشر ، واقترحوا لها حلولاً ، فخابوا وخسروا ، وزادوها تعقيداً .

يأتي الإسلام إليها . . . فيحلها حلاً جميلاً . . ولا تقربوا الزنا . . ثم يقول انكحوا ما طاب لكم من النساء يحرم الاتصال الفوضوي وفي الوقت نفسه يدفع دفعاً إلى الاتصال المنظم .

يقول للناس إياكم وتناكح البهائم ، كلما حلا للفحل أنثى طرقها ، ولكن اذهبوا فانكحوا ما شئتم من النساء عن طريق الزواج المنظم وهو بذلك لا يشطح شطح الرهبان الذين حرموا زينة الله ، وفصلوا بين الذكر والأنثى فصلاً باتاً تاماً ، ولا ينزلق انزلاق البهيميين الذين يبيحون الاتصال اباحة بهيمية .

أرأيت التوازن في الحكم ؟

لا رهبانية . . . ولا بهيمية . . . ولكن حنيفية سمحاء

مشكلة الرزق . . . يحرم الإسلام الكسب من حرام فيقول « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » إلا أنه بحث حثاً

على الكسب الحلال « وكلوا من رزقه » يسد على الإنسان أبواب الرزق الحرام . ويفتح أمامه أبواب الرزق الحلال . فيمنع بذلك الفساد في الأرض . . ويحفظ على الإنسان حياته التي قوامها الارتزاق .

ثم هو يفتح باب الكسب على مصراعيه . . . ولا يمنع إنساناً أن يكون غنياً . . ولكنه يزين له ان يعطي الفقراء والمحرومين ، فيحفظ بذلك على الإنسان إنسانيته وعلى الناس مشاعرهم . فلا هو يصادر رؤوس الأموال مصادرة تامة ، ولا يترك أصحاب رؤوس الأموال يعبثون بالناس . ولكن « فلكم رؤوس اموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » . . . لك رأسمالك ولكن عليك أن تؤدي حقه .

وهذا هو أرقى نظام يصلح للإنسان وينمي فيه إنسانيته . أنا أملك ما أشاء وأعمل ما أشاء ، ولكن المجتمع له عليَّ حقوق لا بد من أدائها ، فإن أبيت فالحكم يرغمني على أدائها « لو منعوني عقال بعير ، لقاتلتهم عليه » .

ذلك أن الإنسان لا يكون إنساناً إلا إذا عاش حراً ، فإن هو فقد حريته فقد إنسانيته . . . وتلك هي نظرة الإسلام الى الإنسان .

يحرص كل الحرص أن يحرره من كل شيء ينتقص من حريته. ويأمر بكل الطرق بما ينمي فيه تلك الحرية .

مشكلة العمل .. « اعملوا ما شئتم » .. « فاستبقوا الخيرات » يقرر الإسلام حرية العمل على قاعدة « كل ميسر لما خلق له » ... ويترك لك تمام الحرية في اختيار العمل الذي يناسبك ، ويأمرك أن تسابق غيرك فيه وتتنافس فيه . وهو بذلك ينمي غريزة التنافس في الإنسان ... تلك الغريزة التي هي أساس كل تفوق وتقدم في بني آدم .

العلم ... يأمر الإسلام بالعلم ... ويحرم الجهل ... ولا يقبل من جاهل عذراً ... فاعلم أنه لا إله إلا الله .. طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، إلا أنه لا يقبل علماً يؤدي إلى فساد أو ضلال ، ويعذب عليه أشد العذاب . وهو بذلك يحكم حكم العدل ، يريد الناس أن يكونوا علماء ، لا ليتباهوا ويتماروا به ، ولكن ليرحم بعضهم بعضاً ، وينفع بعضهم بعضاً . ذلك هو الإسلام ... فصل في مشكلات الناس فصلاً حكيماً ، ونزل إليهم صراطاً مستيماً .

وأراد من الإنسان أن يكون شخصاً متوازناً في كل شيء ، لا طغيان للروح على الجسد ، ولا طغيان للجسد

على الروح ، وإنما الإنسان عنده من استقام ، والاستقامة في مقياسه ، أن تعيش وتستمتع بالحياة ، ولكن في حدود الدائرة التي رسمها لك الله .

تلك الدائرة التي تسمح لك بالحركة في حرية من غير أن تعتدي على حرية الآخرين.

فكما يكره الإسلام التعمق في الدين فهو يكره التهاون في الدين .

وكما يكره الظلم والاعتداء يكره الاستكانة والانطواء .

وكما يكره أكل الحرام فهويكره التواكل .

ديناً قيماً . . . وحكماً ربانياً . . . ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ؟

ما هذا الروح الطيب ؟

أخي . . . كـان اليـوم صبـاحـاً . . . عنـدمـا جـاءتني البرقية . . . وتلوتها أكثر من مرة . . .

كانت كلمات خمسـاً ، محكمة ، لا سبيـل إلى الأمل فيها . . . « محيي شاهين توفي ودفن بمنى » . . .

خمس كلمـات كأنهن خمس رصـاصات استقـرت في صدري ، فقتلتني ، إلا أنها لم تقض عليَّ قضـاء مبرمـاً ، وإنمـا تركتني كـالطائـر الذي ذبحـوه ، إلا أنهم لم يجهزوا عليه ، فانفلت يشخب دمه من عنقه بين الموت والحياة .

أخي . . .

الآن انكشف عنك الغطاء ، وعاينت الحقيقة ، ورأيت اليقين ، وعلمت ما لم نعلم ، وعاينت ما لم نعاين .

الآن رأيت وعاينت ما كنت توعد بالغيب ، وتؤمن به وأنت في الدنيا ، إيماناً لا يتزعزع .

اذكر أننا كنا نتجادل في فتنة تحضير الأرواح ، التي شاعت وذاعت من قريب ، فكنت تسخر منا وتقول : ما لنا نحن وهذا. . . تلك مغيباب سوف يكشفها الله لنا عندما نعود إليه .

وقد عدت الآن الى ربك ، وكشف لك حقيقة عالم الروح ، لأنك أصبحت الآن روحاً من تلك الأرواح .

فكيف وجدت الروح يا أخي ؟ .

كيف وجدتها عندماانسلخت أنت روحاً من جسدك ؟ .

عندما باشرت بنفسك تجربة الموت ، وجاءك رسل ربك يتوفونك .

عندما بلغت منك الحلقوم، وجاءك ملائكة وجوههم كالشمس من بعيد ينظرون . . .

استمع يا أخي إلى حديث رسول الله ﷺ ، يفصل لأهل الدنيا ما يجري عليهم ساعة الاحتضار . . .

« . . . إن العبد إذا كان في إقبال من الآخرة ، وانقطاع من الدنيا ، نزلت إليه ملائكة كأن وجوههم الشمس ،

فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول أيتها النفس الطيبة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ، قال ـ فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء ، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ـ قال ـ فيصعدون بها ، فلا يمرون بها يعني على ملإ من الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الطيب ، فيقولون فلان بن فلان بأحسن اسمائه التي كانوا يسمونه في الدنيا ، حتى ينتهوا بها الى السماء الدنيا ، فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها الى السماء التي تليها ، حتى ينتهي بها إلى السماء فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدي في عليين ، وأعيدوه إلى الأرض ، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى ـ قال ـ فتعاد روحه في جسده ، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك ؟ فيقول ربي الله ، فيقولان له ما دينك ؟ فيقول ديني الإسلام ، فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول هو رسول الله ، فيقولان له وما علمك بهذا ؟ فيقول قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت ، فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي

فأفرشوه من الجنة وافتحوا له باباً من الجنة ـ قال ـ فيأتيه من ريحها وطيبها ، ويفسح له قبره مد بصره » .

أخي . . .

كيف حين مررت بتلك التجربة ، حين جاءك ملك الموت ، وحين أخذك منه الملائكة الذين وجوههم كالشمس ، وحين صعدوا بك إلى السماء الدنيا، فما يمرون بك على ملإٍ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب ؟ فيقولون : هذا محيي شاهين .

وكيف بك حين صعدوا بك من السماوات السبع ، وشيعك من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها ؟ .

وكيف بك حين التقيت بربك ، وجاء النداء من قبله سبحانه ، وسمعته بأذنيك ، اكتبوا كتاب عبدي في عليين . . .

أعتقد أنك كنت في سرور يفوق سرور أهل الأرض أجمعين .

لقد أيقنت في تلك اللحظة . . . أن الله الذي كنت تعبده وترجوه في دنياك . . . قد رضي منك عقيدتك ، وقبل منك أعمالك . . .

إنها الفرحة الكبرى يا أخي . . . ولقد عاينتها ومـررت بها . . .

وأنت الآن في عالم البرزخ . . . الذي نسميه بالبرزخ لقصور علمنا ، وظلمة تكويننا .

وماذا نملك في هذه الدنيا إلا الظنون والأوهام ؟

ولكنك الآن أرفع منا علماً ، وأوسع منا تفكيراً ؟ .

فـأول شيء أنك تحـررت من جسدك ، ذلـك السجن الكريه ، الذي يعوق الروح عن انطلاقها .

وثاني شيء . . . أنك الآن روح تنتقل في عالمها حيث شاءت .

والأرواح ترى وتسمع في سرعة لا نتصورها وتتحرك في عالمها في حرية تامة وسرعة فوق الخيال .

أظنك تضحك مني الآن . . . وتقول في نفسك : مـا لهـذا الجاهـل يتكلم فيمـا لم يعـاين ، ويتحـدث فيمـا لم يجرب ؟ .

وأقول لك : معذرة . . . فهو الإنسان . . . يحاول ان يكون شيئاً . . . وما هو بشيء !

وثالث شيء . . . أنك الآن لو عرض عليك أن ترجع إلى الدنيا لرفضت وأبيت ، بعدما شاهدت ورأيت ، ما أعد الله

لعباده من الكرامة والنعيم ، ولسان حالك يقول : « يا ليت قومي يعلمون . بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين » .

ورابـع شيء . . . أنـك قـد فـزت ، ونجحت في الامتحان . . .

فإني أشهد الله وحملة عرشه وملائكته وجميـع خلقه ، أنك كنت مستقيماً إذا اعوج النـاس ، صريحـاً إذا نافقـوا ، أميناً إذا خانوا ، تريدها بيضاء لا عوج فيها .

ولقد كنت مجاهـداً بالحق لا تستـطيع أن تكتمـه ، أو تداري أو تجاري أو تماري فيه .

إذا رأيت شيئاً لا يرضي الله ، انطلقت تقاومه وتدفعه ، وكنت تلاقي ما تلاقي في ذلك ، ويلومـك اللائمـون لومـاً كثيراً .

واشتهـر عنـك ذلـك الخلق العمـري حتى وصفـوك بـالمتصلب والمتشدد والمتعصب ، ويـا لها من تيجـان من نور ، ستجنى أو قد جنيت ثمارها الآن .

فليس أعظم من انسان يجهر بالحق ، في قوم لا يحبون الحق .

وليس أعظم من انسان يقول الحق ولو كان مراً .

ولقد كان في خلقك صفاء ونقاء .

ولم يكن ذلك فيك عن اكتساب ، وإنما عن فطرة فطرك الله عليها ، ونعمت الفطرة .

كنت تنطق بالحق كالسيف البتار ، لا تبالي أرضى الناس أم سخطوا . . . وأنت في ذلك لا تبغي إلا رضا مولاك . . .

أخي . . .

لقد كانت اخوتنا اخوة في الله . . . وكنت أنت مرآتي التي أرى فيها عيوبي . . . وخير الأصحاب من أهدى إليك عيوبك .

وكيف أنسى أنك كنت أثناء زحمة الحياة بالقاهرة ، تصر على ان نؤدي الصلاة في المسجد في جماعة ، فإذا راوغتك أو حاورتك ، زأرت كالأسد ، واتجهت من فورك إلى بيت الله ، فاضطررت أن أتبعك لنصلي في جماعة .

مَن الآن يذكّرني كما كنت تذكّرني ؟ . . .

من الآن يعلمني الأخلاق عملياً ؟ .

لقد فزت أنت فوزاً عظيماً . . .

وخسرت أنا خسراناً مبيناً . . .

أما أنت فاختارك الله ، وآثر لك ما عنده ، وأما أنا

فابتليت بفقدك ، لأعيش وحدي ، بلا أخ يعينني على ذكر الله .

فادع الله يا أخي وأنت الآن في عالم الحق ، أن يهديني سواء السبيل وألا يفتنني من بعدك .

وأما أنا فسوف أدعوه سبحانه أن يكرم مثواك ، ويرفع درجتك .

وليس من عزاء إلا قوله ﷺ : « ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها ، إلا أخلف الله له خيراً منها» .

الجمعـة

« يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يـوم الجمعة فـاسعوا إلى ذكـر الله وذروا البيـع ذلـك خيـر لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصـلاة فانتشـروا في الأرض وابتغوا من فضـل الله واذكـروا الله كثيـراً لعلكم تفلحـون وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين .

(الجمعة ٩ : ١١)

لكل أمة مضت عيد ، وعيد هذه الامة الإسـلامية يـوم الجمعة .

هو عيدناالأسبوعي ، الذي ينبغي ان نتسم فيه بسمـات الجمال والكمال .

إن لليهود يوم السبت .

وللنصارى يوم الأحد .

وللمسلمين يوم الجمعة .

ولقد عظم الله يوم الجمعة ، ففرض فيه صلاة الجمعة ، على كل مسلم ، وسن رسول الله ﷺ له آداباً وسنناً ، إذا تأملتها وجدتها كلها ، تهدف الى إظهار يوم الجمعة بالمظهر اللائق به .

فلقد قال ﷺ : إذا أراد أحدكم ان يأتي الجمعة فليغتسل . ومعنى هذا أن النظافة واجبة على المسلمين في ذلك اليوم .

وسن رسول الله ﷺ في ذلك اليوم أن يلبس الانسان أحسن ثيابه ، ويتطيب ، ويمشي الى المسجد في سكينة ووقار ، وأن يبكر الى ا لمسجد ما استطاع .

قال رسول الله ﷺ من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فكأنما قرب بدنةً ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر .

وتأمل معي المسلمين جميعاً ، خمسمائة مليوناً من الناس ، وقد خرجوا جميعاً من بيوتهم ، قبل نداء الجمعة بساعة او ساعتين ، يمشون إلى المساجد مغتسلين ، محلقين ، متطيبين ، متسوكين في ملابس بيض ، كأنهم الملائكة يمشون مطمئنين على الأرض ، فإذا ما جاءوا الى المساجد ، صلوا ركعات لله ، ثم جلسوا صامتين مفكرين ذاكرين خاشعين ، ينتظرون الصلاة .

فإذا ما جاء الائمة ، خطبوهم فيما ينفعهم من أسبوعهم ، ثم أدى الجميع الصلاة ، متجهين الى قبلة واحدة ، في وقت واحد .

ثم انصرفوا ، وقد شهدوا بعضهم بعضاً ، وأنسوا بالله ، وأنسوا بأنفسهم .

يا له من مشهد يوم عظيم !

أبصر به وأسمع .

ولهم بعد ذلك أن ينتشروا في الأرض ويبتغون من فضل الله .

ذلك يوم عيدنا ، وذلك شيء من جماله وكماله .

إلا أن الناس قد ضيعوا ذلك ، وأوشك يوم الجمعة أن

ينطمس في قلوبنا ، ويذهب نوره من أفئدتنا .

وأول الوهن في الأمر ان اقواماً لا يصلون الجمعة، وينصرفون الى لهوهم أو تجارتهم ، وقد كثر هذا الصنف ، حتى كاد أن يصبح شيئاً مألوفاً! .

وثاني الوهن أن كثيراً من خطباء الجمعة قوم أثريون ، يتثاقلون وهم يصعدون الى المنابر ، ثم يلقون الى الناس كلاماً ميتاً لا حياة فيه ، ثم ينزلون إلى الصلاة كأنهم أعجاز نخل منقعر .

هؤلاء قوم منفرون ، قوم ينبغي استبدالهم بآخرين يحبون الله ويحبهم ، يتدفقون شباباً ، ويبادلون الناس حياة بحياة .

ولو يدرك الخطيب الأثري مدى ما يتركه في نفس المصلى من حسرة وألم ونفور ، ما عاد إلى خطابته الأثرية ابداً . . .

وثالث الوهن ان يوم الجمعة ينبغي أن يكون له أوامره الرسمية .

فمثلاً . . . تحرم الدولة فتح المتاجر اطلاقاً حتى صلاة الجمعة ، ثم بعد ذلك تبيح فتحها .

فلو أن مدينة كالقاهرة أغلقت متاجرها كلها من صباح يوم الجمعة الى ما بعد الجمعة بساعة مثلاً وهو الوقت الذي تقضى فيه الصلاة ، لاستطاع كثير من العمال والموظفين والتجار ان يؤدوا صلاة الجمعة ويعطوها حقها من الاستعداد إذ كيف يصلي عامل بمحل تجاري ، وهو يعمل كادحاً في محله حتى أذان الجمعة ؟

كيف لهذا المستضعف أن يصلي ، وهو يخشى على رزقه من الضياع ؟ .

ولكن إذا حرمت الدولة فتح المتاجر في النصف الأول من يوم الجمعة ، لأتاحت بذلك الفرصة للمصلين أن يصلوا .

ثم لكان هذا مظهراً رائعاً لوحدة الدولة، واتجاهها إلى الله .

وإني ليحضرني هنا مثال عملي ، ذلك أن صديقاً لي يحافظ على الصلاة من صغره ، ويحب لعب الكرة حباً جماً .

ثم كانت المباراة بيننا وبين فريق البرازيل يوم الجمعة من آخر ابريل ، وذهب فيمن ذهب ينتظرون المباراة من الساعة التاسعة صباحاً ، وكان الزحام شديداً والجو حاراً ،

وجاءت صلاة الجمعة ، فآثر صاحبنا ان يحافظ على مكانه ، ولم يستطع ان ينزل الى المسجد ليؤدي صلاة الجمعة . وكان هذا هو شأن آلاف من المتفرجين في الملعب ، أضاعوا صلاة الجمعة طوعاً أو كرهاً فلو أن الدولة وضعت في اعتبارها ذلك ، لأمكن لها أن توفر للمصلين صلاتهم . وكان ذلك سهلاً ميسوراً . لو ان المشرفين على المباراة اغلقوا أبواب الملعب حتى الساعة الواحدة ، ثم فتحوها بعد ذلك . إنهم لو فعلوا لأتاحوا للناس صلاتهم الى جوار لهوهم .

ذلك مثال مما يصنع المجتمع من تضييع صلاة الجمعة .

وهناك غيره كثير يمكن تداركه بقليل من التنظيم .

ولسنا في ذلك نطلب بدعا من النظم ، أو جاهلية من الحياة .

كلا . . . فإن يوم الأحد في أوروبا وأمريكا ، يوم له بهجته وعظمته وتنظيمه وروعته .

سل الذين ذهبوا إلى أمريكا عن يوم الأحد ، يحدثوك كيف يخرج الناس جميعا ليفرحوا ويمرحوا ، وكيف يذهبون

إلى الكنائس ، وكيف يعتبرون العمل يوم الأحد جريمة كبرى

ولئن كان هذا هو حال الأجانب في يوم عيدهم ، فكيف بنا وقد جعل الله لنا يوم الجمعة عيدا مفروضا وأمرا مشروعا ؟ .

يقول ﷺ : لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين .

ويقول : خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة . . .

ورابع الوهن أن قوما يخطبون الناس يوم الجمعة فيطيلون كأنما بينهم وبين الناس ثأرا دفينا .

ترى الخطيب يمكث على المنبر ساعة أو أقل قليلا ، يقول ويقول ، ويبدىء ويعيد ، ويأتي على الإسلام من أوله إلى آخره في خطبة واحدة !

هو لا يدري ماذا يقول ، والمستمعون لا يدرون ماذا يريد هذا الرجل أن يقول .

أعرف مسجدا بجوار منزلي ، يخطب فيه رجل يمكث نحو الساعة في خطبته ، ولقد ألف المصلون منه ذلك وألف هو من نفسه هذا ، فترى المسجد بعد أذان الجمعة بنصف ساعة ولا أحد فيه ، وهو يخطب على المنبر وجدران المسجد تستمع إليه !

وسبب ذلك أن المصلين لما رأوا اصراره على التطويل ، رتبوا أنفسهم أن يحضروا وهو يشرف على النهاية حتى لا يسأمون ويضجرون ! .

وهؤلاء الخطباء ليس عندهم أثارة من علم ، أو شيء من توفيق .

ولقد نسى هؤلاء توجيه رسول الله ﷺ حيث يقول : إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه ، فأطيلوا الصلاة واقصروا الخطبة وإن من البيان سحراً .

(مئنة : علامة)

تلك خواطر في يوم الجمعة ، لعلنا نتدارك فيها أخطاءنا ، ونصلح من أنفسنا ، ونقوم من عاداتنا .

فيأخذ يوم الجمعة بيننا حقه ، ويعود إليه بهاؤه وسناؤه .

القول الفصل
في مشكلة تحضير الأرواح

من أعجب وأغرب ما يجري في هذه الأيام ، الدوي الخفي أو العلني ، الذي يجري في أنحاء البلاد ، عن تحضير الأرواح ، وعجائب السلال .

وذهب الناس في الأمر مذاهب شتى فمن مفتون مبهور بما رأى وسمع .

ومن غاضب ثائر على الظاهرة مكذب لها .

ومن رجل بين مصدق ومكذب .

وتطلع علينا الصحافة كل يوم بسيل من الآراء والوقائع ، وطوفان من الظواهر والعجائب .

هذا رجل استحضر روح دالاس فقام وقال .

وآخر استحضر روح سلامه موسى فزعم وزعم ، وقال

إنه آسف أشد الأسف لما كان يعتقده من متقدات ضالة مضلة طيلة نصف قرن ، وأنه رجع عن هذه الآراء في العالم الآخر ، وإنه ينصح الذين افتتنوا به في الدنيا ، أن يرجعوا عن آرائهم !!

وهذه جلسة روحية استحضرت روح نابليون ، فقال لهم أنه أسلم في العالم الآخر ، وأعلن رجوعه عن عقيدته الفاسدة !!

وهذا آخر استحضر روح سعد زغلول فزعمت وزعمت ، !

وآخر استحضر روح شوقي فأملت عليهم قصائد نظمها في العالم الآخر !!

وآخر استحضر روح إديسون فقال لهم إنه مشغول في العالم الآخر باختراع جهاز يمكن الأرواح من الاتصال بأهل الدنيا ويمكن أهل الدنيا من الاتصال بالأرواح !!!!

وآخرون استحضروا أرواح آبائهم وأمهاتهم وأجدادهم فزعموا وزعموا !! .

إلى آخر هذا الطوفان من الأوهام والظنون ، التي يروج لها قوم لا يهمهم من الموضوع إلا أن يرتفع رقم توزيع صحفهم .

وازدادت اللوثة فتكا بالعقول بعد أن نشرت الصحافة قصة التحضير عن طريق السلال .

وافتتن بها النساء والرجال والصغار والكبار ، حتى الذين عندهم بقية من عقل ، وأثارة من علم ، لم يسلموا من الوقوع في الفتنة ، فوقفوا بين هؤلاء وهؤلاء ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء !!! .

إلا أن أعجب ما في الأمر ، ليس هو موقف الناس من الظاهرة .

وإنما هو موقف علماء الإسلام من الأكذوبة .

ذلك انهم ذهبوا مذهبا عجيبا في المشكلة .

فما ذا كان موقف علماء الإسلام من الموضوع ؟ .

كان موقفهم أنهم جميعا اتفقوا على صحة الظاهرة ، ووقفوا على المنابر وفي المساجد وذهبوا يعلنون للناس ، أن ما يكون من ظاهرة تحضير الأرواح ، عن طريق السلال . أو غير السلال ، إنما هو تحضير الشياطين أو الجن وليس تحضيرا للأرواح !

أي أنهم اتفقوا على صحة الظاهرة وإنما الذي وقفوا يبطلونه هو زعم الناس أن ما يحضر هي أرواح للموتى وراحوا

يدللون على دعواهم ، ويؤكدون أنه الجن ليس إلا ، وليست الحاضرة أرواحا للمنتقلين ! .

وانفضوا بعد ذلك هادئين ، وتنفسوا طويلا ، وظنوا أنهم أتوا على البنيان من القواعد ، وأن فتنة تحضير الأرواح قد انحسمت إلى الأبد

ولكن الذي حدث هو أن الفتنة انتشرت ، والنار اندلعت واشتعلت ، ثم ازدادت اندلاعا واشتعالا .

ذلك أن علماءنا بما أذاعوا ووعظوا وقالوا ونشروا ، أعانوا من حيث لا يشعرون على انتشار الأكذوبة تبيان ذلك أنهم أقاموا قضيتهم على دعامتين .

الأولى أن يحضر جن وليس بروح

الثانية أن الظاهرة في ذاتها صحيحة

فازداد الناس إيمانا بالأمر ، ذلك أن الناس لا يهمهم نوع الحاضر وإنما يهمهم هل هناك شيء يحضر أم هي مجرد أوهام ؟. فإذا أثبت أن هناك شيئا يحضر ، صفقوا وتحلقوا وبحلقوا ولا يهمهم في شيء إن كان الحاضر جنيا أو روحا منتقلة .

يكفي أنه شيء من عالم غير عالمنا ، شيء خفي

غيبي . . . أما كونه جني أو إنسي ، فليس بأصل في الموضوع .

وهكذا تحول علماؤنا إلى دعاة للفكرة من حيث لا يريدون .

ولم يكن هذا عن قصد منهم ، وإنما كان اكتفاؤهم بأن يقولوا أن الحاضر جن أو شيطان أو قرين وليس روحا من أرواح البشر المنتقلين ، ووقوفهم عند هذا الحد ، كان ذلك تأكيدا للظاهرة ، وتثبيتا لهما . . . ودفعا خفيا للجماهير ليتحلقوا من حولها .

وهم في ذلك كالطبيب الذي يقول للمريض إنك مريض بكذا . . ثم يتركه ويذهب ، : ولم يحدد له دواء ، أو يقرر له علاجا !

إنه بذلك لم يزد المريض إلا ألما وخوفا ولم يزده إلا وهما وفزعا .

وهذا ما فعله علماؤنا بالجماهير الحائرة المتطلعة إليهم ، تريد منهم قولا فصلا في المشكلة .

قالوا لهم اعلموا أن ما يحضر إنما هو الجن ، ولا تصدقوا أنه أرواح ثم نزل الواعظ عن منبره ، وغادر العالم

مكانه . . . وترك الجماهير أشد حيرة وأشد فزعا .

لقد كان ينبغي أن يقولوا لهم تتمة المقال . ويعلنوا إليهم حكم الله في هذا البهتان ، وهذا هو العلاج الذي فاتهم أن يقرروه ففعلوا فعل الطبيب الذي كشف على المريض . . . ولم يحدد له دواء .

والآن . . . باسم الله ندخل هذه المعركة . . . ونقاتل فيها ابتغاء وجه الله لنكشف عن وجه الباطل . . ونفضح زيف الزاتمين . . . وضلال المخادعين الأفاكين .

أما القصة من أولها فهاكها .

تبدء القصة من هناك . . . يوم أمر الله الملائكة بالسجود لآدم ، فسجدوا إلا ابليس .

ثم كان ما كان ـ مما هو مشهور ومعلوم ـ من لعن ابليس ، ثم اغواء ابليس لآدم ، ثم معصية آدم ، ثم توبة الله عليه هو وحواء .

ثم كان الأمر الإلهي المشهور « اهبطوا منها بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين » .

وكما تناسل آدم وتكاثر تناسل إبليس وتكاثر هو الاخر فكان منه الشياطين جميعا .

وكما نزل أبليس ملعونا من الله عدوا للإنسان .

نشأت ذريته ملعونة من الله عدوة للإنسان تحمل خصائص أصلها ، وسمات جذورها :

وبدء تنفيذ القصة على وجه الكوكب الأرضي :

صنفان متمايزان .

الإنس وهم ما نعلم . . . ذرية آدم وحواء .

والشياطين وهم ذرية إبليس .

وحدد الله تحديدا واضحا علاقة الصنفين ، فبين ان هناك عداء أصيلا بين إبليس وذريته وآدم وذريته ، وليس هذا العداء من جهة الآدميين ، وإنما من جهة الأبالسة لأنهم لعنوا بسبب إبائهم السجود لآدم .

فالأبالسة هم الحاقدون علينا وليس العكس .

وحذر الله من ذلك « افتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا »

« ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين .

وان أعبدوني هذا صراط مستقيم » .

وبين الله لنا في وضوح ما بعده من وضوح أن كل سلطانه

علينا هو الإيحاء بصوت خفي . « من شـر الوسواس الخناس . الذي يوسوس في صدور الناس . من الجنة والناس »

فحدود التسلط الجني على الناس . هو في هذا ، في الوسوسة ، في الإيحاء بالشر .

كما أن الملائكة توحي إلى الإنسان بالخير .

وقد بين لنا الرسول ﷺ أن كل قلب يلم به الملاك ويلم به الشيطان ، أما لمة الملاك فإيحاء بالخير وأما لمة الشيطان فإيحاء بالشر .

والميزان بين القوتين المتجاذبتين هو العقل ، العقل الإنساني العجيب ، الذي له حق الأختيار ، إما إلى الخير وإما إلى الشر .

فإن أطاع الملك فالخير والجنة ، وإن أطاع الشيطان فالشر والنار .

ذلك هو الإنسان العجيب .

وهذا هو موقفه .

ولقد سجل القرآن بأعلى صوته أن الإنسان العظيم ، ذا العقل الكريم ، لا أثر لتسلط الشيطان عليه « إن عبادي ليس

لك عليهم سلطان » .

وهنا ينكشف الغطاء . . . وتسقط الحجب . . . وتتجلى الحقائق .

أما الحقيقة فهي أن عملية تحضير الأرواح ، هي عملية تحضير للشياطين الذين يحملون خصائص أبيهم أبليس يحملون صفات اللعنة من حقد وغل وكذب وانحطاط وكفر وعبث وغير ذلك .

هؤلاء يحضرون ليبثوا في الناس ، ويلقوا في روعهم أن ما يقولون حقا وما هو بحق . . . إنما هو باطل ووهم وخداع وزور وكذب . . . وإن جاءوا بشيء من الصدق ، فليس مقصودا لذاته . . . وإنما ليخدعوا به الناس ، ليحسنوا الظن بهم ويركنوا إليهم ، حتى إذا اطمأنوا إلى أقوالهم بثوا سمومهم ، وأشاعوا الفساد ، ودفعوا الناس إلى الكفر دفعا وهو غاية مقاصد الشيطان . أنظر إلى القرآن يكشف لك أسرار القضية « واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم

ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » .

ما هذا ؟.

إن الله يفصل في القضية . . . إنه يقرر أن العملية نوع من الكفر بقوله « فلا تكفر » وقوله « ماله في الآخرة من خلاق » والكافر هو الذي لا نصيب له في الآخرة .

فهل تؤيد السنة الكتاب في ذلك

نعم . . يقول ﷺ « إنما جزاء الساحر ضربه بالسيف » ويقول « من وقف على عراف او صدقه فقد كفر بما نزل على محمد » .

والعرافة تشمل كل ما تنبىء به جلسات التحضير ، أوما شابه ذلك من ضروب التعريف بالماضي أو المستقبل .

وهذا كله صريح في أن جميع عمليات تحضير الجن او تسخيرها أو استعمالها وما يتفرغ عليها من عمل بها أو تصديقها أو حضورها أو اعتقادها إنما هو نوع من الكفر .

والنصوص في ذلك لا حصر لها . وهدف الإسلام من ذلك أن يصرف الناس عما لا ينفعهم وإنما يضرهم . . . ويرهقهم . ويضيع أوقاتهم ويفتن عقولهم ويفسد تفكيرهم .

وهذا هو العلاج الذي وضعه الإسلام وهو ما غاب عن علمائنا أن يقولوه للناس ليحسموا الفتنة ، ويقطعوا دابر المرجفين .

فليس بكاف أن يقولوا للناس ، هذا شيء من عمل الجن ، وإنما كان ينبغي أن يقولوا لهم ، ومن يتعاطاه أو يعتقده أو يحضره ، فقد كفر بما نزل على محمد .

إنهم لو قالوا هذا . . . لخشي الناس على دينهم من الضياع . ولانصرفوا عن هذا العبث إلى دنياهم إلى ما ينفعهم

وماذا عند الجن ليأتوننا به ؟ .

ليس عندهم الا الأكاذيب وإلا الأوهام والظنون ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً .

وكيف ينزل الإنسان من مقامه مقام التكريم الذي سخر الله له الملائكة والجان جميعا . إلى ذلك الدرك الأسفل من النار ، حيث يسمح للشيطان أن يكون له إلها ؟!

كيف . . . أيها الإنسان ؟ . . كيف وقد أسجد الله لك ملائكته أجمعين ؟

كيف ترضى أن يستذلك هذا اللعين ؟!

وإذا سألك عبادي عني
فاني قريب . . .

قال تعالى : وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون » . (البقرة : ١٨٦)

سبحانك ربي أتيت بآية تخص الدعاء وسط آيات الصوم لندرك أن هناك علاقة كبيرة بين الصوم والدعاء ، وهذه العلاقة يفسرها قوله ﷺ : « ثلاث حق على الله ألا يرد لهم دعوة : الصائم حتى يفطر ، والمظلوم حتى ينتصر ، والمسافر حتى يرجع » .

فالصائم إذاً مستجاب الدعوة لأن أسباب الاستجابة توفرت لديه . إنه ترك طعامه وشرابه وفحشه في النهار ، وقضى نهاره يسبحك ويكبرك ويعظمك فإذا جاء الليل أفطر

وقام يصلي التراويح ، ويسجد لجلالك . فهو مهيأ بما شرعت له في رمضان لأن يتصل بك ، وكيف يتصل بك إلا عن طريق في قلبه الذي هو موضع نظرك ، لقد صفا قلبه واستعد لأن تتجلى عليه برحمتك يا أرحم الراحمين ، فليكن إذا لسانه ترجمان قلبه ، وليسألك فإنك أقرب إليه من حبل الوريد .

هذه هي المناسبة بين الدعاء والصوم ولذلك جاءت آية الدعاء بين آيات الصوم .

« وإذا سألك عبادي عني » جاء في أسباب النزول أن المسلمين قالوا يا رسول الله أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله الآية .

هذا سبب نزولها ولكنها عامة شاملة للجميع .

أنظر إلى روعة الخطاب من رب العالمين إلى رسوله ﷺ

« فإني قريب » القرب حقيقة في القرب المكاني المنزه عنه تعالى ، فهو استعارة لعلمه تعالى بأفعال العباد وأقوالهم واطلاعه على سائر أحوالهم

« أجيب دعوة الداع إذا دعان »

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : يدعو الله بالمؤمن يوم القيامة حتى يوقفه بين يديه فيقول :

عبدي إني أمرتك أن تدعوني ، ووعدتك أن أستجيب لك ، فهل كنت تدعوني ؟ فيقول نعم يا رب ، فيقول أما إنك لم تدعني بدعوة إلا استجبت لك أليس دعوتني يوم كذا وكذا لغم نزل بك أن أفرج عنك ففرجت عنك ؟ فيقول نعم يا رب ، فيقول إني عجلتها لك في الدنيا ودعوتني يوم كذا وكذا لغم نزل بك أن أفرج عنك فلم تر فرجاً ، قال نعم يا رب ، فيقول إني ادخرت لك بها في الجنة كذا وكذا . ودعوتني في حاجة أقضيها لك في يوم كذا وكذا فقضيتها ؟ فيقول نعم يا رب ، فيقول إني عجلتها لك في الدنيا ، ودعوتني يوم كذا وكذا في حاجة أقضيها لك فلم تر قضاءها ؟ فيقول نعم يا رب ، فيقول إني ادخرت لك بها في الجنة كذا وكذا . قال رسول الله ﷺ فلا يدع الله دعوة دعا بها عبده المؤمن إلا بين له إما أن يكون عجل له في الدنيا وإما أن يكون ادخر له في الآخرة ، قال فيقول المؤمن في ذلك المقام ياليته لم يكن عجل له شيء من دعائه .

(الحاكم)

وكذلك بين لنا رسول الله ﷺ أسرار إجابة الدعاء

وعن أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه أن النبي ﷺ

قال : ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم ألا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته وإما أن يدخرها له في الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها قالوا إذا نكثر قال الله أكثر .

(أحمد وغيره)

يفهم من ذلك أن الله يجيب دعوة الداع إذا دعاه . وأنه سبحانه يجعل الإجابة كيف يشاء ، إما يعجلها ، وإما يؤجلها ، وإما يمنحه عوضاً عنها

« فليستجيبوا لي » أي فليستجيبوا لي فيما أمرتهم به ومانهيتهم عنه ، أي فليطيعوني ، ومتى أطاعوني كانوا ربانيين إذا دعاني أحدهم أجبته ، وإذا سأل أعطيته .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه .

(الترمذي)

فلا بد أن يصدر دعاؤك من قلب مؤمن بالله موقن أن الله يستجيب هذا الدعاء وإلا فلا إجابة ولا استجابة

وهذه اليقظة القلبية ، وهذا اليقين بالله الذي هو شرط إجابة الدعاء ، لا يتأتى لك إلا بطاعتك له ، إلا بالاستجابة لله

فيما أمر وفيما نهى .

« وليؤمنوا بي » ولا يمكنك أن تستجيب لله إلا إذا آمنت به سبحانه وداومت على هذا الايمان ، لأنك إذا لم تؤمن به لم تطع له أمراً .

والإيمان بالله هو التصديق بذاته وصفاته .

أما التصديق بالذات فهو التصديق بوجوده سبحانه .

وأما التصديق بالصفات فهو التصديق بها كلها ، بأنه سميع يسمع الدعاء ، مجيب يجيب الدعاء ، قدير يقدر على ما يشاء ، عليم يعلم إن كنت صادقاً في دعائك أم كاذبا ، رحيم ورحمته تسع كل شي . . . وهكذا فمتى كنت مؤمناً بذاته وصفاته أيقنت أنه يقدر أن يمنحك ما يشاء ، وأنه يسمع دعواتك هذه . حينئذ يصدر عنك الدعاء خالصاً إليه سبحانه .

فطريق الاستجابة هو الإيمان بالله

فما ثمرة الإيمان والاستجابة إذاً ؟

هو الرشاد .

« لعلهم يرشدون » أي لعلهم باستجابتهم لي وإيمانهم بي يصيروا من الراشدين أي من الذين علموا الخير فاتبعوه ،

وعلموا الشر فاجتنبوه . والرشاد بينه الله تعالى في قوله :
« ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون » .

فالرجل الراشد هو الرجل الذي يحب الإيمان ويكره الكفر والفسوق والعصيان .

وهذه الحاسة لا تتكون في قلب إنسان إلا بفضل الله ، لأنه هو الذي يحبب إليك الإيمان ويزينه في قلبك ، وهو الذي يكره إليك الكفر والفسوق والعصيان .

ولذلك قال (لعلهم يرشدون) أي أن الرشاد ليس مبنيا على الاستجابة والإيمان ، وإنما هو فضلى أَمُنُّ به على من أشاء من عبادي ، وإنما جعلت الطاعة والإيمان سبباً له كما أن استجابة الدعاء ليست شرطاً عليّ ، وإنما أنا الفعال لما أريد ، أجيب من أشاء ، وأرفض من أشاء ، لأن هذا هو اللائق بجلالي ، وهو اللائق بعظمتي ، ولكن ليثق كل مؤمن بي ، أنني حي كريم أستحي أن يرفع عبدي إليّ يديه وأردهما خائبتين .

الدعاء يتلخص في الآتي :

١ - العبد يدعو وهو مستجيب لله مؤمن به .

٢ ـ الله يجيب الدعاء إذا استوفى العبد شروطه وهي الطاعة والإيمان

٣ ـ الدعاء يجاب بإحدى ثلاث إما تعجيله ، وإما تأخيره إلى الآخرة ، وإما استبداله في الدنيا بخير آخر .

٤ ـ الدعاء لايجاب إذا صدر عن قلب غافل لاه .

أما إجابة دعوة المظلوم ولو كان كافراً فلأن الكافر إذا التجأ إلى الله كان في حالة التجائه هذه مستجيبا لله مؤمنا به لأن معنى التجائه إلى الله إيمانه ، ومعني مناداته له وحده دون سواه استجابته لربه.

فالكافر المظلوم في حالة دعائه لله يكون في حالة إيمان واستجابة مؤقتة ؛ وهذا هو سر استجابة دعائه .

٥ ـ لله بعد ذلك كله مطلق الحرية كما قال سبحانه « فيكشف ما تدعون إليه إن شاء » فإن شاء رفع الدعاء إليه ، وإن شاء لم يرفعه . فلا إيجاب على الله في شيء وإنما الإيجاب على العباد . فان قبل دعاء المؤمنين فانما قبله تفضلاً لا إيجاباً وإن رده فإنما يرده عدلا .

٦ ـ من علم أن له رباً يجيب الدعاء فعليه أن يطمع في رحمته ، ويكثر من الدعاء ، فهو لا شك مصيبه من رحمته ،

إما في الدنيا وإما في الآخرة وهذا هو سر استحباب الإكثار من الدعاء والنهي عن الملل منه ، كما قال ﷺ « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول دعوت فلم يستجب »

وفي الحقيقة أن الدعاء هو مخ العبادة حقاً .

ذلك أن الدعاء الصادق الخالص إنما يصدر عن قلب الشخص ، بينما العبادة تصدر عن جوارح الإنسان .

فالدعاء هو خضوع القلب لله : ـ

وهو مستجاب ما كان عن إخلاص واتجاه الى الله .

وهو ألزم ما يكون للصائم لأن الصائم في حالة استعداد طبيعي لأن يتصل بالله .

وهكذا ينقلنا القرآن بهذه الآية الكريمة من جو الصيام وأحكامه إلى جو الدعاء وأحكامه ، ليعلمنا أن الصيام من الحالات الموجبة للإجابة .

وعلى هذا ينبغي لكل صائم وصائمة أن يتجه دائماً إلى الله ، وأن يدعو دائما ، ويرجو دائما ، إنه قريب يجيب دعوة الداع إذا دعاه .

أنا بك وإليك

عن علي بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال : وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض . حنيفا ، وما أنا من المشركين ، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا من المسلمين ، اللهم أنت الملك ، لا إله إلا أنت ، انت ربي ، وأنا عبدك ، ظلمت نفسي ، واعترفت بذنبي ، فاغفر لي ذنوبي جميعا ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عني سيئها ، لا يصرف عني سيئها إلا أنت . . لبيك وسعديك ، والخير كله في يديك ، والشر ليس إليك ، أنا بك وإليك تباركت وتعاليت ، أستغفرك وأتوب إليك .

وإذا ركع قال : اللهم لك ركعت وبك آمنت ، ولك أسلمت ، خشع لك سمعي ، وبصري ، ومخي ، وعظمي ، وعصبي .

وإذا رفع قال : اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد .

وإذا سجد قال : اللهم لك سجدت وبك آمنت ، ولك أسلمت . سجد وجهي للذي خلقه ، وصوره ، وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين .

ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم : اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررْت وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به منى . . أنت المقدم ، وأنت المؤخر لا إله إلا أنت .

(مسلم)

قال النووي :

(وجهت وجهي) أي قصدت بعبادتي . (للذي فطر السموات والأرض) أي ابتدأ خلقها . (حنيفا) قال الأكثرون : معناه مائلا إلى الدين الحق وهو الإسلام ، وأصل

الحنف الميل ، ويكون في الخير والشر ، وينصرف إلى ما تقتضيه القرينة . وقيل المراد بالحنيف هنا المستقيم .

(وما أنا من المشركين) بيان للحنيف ، وإيضاح لمعناه . والمشرك يطلق على كل كافر ، من عابد وثن وصنم ويهودي ونصراني ، ومجوسي ومرتد وزنديق وغيرهم .

(إن صلاتي ونسكي) قال أهل اللغة : النسك العبادة ، وأصله من النسيكة ، وهي الفضة المذابة المصفاة من كل خلط . والنسيكة أيضاً كل ما يتقرب به إلى الله تعالى .

(ومحياي ومماتي) أي حياتي وموتي .

(لله) قال العلماء : هذه لام الإضافة ولها معنيان ، الملك والاختصاص ، وكلاهما مراد .

(رب العالمين) في معنى رب أربعة أقوال ـ حكاها الماوردي وغيره ـ المالك ، والسيد ، والمدبر ، والمربي . فإن وصف الله تعالى برب لأنه مالك أو سيد ، فهو من صفات الذات ، وإن وصف لأنه مدبر خلقه ومربيهم فهو من صفات فعله ، ومتى دخلته الألف واللام ، فقيل الرب ، اختص بالله تعالى . وإذا حذفنا جاز إطلاقه على غيره ، فيقال رب المال ، ورب الدار ونحو ذلك . والعالمون جمع عالم ،

وليس للعالم واحد من لفظه ؛ واختلف العلماء في حقيقته ، فقال المتكلمون من أصحابنا وغيرهم وجماعة من المفسرين وغيرهم : العالم كل المخلوقات وقال جماعة : هم الملائكة والجن والإنس . وزاد أبو عبيدة والفراء : الشياطين . وقيل : بنو آدم خاصة . وقال الآخرون : هو الدنيا وما فيها .

(اللهم أنت الملك) اي القادر على كل شيء ، المالك الحقيقي . لجميع المخلوقات .

(وأنا عبدك) أي معترف بأنك مالكي ومدبري وحكمك نافذ فيّ .

(ظلمت نفسي) أي اعترفت بالتقصير . قدمه على سؤال المغفرة أدبا ، كما قال آدم وحواء ، ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا ، لنكونن من الخاسرين .

(اهدني لأحسن الأخلاق) أي ارشدني لصوابها ، ووفقني للتخلص به .

(واصرف عني سيئها) أي قبيحها .

(لبيك) قال العلماء : معناه أنا مقيم على طاعتك إقامة بعد إقامة . يقال لب بالمكان لبا ، وألب إلباباً ، أي أقام به . وأصل لبيك لبين فحذفت النون للإضافة.

(وسعديك) قالوا : معناه مساعدة لأمرك بعد مساعدة ، ومتابعة لدينك بعد متابعة .

(والخير كله في يديك والشر ليس إليك) قال الخطابي وغيره: فيه الإرشاد إلى الأدب في الثناء على الله تعالى ومدحه ، بإن يضاف اليه محاسن الأمور دون مساويها ، على جهة الأدب. وأما قوله (والشر ليس إليك) فما يجب تأويله ، لأن مذهب أهل الحق ، أن كل المحدثات فعل الله تعالى وخلقه ، سواء خيرها وشرها ،وحينئذ يجب تأويله ، وفيه خمسة أقوال :

أحدها ـ معناه لا يتقرب به إليك، قاله الخليل بن أحمد ، والنضر ابن شميل، وغيرهم .

والثاني: معناه لا يضاف إليك على انفراده، لا يقال يا خالق القردة والخنازير، ويارب الشر، ونحو هذا وان كان خالق كل شيء ، ورب كل شيء ، وحينئذ يدخل الشر في العموم .

والثالث : معناه والشر لا يصعد إليك، إنما يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح .

والرابع : معناه والشر ليس شراً بالنسبة إليك ، فإنك خلقته بحكمة بالغة ، وإنما هو شر بالنسبة إلى المخلوقين .

والخامس: حكاه الخطابي ، أنه كقولك فلان إلى بني فلان ، إذا كان عداده فيهم، أوصفوه إليهم .

(أنا بك وإليك) أي التجائي وانتمائي إليك وتوفيقي بك .

(تباركت) أي استحققت الثناء ؛ وفيك ثبت الخير عندك . وقال الانباري تبارك العباد بتوحيدك .

(ملء السموات وملء الأرض) ومعناه حمدا لو كان أجساماً لملأ السموات والأرض لعظمه .

(سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه) قيل: أن المراد بالوجه جملة الذات ، كقوله تعالى «كل شيء هالك إلا وجهه».

(أنت المقدم وأنت المؤخر) معناه تقدم من شئت بطاعتك وغيرها ، وتؤخر من شئت عن ذلك كما تقتضيه حكمتك . وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء .

وفي هذا الحديث . استحباب دعاء الافتتاح بما في هذا الحديث، الا ان يكون إماماً لقوم لا يؤثرون التطويل .

وفيه استحباب الذكر في الركوع والسجود والاعتدال، والدعاء قبل السلام .

* * *

ما هذا ؟

أهو حديث أم سجل شامل كامل لأسرار الحياة وما وراء الحياة ؟ .

أم هو علم عميق عميق ، واسع واسع ، لا يستطيعه إلا رسول الله ؟

أم هو نفسه الشريفة ﷺ تتكلم وتكشف من أسرارها مع الله تبارك وتعالى ؟ .

أم هو كلام قليل حوى ما حوى من عظائم الأمور؟ تالله إنه لهذا كله وفوق هذا كله .

لقد نقل إلينا النووي رضي الله عنه شروحاً وأذواقاً ومعاني في الحديث.

قال ما عنده ، وقال ما عند غيره .

نقل كل ذلك بأمانة وإخلاص. . وهذا أقصى ما يستطيعه ويستطيعه الأجلاء من العلماء .

نعم لا يستطيعون اكثر من ذلك . لأنهم لا يدركون شأو النبوة، وليس ذلك مما يطيقون !

وكذلك الناس جميعاً ، رغم تفاوت مراتبهم في العلم، لا يفقهون عن رسول الله . إلا بمقدار ما أعطاهم الله من فهم وذوق .

فإذا اعُلم أن الناس جميعاً لوجُمع علمهم الى علم رسول الله وحده ، ما كان ذلك الا كنقرة عصفور في بحر محيط لو علم ذلك أدركنا مدى القصور في أفهامنا ، ونحن نحاول ان نفقه ما

يقول رسول الله ﷺ ، سواء في ذلك العالم والجاهل . . . إنهما يتفاوتان في مقاييسنا ، ولكنهما بالقياس الى رسول الله . . . ليسوا شيئاً يذكر . . .

لقد قرأت ما ذكروا في تفسير الحديث الشريف ، وقرأته . . . ثم قرأته . . . فما أحسست إلا أنه كظلمة تلقى في بحر من النور، اي والله هذا هو إحساسي وأنا أقرأ تفسيرهم في الحديث .

تماماً كمن يأتي بقطعة من الظلام ويلقيها إلى بحر من النور !!! .

وليس هذا بعيب في العلماء ، وإنما هو الفرق بين الثرى والثريا . . . بين العلماء والأنبياء . . .

فكيف لسيد الأنبياء . . . الذي هو سماء السماء ؟؟! .

لقد أوردت لك اقوالهم ، ولن أتكلم أنا في تفسير الحديث ، فأضيف بذلك ظلمة ، ولكني أقول لك : اذهب إلى الحديث رأساً، واطرح ما قالوا في تفسيره . واستغفر الله كثيراً . . ثم اقرأ الحديث في تؤدة . . . وكرر الكلمة مرة ومرات . . . وتوجه الى الله وأنت تقرأ . . . ثم توجه الى الله وأنت تقرأ . . .

هنالك . . . وهنالك فقط . . . تبدأ تفهم ، وتبدأ تسبح . . . في بحر النور نور النبوة . . . بجناحات من القدس . . وعلى قدر ما يريد الله لك سيكشف لك . . . ويمنحك . . .

وسوف تدرك . . . ثم سوف تدرك أشياء . . . لن تجدها في أقوالهم . . . ولن تقرأها في كتاب . . . وإنما هي فيوض يسكبها الله في قلبك . . .

ومن ذاق عرف . .

لمذا لا اعبد الله ؟

لست أدري . . . هؤلاء المجانين الحمقى . . . الذين لا يسجدون لله . . لماذا لا يعبدون الله ؟..

ماذا يكون جوابهم لو ألقيت في وجوههم هذا السؤال : لماذا لا تعبد الله ؟.

أيقولون لأننا مشغولون ؟. أيقولون لا نحب الله ؟ . أيقولون لا نؤمن بالله؟. أيقولون نحن لا نسجد لشيء لا نراه ؟.

أم ماذا يقولون ؟.

أنا أعلم كل ما سوف يقول هؤلاء الحمقى !.

أعلم أنهم سيتصايحون : وما شأنك بنا . . . نحن أحرار في أمورنا .

وأرد عليهم ملء فمي : أأحرار في الكفر بالله ، والتنكر لله ، والانصراف عن الله ؟.

كلا . . . ما هذه بحرية . . . إنما الحرية أن تكون عبداً محرراً لله . . . قلبك لله . . . عملك لله . . . فراغك لله . . . حياتك ومماتك لله . . .

تلك يا أصحابي هي الحرية . . . ويوم تحررون من العلائق والخلائق ، وتتخصصون للرب تبارك وتعالى ، فانتم احرار . . . أما إذا انكرتم الله . . . واتجهتم إلى غيره فأنتم عبيد . . . عبيد المال . . . وعباد الدنيا . .

وليس أحمق في الدنيا من العاصي لله . . . ولا أشد جنوناً من الكافر بالله .

يقول الله : «يا ايها الناس اعبدوا ربكم . . .» ويقول هؤلاء كلا . . . لا نعبدك، لا نعبدك ولا نصدقك .

عجباً !!. أهكذا تبلغ الوقاحة بالإنسان ؟!.

ماذا كان وماذا سيكون ثم من هو الآن ؟.

كان نطفة . . . من ماء مهين ألقاها ابوه إلى أمه . . . وما يدري عنها شيئاً . . .

فمن ذا الذي تلقاها وأحياها وقلبها أطواراً وأخرجها إلى تلك الدنيا مخلوقاً خصيباً .

أألله ؟. أم هناك قوة غابت عنا هي التي صنعتك ايها المغرور ؟.

إن كان هناك قوة غير الله صنعتك في رحم امك فنبئني بها . . . أم هو الكبر والغرور هما اللذان يصدانك عن العليم الخلاق ؟.

ثم ماذا سيكون هذا الإنسان المغرور ؟.

إن المصير الرهيب ينتظر النساء والرجال . . . هنالك في تلك الحفرة السوداء المظلمة المسماة بالقبر . . . سيستقر الإنسان . . . وليس بدافع عن احد ما هو فيه من بلاء أو هناء . . . كلنا سوف نساق الى القبر . . . ونتحول الى جيف منتفخة يخرج من بطونها ريح بالغ الغاية في النتن . . . ريح تعافه الكلاب والخنازير .

ودع عنك ما كان عليه الإنسان وما سيكون عليه ، ولننظر ما هو الآن في لحظته هذه . . . ماذا هو الآن ؟.

مخلوق ضعيف مسكين ، لا يطيق برداً ولا حراً ، ولا يصبر على ألم ولا مشقة . . .

لا يستطيع ان يصبر عن طعامه يوماً واحداً ، او يصبر عن قضاء الحاجة يوماً كاملاً .

مسكين إذا نام، مسكين إذا قام ، مسكين إذا احتاج، مسكين إذا استغنى .

لو تأملت الإنسان في تقلبه بين أقرانه لأخذك الضحك المتواصل.

تراه مكباً على الدنيا ، يراوغ ويمكر ويقتل ويسرق من أجل الدنيا .

فتعجب . . . لو بذل هؤلاء المجانين معشار ما يبذلون من طاقات هائلة، لو بذل كل انسان معشار مجهوده اليومي لله خالقه . . . اي تغير هائل يحدث في نفس كل إنسان ؟.

أي بركة وخير ينزلان بكل مخلوق لو أنزل الله من نفسه لحظات في كل يوم وليلة ؟.

ولكن . . . من يعقل هذا ؟.

لا أحد يحب ان يعقل هذا ! . إن الناس سكارى ، قد أسكرتهم الشهوات، وأمالت عقولهم النزوات ، يستلذون الضلالة ، ويمقتون الطاعة .

متى يعقل الناس أن لله عليهم حقاً ؟.

لا نحب أن نقول لهم ، إنهم خلقوا أصلاً ليكونوا عباد الله ، فإن الذين لا يحبون الله ، يغيظهم أن يقال لهم مثل ذلك المقال.

ولا نحب ان نقول لهم ما قاله الله «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون». فإن ذلك ثقيل على نفوسهم الخبيثة الغارقة في الظلمات .

ولكن نقول لهم أنزلوا الله من نفوسكم، ولو كما تنزلون آباءكم واولادكم وأموالكم .

كم من الساعات يشغلكم المال والولد في النهار ؟ .

ستقولون كل النهار . . . فأقول لكم : وأين الله من برنامجكم اليومي ؟ .

سيقولون لا مكان لله من حياتنا اليومية . . . . فأقول لهم : ياللجحود . . . يا للنكران !! .

تعيشون في ملكه ، وتأكلون من رزقه ، وتمرحون في أرضه، ومع هذا كله لا يكون له منكم أو من وقتكم شيء ؟ .

ولكن هذا هو منطق المعرضين.عن الله ! بل قل هو منطق الحمير . . . الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، فانحطت مداركهم، وضلت أفهامهم، وأظلمت قلوبهم ، وتركهم الله لانفسهم .

فيا أيها الذين تأبى قلوبهم السجود لله ، هلا جربتم الإقبال عليه . . . إن الله يفرح فرحاً شديداً لو اقبلتم عليه ،

وهو لا يحمل لكم ضغنا، ولا يريد لكم عذاباً، وإنما يريد فقط أن تكونوا ناساً . . . لا يريد الله ان يعنتكم أو يشق عليكم . . . ولكن يريد ليطهركم ويتوب عليكم . . .

جربوا السير إلى الله . . . ولو بتسبيحة . . . ولو بتأمل . . . ولو بركعة . . . ولو بأداء فريضة واحدة . . . ولو بصدقة يسيرة . . . ولو بخير قليل . . . جربوا وسوف يعطيكم الله عطاء غير محدود . . .

ومرة أخرى . . . أقول لهؤلاء . . . لماذا لا تعبدون الله ؟ . .

ماذا يحول بينكم وبين الله ؟.

إنها نفوسكم . . . وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . . .

أإله مع الله ؟!

آفة هذا الإنسان أنه لا يستطيع أن يؤمن بما غاب عن حسه وعينيه .

وذلك هو سر الخلاف الطويل العريض العميق حول مشكلة الألوهية وحقيقتها.

وزاد المشكلة خلافاً وتخبيطاً ان الله نفسه يتعالى عن كل ما يمكن للإنسان أن يتصوره .

فالمشكلة إذاً ذات شقين :

شقها الأول ان الإنسان لا يعتقد إلا بالمحسوس .

والشق الثاني ان الله نفسه اعلى من افكار ذلك الإنسان .

وكلما طوت البشرية جيلاً من عمرها ، لم تزدد في ذلك الأمر إلا خلافاً، ولم تزده من الله إلا بعداً !!

وكان الظن بالإنسانية أن تفرغ من تلك المشكلة ، وتنتهي من تلك الجولة ، وتفصل في القضية فصل المتيقن العارف ، إلا انها لم تفصل ، وذهبت تزيد الأمر خلافاً وتضيف إليه ظلمات .

ومن كان في شك في هذا ، فليتقهقر إلى الوراء ، يوم ان خلق الله آدم ، فلينظر هل اهتدت البشرية الى الحق من تلك القضية يوماً ما ؟.

اللهم لا . . . وذلك هو محصول الإنسان في ماضيه ! .

وسوف يبقى الإنسان هكذا حتى تنتهي قصة الإنسان ، وتفنى هذه الحياة .

فهو في ماضيه لم يفصل في القضية ، وهو في مستقبله سوف لا يفصل كذلك فيها .

فمتى إذا يفصل هذا الإنسان في أكبر قضية من قضاياه . . . متى ؟

و إن هناك أقواما غرتهم الأماني ومضوا مع أوهامهم . . يظنون أن الإنسان واصل يوماً ما إلى حقيقة الله ! .

والحق أن المشكلة كانت وسوف تكون لأن ذات الله نفسها أصل في كينونتها .

فلو أن الله شيء محدود بحدود ، أو مقيد بأبعاد ، أو يمكن إدراكه ، أو يستطاع رؤ يته ، لما اختلف البشر فيه ، ولأجمعوا عليه ، ولأصبح بديهة لا تقبل شكاولا يدخل إليها جحود .

ولكن الله غير هذا كله ، وفوق ظنون البشر ، ومخالف لكل تفكير . . . فما يكون إذاً ؟ .

لا يكون إلا أن يكون هو الله . . .

وتلك هي العظمة الإلهية صدقاً وعدلاً .

فلو أن الله يدركه البصر ، أو تلحظه العين ، أو تسمعه الأذن ،أو تلمسه اليد ، لكرهه الإنسان ، ولما استطاع أن يعظمه .

ولكن الله فوق ما ندرك ، وغير ما نتصور ، ومن هنا يأتي التنظيم والتقديس والإجلال والإكبار .

والإنسان هو المحجوب عن ربه ، وليس الله هو المحجوب عن خلقه .

فلا يستطيع شيء حجب الله ، ولكن الله هو الذي يحجب الخلق عن ذاته .

فالله ظاهر باد لخلقه ، ولكن الناس هم الذين لا يبصرون .

ولكن الإنسان ما زال يسأل : فأين إذاً الله ؟ .

ولم يسمع حتى الآن جواباً عن سؤاله ، إلا ما ألقته إليه الكتب السماوية ، على لسان رسلها .

إلا أن الإنسان المطبوع على الجدال والخصام ، ما كان ليقتنع بما تقصه عليه كتب السماء .

فذهب يماري ، ويجادل ، ويشكك ، ويبتدع ، أفكاراً من عنده عن الله ربه .

فإذا استقصيت ما أخرجه الإنسان من أفكار نحو الله ، وجدتها تدور في فكرتين اثنتين .

إما أنه ينكر أصلا وجود الله ، وهذا ما يسمى بالنكر أي الإنكار التام لفكرة وجود إله .

وإما أنه يعترف بوجود الله ، ولكنه يشرك معه شيئاً آخر ، وهو ما يسمى الشرك .

أما الذين كفروا ، فهؤلاء أغبى الناس ، لأنهم أرادوا أن يستريحوا من عناء التفكير ، فذهبوا إلى الموضوع من أساسه .

فاعلنوها ورفعوا عقائرهم بها ، وقالوا لا إله هناك ، إنما هي الطبيعة ، وإنما هو التطور وليس وراء هذا الكون من شيء ، إن هي إلا بطون تدفع ، وقبور تبلع ، ولا يهلكنا إلا الدهر .!!

وانخدعت البشرية أجيالاً وأمما بتلك الصيحة ، واستكانت أعقابها إليها ، لأنه أيسر الطرق إلى الراحة ، وأسهل الوسائل إلى الاستراحة .

فيكفي أن يزعم العُتُلُّ منهم أن لا إله هناك ، ثم ينطلق كالبهيم يفعل ما يشاء .

وأما الآخرون . . . أولئك المشركون . . . فهم يقرون بوجود الله ، إلا أنهم يتخذون معه إلهاً ، كأن الله وحده لا يكفيهم ، أو لا يستطيع أن يقوم بما يريدون ، فيجعلون معه إلهاً يعينه على اداء مهمته !! .

وهؤلاء وإن كانوا دون الكافرين في الغباء ، إلا انهم في الجهل بالله على حد سواء .

فما الذين يعتقدون بإلهين اثنين ، بخير من الذين يعتقدون أنه لا وجود للإله أصلا . من أجل ذلك أعلن الله حكمه الفاصل على رؤوس الخلائق فقال « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . . . » .

كيف يغفر الله لمن مات مشركا به ، وقد جاءه بشر عقيدة ، وهو بشركه يعلن عجز الله وحاجته إلى المعين ! .

ولأن ينكر الإنسان وجود الله ، خير من أن يحمل معه إلهاً آخر ؟ .

لأن الكافر ينكر ، ولكن المشرك يعترف ، ويجعل شيئاً يعنيه .

وكلاهما غبي وجاهل .

وفريق المشركين في هذه البشرية كثير وكثير . تجدهم دائماً في كل زمان ومكان .

فمنهم من يجعل إلهه مع الله صنماً .

ومنهم من يجعل ذلك الإله الثاني ملكا من الملائكة .

ومنهم من يجعله نبياً من الأنبياء .

ومنهم من يجعله ولياً من الأولياء .

ومنهم من يجعله هواه هو نفسه « واتخذ إلهه هواه » . .

ومنهم . . . ومنهم . . . وكلهم جاهلون ضالون .

والحق من هذا كله أنه شريك هناك لله ، لأن الشريك لا بد أن يماثل شريكه وهذا باطل ، لأن الله ليس كمثله شيء .

فالذين كفروا والذين أشركوا سواء في الجهل بالله .

لكن الذين آمنوا ، يؤمنون بالله ، منزهاً عن الشريك ، وعن المثيل ، وعن المعين ، وعن الولد ، وعن أي شيء .

هو عندهم . . . الله الذي لا إله إلا هو . . . وهو الذي ليس كمثله شيء وهو الذي تعالى عما يشركون علوا كبيراً . . .

وذلك هو الحق من الإشكال ، وهو الحل للخلاف الأبدي الذي فيه يشتجرون ؟ .

وأحل الله البيع وحرم الربا

قرأت هذا الملحق الذي أصدرته « لواء الإسلام » عن الربا فأعجبني إعجابا كبيرا .

ذلك أنه لكمة حق ، وزئير صدق ، ونذير للناس بين يدي عذاب شديد .

وقد جاء وافيا بكل شيء عن الربا ، وفصلوا فيه الأمر تفصيلا جميلا .

قال لهم : « هنالك إجماع في كتب التاريخ الاقتصادي ، ودوائر المعارف ، على أن الفائدة هي الربا . لذلك أعجب كثيراً إذا بقي من المسلمين ، من يناقش الصلة بين الفائدة والربا ،فهذه الصلة مقطوع بها حتى ممن ابتدعوا الفوائد أنفسهم » .

وهذا قول نافع ، وتعريف جامع مانع ، تلقى به في وجوه الذين مالوا وانحرفوا عن الطريق المستقيم .

ثم يقول قائلهم : « لذلك أنا فهمت الربا على أنه أوسع من الصور التي عرفت في صدر الإسلام ، وأظن كل احتكار ، وكل اعتصار للفقير ، وكل كسب ليس له أساس من الشقاء ، بمعنى شقاء البدن ، أراه ربا ، إذ يجب أن يكون للكسب ما يبرره من التعب والإجهاد » .

قلت : هذا الذي يقول الأستاذ عيسى عبده ، فيه علم ، وفيه عاطفة شطحت عن العلم .

أما الحق من قوله فهو أن كل احتكار ، وكل اعتصار للفقير ربا . ذلك حق لأن الرسول ﷺ حرم الاحتكار .

وكذلك اعتصار الفقراء هو كسب خبيث ، لأنه يأكل دماء الضعفاء ، والمغلوبين على أمرهم .

وإن كان هذا اللون الأخير ، لا يسمى ربا ، وإنما الأولى أن يسمى كسباً خبيثاً حراماً ، تمييزاً عن الربا المتعارف عليه .

وأما القول الذي فيه عاطفة ، شطحت به عن العلم ، فقوله وكل كسب ليس له أساس من الشقاء أراه ربا .

هذا خطأ محض يا أستاذ عيسى ، لأن الرزق ليس موكولا

بالشقاء ، والله يرزق من يشاء بغير حساب ، وهذا المعلوم بالضرورة ، وهناك آلاف تكسب الكثير بدون جهد ، وهناك آلاف أخرى تكسب أقل من القليل بشق الأنفس .

ولا يتصور أن نقول أن هؤلاء الذين يكسبون من غير جهود وشقاء ، إنما يأكلون الربا .

ذلك أن الله يرزق لحكمة يعلمها هو لا نعلمها نحن ، وتقديره سبحانه فوق تقديراتنا المعهودة .

وإلا لجاز أن نقول أن الرجل الذيَ يرث ثروة طائلة عن أبيه رجل يأكل الربا ؟ !

وهذا خطأ فاحش ، ومعلوم أن الميراث شيء أحله الله ، مهما كثر أو قل « للرجال نصيب مما أكتسبوا ، وللنساء نصيب مما أكتسبن ، مما قل منه أو كثر ، نصيباً مفروضاً » .

وأحب أن يدلني الأستاذ عيسى ما هو المجهود ، وما هي المشقة التي بذلها الوارث ؟ .

وهل هناك في الميراث مهما كثر ربا ؟

تلك هي شطحة العاطفة ، وإن كانت عاطفة نبيلة ، وهذ ما يغفرها للأستاذ عيسى .

وكأني المح في كلامه شيئا يريد أن يقوله ، هو يريد أن يقول ذلك المعنى الذي أشار إليه النبي ﷺ في قوله : « إن أطيب ما

أكل ابن آدم من عمل يده » أو كما قال :

إذا كان هذا هو ما يهدف إليه ، واعتقد أن هذا ما كان يجول بخاطره . فاللهم نعم .

وفرق كبير بين أطيب ما أكل وبين الربا نفسه .

إلا أن الأستاذ عيسى عبده ، رغم هذه الشطحة ، يبدو عظيماً منادياً بالحق في أعظم صورة حين يقول : « الربا حرم في الإنجيل . . . حتى جاءت الثورة الصناعية في أواخر القرن الثامن عشر ، وعدلت الجامعات والأوساط العلمية عن تحريم الربا ، ومالت إلى إباحته مع تخفيفه . . . وقالت يجب أن نغمض الطرف عن فكرة تحريم الربا . أولا لأن مصدرها وهو الكنيسة لا يستحق الاحترام ، وثانيا لأننا محتاجون لها ، لكي نسترد من البلاد المختلفة رأس مالنا مضاعفاً ، وزاد على ذلك أيضاً أن الفائدة والاقراض بالربا الفاحش ، كان وسيلة للاحتلال . . . وقالوا : أقرضوا ، وزيدوا في الفائدة ، ولا تبالوا هذه الكنيسة ، لأن هذه هي وسيلتنا لأخضاع المسلمين ، ولأخذ خيراتهم ، وهكذا اقرضوا ، وبالفائدة المركبة . فإذا عجز الوالي عن أن يدفع زاد من الضرائب ، فإذا فزع الناس زاد من الجندرمة فإذا أنت الميزانية اقرضوه من جديد ، حتى غرقت بلاد المسلمين في هذه القروض » .

روعة ، ووصول إلى الحق لا يستطيعه إلا من أراد الله به خيراً .

وكأني به يروي قصة احتلال مصر بالذات ، وكيف كان عن طريق تلك الديون الربوية التي استدانها ذلك المفتون الاحمق ، اسماعيل بن إبراهيم ، حين أخذ قليلا ، وحاسبوه على أضعافها ، وكان التدخل الإداري في شئون مصر ، ثم الاحتلال الصريح مما هو معلوم من تاريخنا .

ولقد زاد الأمر سوءاً أن ذلك الخديوي ، كان يبعزق تلك الأموال في أمور لا خير فيها ، ولا حاجة بالبلاد إليها .

وكان هذا من سوءات الربا الكبرى ، أن ضاع شرفنا ، وضاعت عزتنا حيناً من الدهر ، بسبب التعامل بالربا .

ولقد خدعنا الاستعمار وأذنا به ، حين أفهمونا أنه لا اقتصاد إلا بالربا ، ولا حياة إلا بالربا . وقالوا هذه البنوك ، وهذه البورصات ، وهذه الشركات ، وهذا هو العالم كله يتعامل بالفائدة ، أأنتم تشذون وتخرجون عن أسلوب استقر وأصبح عرفا للدنيا كلها ؟ .

كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا .

إنهم يغالطون . . . فالعالم الإسلامي مكث ثلاثة عشر قرناً ، من أول عهده بالإسلام حتى وقع في قبضة الاستعمار ،

وهو لا يتعامل بالربا ، ولا يحتكم إلاالى نظام الشريعة .

فما سمعنا أن الحياة توقفت ، أو أن الاقتصاد أصابه الشلل أو الجمود .

بل على العكس من هذا كانت الحياة كريمة ، فيها إنسانية ، وفيها رحمة ، وفيها توجه إلى الله .

أما الآن وقد حل الربا في كل شيء ، فقد ارتفعت الرحمة من كل شيء ، وآذن الله الناس بحرب ، ويا لها من حرب .

أما أن يأتي ذل العالم الاستعماري المسعور ، النظام اليهودي المدمر ، نظام الربا ويفرضه علينا فرضاً ، بحكم سلطانه واستضعافه للمسلمين ، فذلك ما ينبغي أن نلفظه لفظاً بعيداً .

فإن قيل فكيف السبيل إلى ذلك ؟ قلنا اسمعوا إلى ما يقول الأستاذ عيسى : « الفكرة تتلخص في تأميم المصارف ، لأن فهمي لتحريم الربا ، يتلخص في أن للنقود وظيفة لا ينبغي لغير الدولة . . الصيرفة وخلق النقود وظيفة لا تجوز إلا للدولة ، كالأمن والقضاء والمحافظة على الحدود تماما ، فإذا قلنا بأن المصارف وحدها ـ وهذه هي العبقرية التي أراها كافية في أحكام قواعد الاقتصاد في الاسلام ـ يجب أن تكون في يد الدولة فإن

معنى ذلك أن يكون بيدها بيت المال ، ودار الصك ، والصيرفة التي تخلق النقود الائتمانية . . . فإذا آمنا بأن البنوك يجب أن تكون جهازاً حكوميا ، فإنه ينبني على ذلك مباشرة ، أن الدولة تعطي الائتمان بغير فائدة . . وهنا تثور أسئلة : كيف تغطي مصاريفها ؟ . . فتستطيع الدولة أن تجري المصاريف وتنفق عليها ، كما تنفق على غيرها من المرافق ، من الضرائب وحدها . فالفكرة في إلغاء الفائدة هي رفع السدود عن الدم الذي يجري في الشرايين ، وما يعود على البلد من دورة النقد وتنشيط الحركة الاقتصادية في صورة مكرر استعمال الدخل ، وفي صورة ربح يعود على رأس المال ، وأجر يعود على صاحب العمل ، وضريبة تعود على الدولة ، يفوق أضعاف الفائدة . . وأفهم من تحريم الربا في كتاب الله ، أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يكون للدولة الإسلامية القبضة على المال في صورته الميسرة » .

ذلك شيء مما قاله الرجل في سياق الربا ، وهو قول جميل ، وحل رائع جليل ، يضعه صاحبنا تحت أعين من أراد الحق من هذا الأمر .

وماذا علينا لو أخذنا بقوله ، وأممنا البنوك جميعا ، وقامت

البنوك بأعمالها ، للخدمة العامة ، لا للاستغلال ، وحملت الخزانة العامة مصاريفها ؟

هل في هذا من عجب ؟

اللهم لا ، ولقد جربنا تأميم بعضها ، فما ازدادت إلا نشاطا ، وما ازدادت إلا ثباتا .

فلم لا نقدم . . . ويد الله مع أيدينا في هذا الأمر الذي يرضيه ، ويعفينا من حرب الله ورسوله التي لا قبل لنا بها ؟

وما أروع ما اختتم به الأستاذ محمد أبو زهرة ذلك الموضوع حيث قال : « إن النظام الاقتصادي القائم نظام فاسد لا ريب في ذلك ، والفساد لا يبرر الفساد ، والفساد لا يوجد ضرورة . . أما إن زال الربا ، فكل رءوس الأموال تعمل ، ولا يوجد أي مبرر نفسي أو اجتماعي أو اقتصادي لقيام الربا . . ولعل مصر تعلم هذا أكثر من غيرها فإن الطريق لاستعمارها كان الربا . . . فعلينا أن نعلم أن الاستعمار قد زال وبقيت آثارة اليهودية . فإذا كنا حاربنا الاستعمار وأخرجنا رجاله ، فحق علينا أن نحارب مرة أخرى آثاره ، بإخراج اقتصادنا من رق الاستعمار المالي ، كما حررنا حكومتنا من رق الاستعمار السياسي .

أهل الظلمة وأهل النور

كلما قلبت تفكيري في أمر هذه الحياة ، ازددت يقيناً أن الأمـر أعمق من تلك السخافـات ، التي يحشو النـاس بهـا عقولهم .

نعم . . . هناك وراء المظاهر جواهـر ، ووراء الأفعال أسبـاب ، ووراء الأسبـاب أسـرار ، ووراء الأسـرار سـر واحد . . .

ذلك السر هو القدر !

ولست أعني بالقدر ما يشغل الناس به نفوسهم . . . تلك المسألة المملة التي تتلخص في ذلك السؤال البارد : هل الإنسان مسير أم مخير ؟

كلا . . . لست أعني بالقـدر ، ذلك السؤال ، وإنمـا أعني بالقدر سر هذه الحيـاة المكنون عنـد خالق الحيـاة ،

والذي لم يطلع عليه أحد .

سر هذه الحياة المكنون . . . ما هو ؟ ما وراءه ؟

ولست اجهل ان هناك قوما سوف يقولون ، وما شأنك أنت بسر الحياة المكنون ؟

وهؤلاء اقول لهم : ليس لأحد أن يبحث سر الحياة ، لأن الله وحده هو الذي يعلم السر واخفى .

وإنما الذي أحب أن اتكلم فيه هو شيء لاحظته في الحياة نفسها .

ذلك الشيء هو القدر المحلق بجناحيه فوق رأس كل إنسان .

وأعني به قوله تعلى : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ﴾ .

نعم . . . ما من نفس تتقلب في هذه الحياة إلا وهي إرادة سابقة قبل أن تكون .

كل إنسان ألزمه حظه المكتوب عليه في عنقه !!

هل هذه حقيقة ؟

نعم . . . بل هي أم الحقائق .

وهي مفتاح أسرار الحياة ، والشيء الذي يكشف عن خباياها كلها .

تنظر إلى الرجل فتجده يتحرك في الحياة تحرك الحيوان في الغاب .

فتسأل نفسك : ألا يعقل هذا الرجل ما يصنع ؟

والحقيقة أنه يعقل جيداً ما يصنع ، ولكنه لايستطيع أن يصنع إلا ما يصنع !

وآخرين يتخصصون في اقتراف الآثام والجرائم ، والناس تسأل : ما بال هؤلاء لا يقلعون عن آثامهم ؟

والحقيقة أن هؤلاء لا يتسطيعون !

ماذا أحب أن أقول ؟

أحب أن أقول : هو القدر . . .

القدر الذي يسري في الناس من أولهم إلى آخرهم ، فيدفع هذا إلى الشر ويدفع ذلك إلى الخير .

والناس حيارى سكارى ، فيما يرون على مسرح هذه الحياة ! !

ولقد كان من رحمة الله العظمى بالناس أن غيب عنهم مقاديرهم ، ومقادير كل شيء .

فاستقامت الحياة على أمر الله ، كما أراد الله ، والخلائق لا تدري من الأمر شيئاً ! !

ذلك هو القدر . . . وإنها لحقيقة الحقائق .

فمن المقادير التي غيبها الله عن الإنسان ، الزمان والمكان والكيفية التي سيموت عليها .

وتجري العملية بأيدي ملائكة كتب عليهم أن يقوموا بها ولا يستطيعون منها فكاكا .

ويأتي ملائكة الموت إلى الناس ، ويقبضون أرواحهم ، ويفعلون بها ما أمرهم الله أن يفعلوا .

كل ذلك يجري بأيدي خلائق موجودة فعلا ، ولكن الإنسان الذي هو موضع العملية ، لا يرى من ذلك شيئاً ! !

وتلك هي الرحمة في إجراء المقادير !

وهذا الأمر جدير بالتفكير العميق .

هذا أنا أتقلب مخلوقا حياً ، حتى إذا كانت ساعتي المحتومة ، جاءني ملائكة الموت ، ونزعوا روحي من جسدي .

إلا أنني لا أرى . . . وتلك من رحمة الله !

وإليك ما هو أوضح من هذا ، وما هو أعجب .

أنظر إلى الأنعام تساق إلى المذبح لتذبح وهي مسرورة فرحة ! !

وتجري عملية الذبح ، وتخترط أعناقها ، وهي لا ترى ولا تدري !!

فكما أن الإنسان لا يرى ملك الموت ، ولا يعقل ما يفعله ذلك الملك به ، وهو يقبض روحه .

فكذلك الحيوان لا يعقل عملية الذبح والإنسان يجريها عليه .

لقد غاب عن الإنسان أفعال الملائكة لأنه لا يراها . وغابت عن الحيوان عملية الذبح لأنه لا يعقلها .

وذلك كله من عجيب أمر الله الساري في خلائقه !

فالإنسان محجوب عما تدركه حواسه ، والحيوان محجوب عما لا يدركه عقله .

وهذا حجاب ، وذلك حجاب ، وإن اختلفت الأساليب ! .

وليس هذا وحده هو الحجاب كله ، بل هناك ما لا يحصى من الحجب ، يحجب بها الله ما شاء من خلائقه عما شاء من خلائقه !! .

فالملائكة محجوبون عن البشر .

والبشر محجوبون عن القدر .

والخلائق كلها محجوبة عن الله ، والله ليس محجوباً عن أحد !! .

وأعجب من هذا . . . الإنسان نفسه محجوب عن نفسه !! .

وأعجب العجب من حجب القدر ، حجب المصير عن الإنسان .

فلا أحد يدري مصيره وما سيؤول إليه ! .

سواء في هذا هذه الدنيا ، وتلك الآخرة .

أنظر إلى قوله تعالى : ﴿ وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ﴾ .

والآية أعمق مما يتصور الناس . . . فإن الناس يظنون لأول وهلة أن معناها أن كل إنسان لا يعلم ماذا يحدث له مستقبلا في هذه الحياة الدنيا . . .

كلا . . . ليس هذا هو المعنى . . . إن كلمة غداً تعني المستقبل عموماً ، الدنيا والآخرة ، وما وراء الآخرة ، كل ما هو آت فهو غد ، فلا أحد يدري ماذا يكسب في دنياه أو في آخرته .

وبالتالي لا تدري نفس أهي من أهل الجنة أم من أهل النار .

كـل النـاس تسعى وتعمـل ﴿ قـل كـل يعمـل على شـاكلته . . . ﴾ الجميـع يعملون . . . ولكن الله وحده هـو الذي يعلم أهل الجنة من أهل النار .

ومن هنا يحلق الخوف بجناحيه فوق رأس الإنسان .

مهما آمنت ، ومهما عملت ، فأنا لا أدري مصيري .

إنها المقادير تجري في الخـلائق ، قهراً لا اختيـاراً ، وقسراً لا اضطرارا .

وعلى الذين لا يتعمقون الأمور ، أن يضعوا أصابعهم في آذانهم حذر هذه الحقيقة فإنها أقوى من أحلامهم ، وأعلى من أوهامهم .

وإنـا لقسمة سـابقـة ، فـريق في الجنـة ، وفـريق في السعير .

وإن المقادير لتأخذ بأنوف أصحابها ، كما يأخـذ المرء بعنق دابته .

وإن الناس أحد فـريقين . . . أهل الظلمة . . . وأهل النور .

أهل النار المظلمة ، وأهـل الجنة المنيـرة . . . ولكن أحداً لا يدري مصيره ، أإلى هؤلاء ، أم إلى هؤلاء !! .

صلاة العصافير

كان الوقت فجراً ، أو بعد صلاة الفجر ، وعلى وجه التحديد ، عندما خرجت وصاحبي ، إلى شاطىء النيل نملأ صدورنا من نسمات الفجر الرطيب .

وبدأت الأنوار تملأ الآفاق ، وانتشرت الطيور من كل صنف ، على الأشجار .

كل هذا شيء مألوف ، لا يثير انتباها ، ولا يلفت نظراً .

إلا أن الشيء الذي أدهشني أنني لاحظت أن الأمر يجري على نظام عجيب .

تسمح عصفورا واحداً يزقزق وحده ، ثم تنطلق سائر عصافير الشجرة تردد من ورائه .

ثم تستمر المجموعة كلها في نشيد متواصل ، هو غاية

في الإبداع والجمال .

وسمعت الأشجار كلها وقد تحولت إلى نشيد واحد مقدس ، لا تدري أوله من آخره ، كل يزقزق ويشقشق ، فرحا مسروراً .

ولم يقف الأمر عند العصافير ، ولكنه امتد إلى اليمام ، وانطلقت أصواتها الجميلة الوداعة ، تعطر الكون بألحانها الصافية .

حتى الغربان ، والحدأة ، كلها جعلت تطلق أصواتها ، التي كتب الله عليها أن تكون .

ومن هنا . . . ومن هناك ، تحولت الأشجار كلها إلى نشيد واحد مقدس يشترك في أدائه آلاف من الطيور ، مختلفاً ألوانها .

ورن في أذني على الفور قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يسبح له ما في السموات والأرض ، والطير صافات ، كل قد علم صلاته وتسبيحه ، والله عليم بما تفعلون ؟﴾

فأدركت على الفور أن الأمر أمر صلاة مفروضة ، على تلك الطيور ، وليس الأمر أمر غناء كما يظن أكثر الناس .

إن الناس يظنون أن هذه الطيور تغني ، وهم في ذلك مخطئون خطأ كبيراً .

إن الله قد فرض عليها صلاتها ، وعلمها كيف تؤديها ، ومتى تؤديها .

ولقد علمني موكب الطيور في الصباح ، أن مصدر الوحي واحد ، إليها وإلى الإنسان !

وآية ذلك أن الله أمر الإنسان في القرآن فقال : ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾ .

أمر الله الناس أن يسبحوه قبل طلوع الشمس مرة ، ومرة أخرى قبل الغروب .

وتجد أن الله قد أمر الطيور بنفس الأمر ، ونفس النظام !

فتجد الطيور كلها قبل طلوع الشمس تسبح الله في أفواج وأمواج ، متتابعة من أصواتها الجميلة .

حتى إذا مالت الشمس للمغيب ، آبت الطيور كلها إلى أعشاشها وأغصانها ، وانطلقت تؤدي كلها صلاتها . . . نفس الأسلوب الذي كان منها في الصباح . . . تعود لتأديته في المساء . . . ولكن قبل الغروب .

ما هذا ؟ وأي شيء يستنبط من هذا ؟

إن الذي أنزل القرآن ، أمر الناس بتسبيحه ، قبل طلوع الشمس ، وقبل الغروب والذي خلق الطيور ، أمرها كذلك بتسبيحه قبل الشروق ، وقبل الغروب !!

نظام مطلوب من الناس ، ومطلوب من الأطيار .

فالأدلة المستنبطة من النظامين ، أنهما صادران من شيء واحد ، وأن ذلك الشيء يريد لمخلوقاته كلها نظاما موحدا ، وأنه يحب هذين الوقتين بالذات ليسبح فيهما ويحمد فيهما .

ذلك هو الله . . . أوحى إلى الطيور أن تسبحه في الوقتين المحبوبين عنده . . . وهو سبحانه أمر الإنسان أن يسبحه في نفس الوقتين !

وإني لأستدل على أن القرآن من عند الله ، وأنه كلام الله ، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، من هذا النظام الذي تعيش عليه الطيور ، منذ خلقها الله .

فما من طير يطير بجناحيه ، في الأرض ولا في السماء ، إلا يسبح الله ربه قبل طلوع الشمس وقبل الغروب .

ولو تصورنا أن أوقات الغروب وأوقات الشروق ، في الكوكب الأرضي مختلفة ، تتعاقب وراء بعضها البعض . . . أدركنا أن وقت ما قبل الشروق ، وما قبل الغروب ، متتابع في الآفاق ، وأن نشيد الطيور متواصل متتابع في هذه الدنيا .

ولو أمكن أن نتصور ملايين الطيور التي تعيش على الكرة الأرضية ، وأنها تنهض من نومها تباعا ، حسب أوقات

الشــروق والغـروب في بــلادهــا . . . ثم تنــطلق تسبــح وتصلي . . لأمكن لنا أن ندرك أي جمال وضعه الله لها ، في صلاتها وتسبيحها .

ولو التفتنا بقلوب واعية إلى توجيه الله للانسان ، عندما يأمره بتسبيحه قبل الشروق وقبل الغروب ، لأدركنا أن الله يريد من الإنسان أن يندمج مع سائر المخلوقات ، وينتظم معها في موكب واحد .

ولأدركنـا على الفور أن الله يسبحـه كـل شيء طـوعـا وكرها .

ولو مددنا تفكيرنا بعيداً . . عميقاً . . وتصورنا أن الأمر ليس أمر الطيور وحدها ، وإنما كل شيء ، من الذرة أو ما هو دونهـا ، إلى أكبـر شيء في الكـون أو مـا هـو وراء ذلـك الأكبر . . . كل أولئك يسبح الله . . . شاء أو لم يشأ .

وهنا يرن في آذاننا قول السبوح القدوس : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ فندرك على الفور أن الكون كله يردد نشيداً واحداً الله . . . الله . . . الله . . .

لو تصورنا هذا . . . أدركنا مدى تفـاهة الإنسـان حين

يتأبى على ربه ، ويتعالى على بارئه ، ويأنف أن يصلي لخالقه .

من أنت أيها الإنسان المعرض ، بالنسبة إلى كون بأكمله ، يسبح الله خالقه ؟

ولنفترض أن أصوات الناس جميعا ، حذفت من نشيد الكون الأقدس ، فهل هذا ينقصها شيئا من جمالها وكمالها ؟

كلا . . وإنما هي الرحمة . . . يريد الله أن تشملنا رحمة ذلك النشيد ، وأن يغمرنا جمال ذلك الدعاء العام .

أما . . . سبحانه وتعالى . . . فلا تضره معصية . . . ولا تنفعه طاعة ﴿ يا عبادي . . لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم . . . ورطبكم ويابسكم . . . اجتمعوا على قلب أتقى رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا . . . ﴾ .

إن الألوهية في عليائها مستغنية بذاتها عما سواها .

وإنما افترضت علينا ، وعلى سائر المخلوقات ، تسبيحها ، لأن في ذلك صلاحنا ، وصلاح سائر الكائنات .

فالذين يعرضون إنما يهلكون أنفسهم . . والله مع هذا . . ما زال يدعوهم إليه ، ليرفع من خستهم ، ويصلح من شأنهم ! !

ذلك هو استدلالي على أن القرآن من عند الله ، لأنه لا أحد يستطيع أن يدرك ذلك النظام الموحد للكائنات ، إلا الله سبحانه .

ذلك أن العلم البشري علم ناقص ، لا يستطيع أن يدرك الأمور في شمولها وعمومها ويربطها ربطا عاما محكما .

لكن الله . . الـذي يرى الكـون كله في وقت واحد ، الذي يعلم السر في السموات والأرض ، الذي وضع السنن والقوانين التي تجري عليها الخلائق ما يعلم علما شاملا كاملا الأمور كلها .

هو يعلم أنه حين خلق الطيور ، أوحى فيها أمرها ، أن تسبحه قبل طلوع الشمس وقبل الغروب .

ويعلم أنه حين خلق الإنسان ، جعله مستعداً مؤ هلا لأن يشارك في هذا النشيد ، وفوق هذا وذاك هو سبحانه يعلم من نفسه أنه يحب هذين الوقتين ليسبح فيهما .

فأنزل في كتابه الذي أنزله على الإنسان ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾ .

وهذا هو وجه الاستدلال على أن القرآن تنزيل من رب العالمين ، لأن أوامر القرآن تطابق نظام الطيور ، وهذا يستلزم

علماً شاملا محيطاً بنظام الكون العام .

ما أعظم العصافير !

ما أعظمهـا وهي منقادة لأمـر ربها ، تمـلأ الآفاق بأناشيدها ! .

وما أعظمها . . . قبل طلوع الشمس ، وقبل الغروب ! .

ومـا أعظم أولئـك الـذين هـداهم الله ، فشـاركـوا في المـوكب الأقـدس . . . وسبحـوا ربهم معهـا قبـل طلوع الشمس ، وقبل الغروب !!

جاجارين !! .

وأخيراً . . . حقق الإنسان أكبر نصر في تاريخه منذ خلق الله آدم وحواء . . . واستطاع « جاجارين » أن يجري في الفضاء ، جريان السمك في الماء ، في سهولة ، وفي غير عناء .

فما هي العبرة من ذلك العمل المعجز العظيم ؟

العبرة أن الإنسان إذا ارتفع عن شهواته ، وأطلق عقله يعمل ويبدع ، جاء بالعجب العجاب .

وأن العقل الإنساني قوة خارقة ، تستطيع أن تسيطر على كل شيء ، وتسخره للإنسان .

وأن الذين لا يفهمون دينهم ، يقولون قولا منكرا وزورا . . . حين يزعمون أن النصوص تمنع من غزو

القضاء ، وغزو القمر ، وغزو الأجرام .

هم يسجلون على أنفسه جهلا بدينهم ، وجهلا بدنياهم وأنهم شر على أنفسهم ، وشر على الناس .

يقول هؤلاء الجاهلون إن الله يقول : ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوالا تنفذون إلا بسلطان . يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران ﴾ .

وهم يستدلون من تلك الآيات ، على أن غزو الفضاء ممتنع ، وأن هناك حوائل وموانع !!

والآيات من زعمهم براء ، ومن جهلهم في غناء .

ونسي هؤلاء ، وهؤلاء أن كتاب الله يعلن في قوة أن ما في السموات وما الأرض مسخر للإنسان ، وأن آياته تعلن في أكثر من موضع تلك الحقيقة .

ونسي هؤلاء المضلون ، أن كتاب الله ينادي بالحجر على الشهوات ، ليخلي الطريق للعقليات ، وينادي بتحطيم الأهواء ، ليعمل العقل في صفاء .

نسوا كل هذا ، وراحوا يدعون على الناس تلك السخافات !

ويا ويل المسلمين من أشباه العلماء ، الذين فرضوا عليهم فرضاً ، فضلوا وأضلوا .

إني لأحيي جاجارين ، وأحيي تلك الأمة التي وقفت من ورائه تعمل وتعد حتى كانت تلك التجربة المذهلة .

إن الإسلام مظلوم بين أهله ، وهم يحملون ما ليس منه ويلصقون به ما يتنافر مع طبيعته .

الإسلام مظلوم بين تلك الأمم المتأخرة المتنافرة المظلمة . .

لقد طمسوه وطمسوا حقائقه ، وعاشوا على أوهام من ظلم أنفسهم ، زعموا أنها من الإسلام .

لقد جاء الإسلام ليحطم الأوثان ، ويكسر الأصنام ، ويقول للناس اعبدوا الله وحده ، واتجهوا لله رأسا ، ولكن كثيرا من المسلمين عادوا إلى الوسائط ، وتعلقوا بالشفاعات ، ورفضوا التوحيد الصحيح .

وجاء الإسلام ليحرر العقل من الأوهام ، ويدعو الناس للتفكير الحر الكريم . . ولكن المسلمين ناموا واستناموا ، وعاشوا عالة على من سواهم ، يتسولون فتات عملهم ويتبجحون بتراث غيرهم . .

ولو كان هنـاك إسلام صحيـح بين المسلمين ، الألف سنة الماضية ، لكانت تلك الكشوفات صادرة عن عقلنا .

ولكن المسلمين ناموا ، وطـال رقادهم ، ومـا كان الله ليعطل الحياة البشرية ، حتى يستيقظ المسلمـون . . . كلا يستبدل قوما غيرنا ، أيا كان نوعهم . . . ليدفعوا عجلة الحياة نحو التطور والتقدم .

وهذا ما كان وما سوف يكون . . . ليس بين الله وبين أحد نسب ولا صهـر . . . الكـل عبـاد الله ، ورحمتـه مبـذولـة للجميع . . . والسماء والأرض مسخرة للجميع ، فمن جاهد وحـاول . . . وصل . . . ومن نـام وتكاسـل لم يصـل إلى شيء .

وترى المسلمين من جهلهم يتجادلـون في تفاهـات ، ويتحـزبـون ويتفـرقـون شيعـا وأضـرابـا ، من أجـل تلك التفاهات .

فما زال من المسلمين من يبحث هل الحق كان مع علي أو مع معاوية !!

أي والله كأن الكون كله سينهدم إن لم تعرف الجواب على ذلك السؤال !

وإنك لتسأل نفسك : وما جدوى هذا الأمر ؟

ولكن قوما تافهين فارغين ، لا يجدون ما يشغلهم ما زالوا حائرين في تلك المسألة ! !

وما زال من المسلمين من يجادل : هل تجوز الصلاة والرأس عارية أم لا تجوز ؟ !

وهم يختلفون ويختلفون . . . ويتباغضون . . . من أجل تلك السخافات ! !

وما زال من المسلمين من يتجادل : هل يجوز التوسل بالموتى من الأولياء أو لا يجوز ؟ !

وينشق الناس فرقا في ذلك الأمر . . . ويشمئز الذين لا يؤمنون بالتوسل من الذين لا يتوسلون ويعتقدون أنهم مشركون !

ويشمئز كذلك الذين يؤمنون بالتوسل من الذين يسخرون به ، ويعتبرونهم قوما ضالين !

إي والله . . . تجد هذا كله في المسلمين . . . وأكثر من هذا . . . وما خفي أعظم . . !

وما كان ذلك كذلك ، إلا حين غفلت الأمة عن حقيقة دينها ، وانصرفت عن اللباب إلى المظاهر .

فما كان الصدر الأول من الإسلام ليعرف مثل هذه

السخافات ، ليغرق نفسه في تلك الخرافات .

كانوا قوما يؤمنون بالله بساطة . . . ليس كمثله شيء . . . وكفى . . . وحسبهم هذا . . .

يتذوقون الله بقلوبهم . . . وللقلوب إحساس وفهم لا يحتاج إلى جدال ، أو نقاش .

وكانوا يؤمنون برسول الله عن حب ، لا عن قراءة ودراسة ونقاش .

وكان ذلك الحب يدفعهم إلى إتباع أمره ، واجتناب نهيه . . . وكان هذا يبعدهم عن البحث والمجادلة . . . وعن آفات الفارغين .

وكان من ثمار الايمان بالله في بساطة ، والايمان برسوله في براءة ، أن أينعت قلوبهم وآتت أكلها ، فتحا لأقطار الأرض ، وغزوا للعالم كله ، نشرا لكلمة لا إله إلا الله .

كانوا كذلك . . . ثم جاء من بعدهم قوم فارغون ، حولوا الدين إلى كلام والله إلى أوهام ، والرسول إلى أبحاث .

والإسلام بريء مما يقولون ومما يفعلون .

يموت الرجل من المسلمين ، فيكون موته كارثة مالية محققة على أهله .

لمــاذا ؟ لأن النـاس يفهمـون أنـه لا بـد من السـرادق الفخم ، والمقرىء المشهور والإخراج المتطور .

وما كان الموت أبدا على مثل هذه الصورة يوم كان هناك إسلام .

فما سمعنا أن رسول الله ﷺ ، أقيم له السرادقات ، أو قرأ له المقرئون ، أو سهر له الساهرون .

ولكن المـرتزقـة يصنعون للنـاس فلسفـات ، ضمـانـا لأرزاقهم ، وإدرارا لمعاشهم !

تلك الخـرافـات التي عششت وبـاضت وأفـرخت في رءوس المسلمين . . . متى تـزول ومتى تنتهي . . . ومتى يقيض الله للمسلمين من يـردهـم إلى ديـنهـم الصـحيـح النظيف ؟!

متى يفكر المسلمون تفكير أسلافهم ، قلوبهم مع الله ، وعقولهم تسبح في ملكـوت السموات والأرض لغـزوها في سبيل الله ؟

لقد فتح المسلمون الأرض كلها في أربعين سنة ، وهي سرعة مذهلة لم يشهد لها التاريخ مثيلا ولن يشهد .

ذلك أن الاسلام دين العقـل الحر ، حـرر عقولهم من الأوهام ، فاطلقت تبدد ظلام الأرض ، وتنشر نور الحق .

ولـو لم ينتكس المسلمون ، ويـرجعون القهقـرى إلى ظلمات الجهل والشرك ، لشهد العالم من إنتاجهم العجب العجاب .

ولكنهم أعـرضوا فـأعرض الله عنهم ، واستبـدل قومـا غيرهم ، فقامت تلك الفتوحات العلمية الرائعة على أيدي قوم لا يؤمنون بالله ، قوم لا يعترفون بوجود إله أصلا .

فكان هذا من الله ردا على المؤمنين الكسالى النائمين ، الذين تركوا العلم وذهبوا يبحثون في أوهام .

ولن يعود إلى المسلمين عزهم إلا إذا إعتزوا بعقولهم ، ولن تعود اليهم عقولهم إلا إذا حرروها من كل شيء نهاهم الله عنه .

وإذا كان الروس قـد وصلوا إلى تلك العجائب ، فـإن المسلمين يستطيعون أن يصلوا إلى ما هو أعجب .

فما هو الأعجب هذا !

الأعجب أنهم سيطلقون رجلا إلى الفضاء ، كما أطلق الروس رجلا إلى الفضاء .

إلا أن الرجل المسلم حين يطلقونه إلى الفضاء ، سينطلق مؤمنا بالله ، متوكلا على الله ، عارفا بالكون .

وهو هنا يفترق عن أخيه الروسي .

إن جاجارين ينظر إلى الأمور على أنها علم وإنتصار على الفضاء .

ولكن المسلم يوم الصحو ، ينظر إلى نفس الأمور على أنها علم وانتصار على الفضاء كذلـك ، إلا أنه يضيف إلى ذلك ، إن الله هو الذي سخر للانسان كل هذا ، وإنـه أعد لعباده الصالحين ، ما يعتبر هذا ليس بشيء إلى جواره .

متى يفيق المسلمون ، متى يعلمون دينهم الحق ، متى يكفرون بعبادة أوهامهم ؟

لقد كان النوم طويلا طويلا ، وسوف ندفع الثمن غاليا غاليا .

ولئن كان غزو الفضاء عملا عظيما صدر عن شعب كان إلى قرن واحد من الزمان متخلفا يسبح في الأمية ، فإن غزو الفضاء يعلمنا أنه يمكن أن نفيق وأن نستيقظ وأن نعمل ونعمل لنلحق بالذين سبقونا بالعلم .

تحيتي إلى جاجارين . . . ذلك الانسان العظيم .

أقصر الطرق إلى الله

ما هو أقصر الطرق إلى الله ؟

ما هي أسرع الوسائل الموصلة إلى الله ؟

نلقي هذا السؤال وذلك ، على الناس جميعا ، بمناسبة اشتغال العالم كله بإطلاق سفن الفضاء .

والناس اليوم قلقون مضطربون ، يريدون أن يضعوا أيديهم على « زر » فاذا هم في جنب الله ، في أقل من لمح البصر ، تماما كما يضغطون على « زر » فاذا سفينة الفضاء تنطلق بهم إلى حيث شاءوا من الأرض أو من السماء !

نعم . . . إن انسان ما قبل الفضاء ، غير انسان ما بعد الفضاء .

لقد كان انسان ما قبل الفضاء يصبر على المسافات ،

ويصبر على الأبعاد والساعات .

أما انسان ما بعد الفضاء فأصبح لا يصبر على المسافات ، ولا يطيق انقضاء الساعات الطوال حين يسافر في أقطار الأرض .

وسوف يصبح الإنسان ، بعد قليل من الزمان ، ذريا في طعامه ، ذريا في سفره ، ذريا في أحلامه .

وسوف يمرق الانسان من نقطة انطلاقه من الأرض ، إلى الفضاء في دقائق ، ثم يمرق من الفضاء إلى ما شاء من الأجواء ، ثم يمرق من الأجواء إلى ما شاء من الكواكب ، ثم يمرق من الكواكب إلى ما شاء من النجوم !!

وأحلام اليوم حقائق الغد . . .

فما رأي السادة حملة العلم ، ودعاة الدين ، في هذا الذي نحن فيه ؟

ما رأيهم في إنسان اليوم ، وكيف نطور الدين معه ، ليدور مع فهمه وذوقه ؟

ما رأي الذين يجمدون كأنهم خشب مسندة ، فلا يريدون للناس هدى ، ولا يدعون الناس يهتدون !

كيف يمكن أن نسوق إلى الناس ما كان يساق إلى أسلافهم منذ ألف عام ؟

كيف يقف الدعاة والوعاظ والمرشدون ، يديرون أفواههم بكلمات ليس فيها من حياة العصر من شيء ؟

نريد أسلوبا صاروخيا يصلنا إلى الله سريعا .

نريد شيئاً إذا فعلناه وصلنا إلى الله ، بأسرع مما يصل به رجل الفضاء إلى السماء .

نريد هذا الأسلوب . . . فهل يمكن العثور على هذا الأسلوب ؟

وهل هو موجود في هذا الدين . . . وإن الدين عند الله الإسلام ؟

نعم . . . بل إن الإسلام في حقيقته هو الدين الصاروخي ، وهي العقيدة الذرية الفعالة بأسرع ما تفعله الصواريخ وسفن الفضاء .

فما هو هذا الأسلوب من الكلام ؟

تعال معي ، واقرأ معي قوله سبحانه : ﴿ وإذا سألك عبادي عني ، فإني قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعاني ، ليستجيبوا لي ، وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ﴾ .

تأمل قوله ﴿ وإذا سألك عبادي عني ﴾ وانظر اعجاز الآية ، واتساعها وشمولها ، واحتوائها لأسئلة البصر جميعا في كل زمان ومكان !

إذا سألك عبادي ؟

الآية تعبر تعبيراً معجزا عما يتوق كل إنسان إلى سؤاله والاستفسار عنه .

دائما يسأل الناس وسيسألون . . . عن أهم شيء في حياتهم . . . عن سر هذه الحياة ، كيف كانت ، كيف تمضي ، كيف تنتهي ، وما غايتها ، وما هو الذي يمسكها وينظمها ويبدعها ؟؟

عني ؟

عني أنا الله يسأل عبادي ، على اختلاف أفكارهم وأديانهم وألوانهم ولغاتهم ، الجميع يسألون عنه ، عن الله الذي أوجدهم ، ورزقهم ، ويميتهم ويفعل بهم ما شاء .

وإن من مخلوق إلا ويسأل عن الله . . .

وهنا تتجلى روعة التعبير . . .

عني أنا الله يسأل الناس . . . فهل علموا عني شيئا ؟

كلا . . ما زال الناس غرقى في ظلام تكوينهم لا يعلمون شيئا ولا يستطيعون ، .

وحتى هنا . . . وتبدأ المرحلة الخطيرة من الآية . . .

مرحلة ما وراء السرعة في هذا الدين . . . وما وراء السرعة في

الإسلام ، حين يدعو الناس إلى الله .

فإني قريب ؟؟

أعلن يا أيها الرسول إلى الناس كافة أني قريب إلى كل إنسان .

أنا أقرب إليه مما يتصور ، أنا أقرب إليه من نفسه ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ .

ليس الله بعيداً عن أحد .

إن الله أقرب إلى الناس من أنفسهم إنهم يستطيعون الوصول إليه في أقل من لمح البصر .

إن سفن الفضاء ، ومحاولات الهواء ، التي يريدون الوصول بها سريعا إلى السماء . . . كل هذا يبدو بطيئا جدا ، بالنسبة الى السرعة التي يستطيع أي إنسان أي يصل بها إلى الله .

إن أي سفر للفضاء يحتاج إلى شيء من الوقت ، ولكن السفر إلى الله لا يحتاج إلى وقت أبدا .

كيف هذا ؟ كيف يقال هذا ، والسفر إلى الله هو أشق الأسفار ؟

تالله إني لأصدقكم القول فلو لا تصدقون ؟

دعـوا ما يمـلأ صدوركم ، ومـا يثقـل عقـولكم ، ومـا توارثتموه عن آبائكم ، وتعالوا إلى الله أطفالا على الفطرة التي فطركم عليها .

تعالوا إلى الله أطفالا ، فإن الله يحب الفطرة التي فطر الناس عليها .

اطـرحوا أيهـا الناس من عقـولكم ذلك الحشـو الـذي تملأون به رءوسكم ، وتظنون أنه شيء وما هو بشيء .

ثم أئتوا إلى الله . . . وسوف تجدوا الله . . . وسوف تعجبون في أنفسكم . . . الله قريب منا إلى هذا الحد ؟

نعم . . . إن الذي يحول بينك وبين الله هو انصرافك عنه ، ولو أقبلت عليه لأقبل عليك . . . استغفر الله لو اتجهت اليه لوجدته .

إنــك أنت الأعمى . . . إن الله قـريب منــك دائمــا وأبداً . . . ولكن بشرط أن تبصر .

وهكذا يعلن الله جل وعـلا الحقيقة الكبـرى بينه وبين عباده . . . حقيقة قربه منهم جميعا ، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم .

وهـذه الحقيقة تمحـو أوهام الـواهمين ، وتبدد أحـلام

المتقاعدين ، وتدفع الناس دفعا إلى الله رب العالمين .

ثم تعلن السماء إلى أهل الأرض شرطها الوحيد ، ليتحقق قربهم من الله .

أجيب دعوة الداع إذا دعان ؟

الله يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ؟

إذا ناداه قال لبيك عبدي ؟

فكيف الطريق إلى هذه المقام ؟

فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي . . . ذلك هو الطريق . . .
وهو أقصر الطرق إلى الله . . . وأسلوبه أن تنخلع من عبادة الأصنام . . .

هناك صنم المال . . . عليك أن تكفر به . . .

وهناك صنم الشهوات . . . وعليك أن تحطمه . . .

وهناك صنم الهوى . . . وعليك أن تنسفه . . .

تلك الطواغيت التي أذلت الإنسان ، وهدت كيانه ، وأصمت آذانه ، وأعمت أبصاره ، ينبغي تحطيمها كلها . . .

ثم التقهقر إلى حالة الطفولة الأولى ، كما ولدتك أمك . . .

فاذا ماتمت لك التخلية من المعاصي . . . جاء دور التحلية بالإيمان . . .

سر بعد ذلك إلى الله . . . بقلب سليم . . . وروح طائر في الملكوت . . .

ستشعر بعدها بلذة الانطلاق إلى الله . . . وهي لذة لا تدانيها لذة الانطلاق إلى الفضاء . . . ولا تساويها لذائذ المادة مجتمعة .

ذلك أن الانطلاق في سفينة الفضاء انطلاق للجسد محدود ، ولكن الانطلاق إلى رب السماوات انطلاق للروح غير محدود .

ومتى استطاع الانسان أن يعيش بقلب سليم ، فقد وصل إلى مقام ﴿ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

ذلك المقام الذي يأمن فيه الإنسان فلا يخاف ، ويسعد فيه فلا يحزن .

فما هو القلب السليم ؟

القلب السليم ، هو القلب المتجه إلى الله المعرض عمن سواه .

ومتى سلم القلب ، استقامت الجوارح على أمر الله .

القلب السليم ، هو القلب الذي يدير مملكة الجسد لحساب ملك الملوك .

الذي يعلم أنه مخلوق لله ، ولا ينبغي أن يعبد إلا الذي خلقه وسواه .

ولعل هذا من أسرار قوله ﷺ « إنما الأعمال بالنيات » . . . لأن النية موضعها القلب .

فمتى كان القلب متجها إلى الله ، كانت الأفعال والأقوال لله ، ومتى كان القلب متجها إلى غير الله ، كانت الأفعال والأقوال متجهة إلى غير الله .

ولعل هذا أيضا من أسرار ما اختتم به ﷺ ذلك الحديث « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى أمرأةينكحها أو دنيا يصيبها فهجرته إلى ما هاجر اليه » ـ أو كما قال ـ .

وانظر إلى التعبير بالهجرة ، دون سواها ، لأن المهاجر من هجر ما نهى الله عنه ، ولأن من أراد السير إلى الله لزمه أن يهجر أولا ما نهى الله عنه ، ثم يبدأ في السير إليه سبحانه .

إلا أن هجر المعاصي لا خير فيه ان لم يكن الدافع اليه هو الرغبة في الاتجاه إلى الله ، وهو ما يسمى بالنية ، وهو عزيمة القلب على شيء ما . . .

ومتى انعقدت النية من الانسان ، أي متى قامت بنفسه

إرادة الاتجاه إلى الله ، رأيته ينخلع من كل شيء يعوقه عن السفر .

إنما مثل المسافر إلى الله ، كمثل رجل أراد أن يسبح في الماء ، تراه يخلع ملابسه كلها ، ثم يطرحها وراءه ، ثم يلقي بنفسه إلى الماء فرحا مسرورا ، فاذا ما استوى على الماء أحس بلذة السباحة ، وتمنى ألا يعود إلى الشاطىء أبدا .

كذلك الإنسان إذا صح منه العزم للسير إلى الله ، تراه يخلع الدنيا عن قلبه ثم ، يلقي بنفسه إلى بحار القدس ، تسبح في آفاقها ، تريد القزب من الله ربها .

وهو في سبحه هذا يشعر بلذة فائقة ماحقة ، يتمنى عندما يمر بتجربتها ألا يعود إلى الانغماس في الدنيا بعدها أبدا .

ولعل هذا من أسرار قوله ﷺ « وأن يكره ان يعود في الكفر كما يكره ان يلقى في النار » . ـ أو كما قال ـ .

ذلك هو الطريق إلى الله ؟

رغبة حارقة تقوم بالنفس ، يدفعها شوق حارق للسفر إلى الله .

ثم انخلاع تام من المعاصي ، وانصهار تام في الطاعات .

ثم يبدأ المسافر إلى الله الشوط . . . وإن لـه في بحار العظمة الإلهية سبحا طويلا .

سوف يسبح . . . ثم يسبح . . . ثم يسبح . . . لأن الله يناديه . . . أقبل عبدي . . . وهو يهتف ثم يهتف . . . لبيك اللهم لبيك .

مؤهلات الحب !

كان ﷺ يحب الله ، ويحبه الله ، فكان حريصا على كل شيء يؤهله لذلك الحب الكريم .

ولئن كان قوله تبارك وتعالى : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » . . . فإنه ﷺ كان مستجيبا بالفطرة الطيبة لذلك النداء . . . فكان ﷺ دائم التوبة ، حتى يروى عنه ﷺ أنه كان يستغفر الله تعالى في اليوم أكثر من سبعين مرة . . . وكان كذلك دائم التطهير . . . كان يتوضأ دائماً ، كل يوم مرات ومرات :

ولم يكن حب الله تعالى لرسوله ﷺ شيئا من الفضل الإلهي وكفى . كلا ، ولكن عن جدارة واستحقاق .

كل شيء يحبه الله تعالى ، كان ﷺ يحرص عليه ، ويأتيه بالفطرة ، ثم بالتشريع .

وهنا ينفتح لنا باب عظيم من أبواب البحث والاستقصاء . . .

إذا كان هذا أسلوب النبي ﷺ ليحظى بحب الله تبارك وتعالى فما هو أسلوب الفرد العادي ليحظى بذلك الحب ؟ .

الأسلوب ان نفعل كما كان ﷺ يفعل ، وهو ما يسمى بالاتباع ، وهو ما ينادي به الله تعالى عباده أجمعين « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » .

نعم . . . إن كنتم تحبون الله حقا ، وتحرصون على حب الله ، فإن الطريق هو اتباعي ، لأني أعلمكم بالله ، وأعلكم بالكيفية التي يتوصل بها إلى ذلك الحب ، فلا سبيل لكم إلا اتباعي ، وإلا تقليدي . . . وفي نهاية الطريق تجدون الثمرة الطيبة ، وهي حب الله لكم .

والذين يزعمون أنه يمكن للإنسان أن يحب الله على غير أسلوب النبي ﷺ ، إنما زعموا باطلا ، وادعوا منكرا . . . ذلك أن النبي ﷺ إنما يأتي ما يؤهله للحب بفطرته السليمة ، بقلبه السليم . . . فمن الحتم أن يكون كل إنسان سليم القلب على نفس الفطرة النبوية . . . لأن الله لا يغير سنته التي فطر الناس عليها .

فإذا كان كل إنسان سليم القلب موحداً غير مشرك لزم أن يكون الناس جميعا إذا أرادوا أن يزعموا أنهم سليمو القلب أن يكونوا موحدين غير مشركين .

فإذا زعم زاعم انه يمكن ان يكون سليم القلب وهو ليس موحداً غير مشرك ، قلنا له كذبت . . . فإن سلامة القلب تثمر حتما التوحيد .

كذلك الذين يزعمون أنهم يحبون الله وهم على غير أسلوب محمد ﷺ هؤلاء نقول لهم كذبتم · لأن محمدا ﷺ يأتي ما يأتي كل إنسان يحب الله ، فما خالفه وجاء بغير ما جاء به ، قلنا له لست محبا لله ، وإنما ان مخادع لله ولنفسك .

وتلك القاعدة هي الأساس الأعظم في ناموس الحب الإلٓهي . . .

ولقد كان حتما ولزاما أن يمضي كل من أراد الوصول إلى حب الله وراء النبي ﷺ .

والناس في ذلك لا خيرة لهم ، وإنما هي نواميس الله التي لا تتغير .

فكما أنه لا بد لكل إنسان ليحقق حياته من الماء والغذاء ، فإنه لا بد لكل إنسان ليحقق حبه لله من اتباع رسول ﷺ .

ولو أمكن للإنسان أن يحصل على الحياة بلا ماء ولا غذاء ، لأمكن للإنسان أن يصل إلى حب الله بلا اتباع لرسول الله ﷺ .

وإذا استحالت الحياة بغير ماء وغذاء ، فإن حب الله يستحيل بغير اتباع رسوله ﷺ .

إن الذي وضع هذا الناموس ، هو الذي وضع ذلك الناموس . . . ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وعلى هذا . . . ما من شيء يؤدي إلى حب الله إلا كان من صفات النبي ﷺ ، وما من شيء يؤدي إلى بغض الله إلا كان النبي ﷺ أبعد الناس عنه .

فما أسلوب هذا الاتباع وكيف يكون ؟

لقد حدده ﷺ تحديداً ، وقننه تقنينا . . . حيث قال :

« إذا نهيتكم عن شيء فانتهوا عنه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منا ما استطعتم . . . أو كما قال :

ليس هناك من تحديد أدق ولا أرق ولا أشف من هذا التحديد ! .

إذا كان الأمر نهيا وجب الانتهاء عنه فورا ، انتهاء تاما . . . لأن المعصية لا ينبغي أن تكون من المؤمن .

وإذا كان الأمر طاعة فأتوا منه ما استطعتم ، وهذا هو التوجيه المعقول .

لأنه لا يستطاع لانسان أن يفعل كما كان يفعل النبي ﷺ تماما بتمام . . . وإلا لصح أن يكون مثله . . . وهذا مستحيل .

وإنما الذي يستطيعه كل إنسان أن يحاول أن يتقرب مما كان ﷺ يفعله ، على تفاوت في ذلك بين الخلائق ، وكل ميسر لما خلق له .

ولقد جعل الله حداً أدنى للخلائق كلها لا ينبغي أن ينزلوا عنه ، أو يتدلوا دونه . . وهو ما يسمى بالفرائض .

فهناك فروض خمسة ، هي الصوات الخمس . لا يحل لأحد أن يتهاون في أدائها ، لأنها الحد الأدنى للإنسان .

أما التطوع في الصلوات فلا آخر لها ولا نهاية ، فلك أن تصلي تطوعا ما شئت . . . فلو بدا لك أن تقوم الليل كله فقم . . . أنت وشأنك . . . لأن باب الكمال والترقي مفتوح . . . وهو باب لو عرجت فيه الخلائق كلها ما قطعت منه مقدار ذرة من صحراء واسعة .

وهنا يزهو نور التوجيه النبوي ، ويبدو لألاؤه أسنى من الشمس في عليائها .

فأسلوب الاتباع هو هذا . . . إذا كان نهيا وجب الانتهاء فوراً ، وإذا كان أمراً من طاعته كان على الانسان أن يجاوبها ما استطاع ، وذلك فيما هو بعد الفروض ، التي هي الحد الأدنى للطاعات .

لقد كانت مؤهلات الحب التي يملكها رسول الله ﷺ عظيمة ، ولا تحصى .

كان سليم القلب . . . وسلامة القلب هي مفتاح العروج إلى الله . . . ولو أنك جئت الله بملء الأرض طاعات ، وقلبك غير سليم ما فتحت لك أبوابه سبحانه وتعالى أبداً . . . لأن سلامة القلب هي مفتاح الفتوح وبداية الرضى .

وكان على خلق عظيم . . . والأخلاق هي أول شيء يقرب الإنسان من الله . . . ومن لا خلق له ، لا مكان له عند الله . . . فكيف به إذا كان عظيما في أخلاقه ، أي حائزاً لأعظم قدر من الأخلاق ، وأعلى درجة من الصفات ؟

وكان توابا . . . دائم التوبة . . . وذلك من أعلى المؤهلات المؤدية إلى قرب الله . . . لأن التوبة اعتراف بالذنب ، وإحساس بالتقصير ، ورغبة في التقريب ، ومن

كان تواباً كان منكسراً لله ،ومن كان منكسرا أحبه الله .

وكـان آكلا للطيبـات ، لا يأكـل من خبيث أبـداً . . . وأكل الحلال هو أول درجة في سلم العـروج إلى الله . . . والذين يأكلون من حرام ، ويزعمـون أنهم مقربـون من الله هم قوم كذابـون ، لأن من أكل لحم نبت من حـرام فالنـار أولى به .

وكان فعالا للخيـرات ، حياتـه كلها خيـر ، وذلك من أعظم ما يؤهل لحب الله تبارك وتعالى .

وعمـومـاً كـان ﷺ حـائـزاً لأعلى الـدرجـات وأعـظم المؤهلات ، التي تجعله أحب الخلائق إلى الله .

وبذلك استحق أن يكون حبيباً للرحمن .

وعلينا إذا أردنا أن نكون على شيء من حب الله ، ولو ظلال من أنوار ذلك الحب . . . علينا إذا أردنـا أن نستظل بنور الله أن نحاول ما استطعنا ما كان يفعله النبي ﷺ .

علينا أن نعيش بقلوب سليمة ، وأن نخالق الناس بخلق حسن ، وأن نـديم التوبـة ، وأن نأكـل من الطيبـات ، وأن نسارع إلى الخيرات وأن نتتبع خطواته في كل شيء .

ويوم نفعل ذلك ، حق لنا أن نزعم أن الله يحبنا ، ويوم لا نفعل . . فلا يحل لنا أن نزعم من ذلك شيئاً ؟

عصر المرأة

ما زالوا بالمرأة يزينون لها أن تكشف ما ستر الله من حسنها ، حتى كان ما أرادوا ، وكشفت لهم المرأة عن أحسن ما فيها ، في أحسن أساليب العرض .

قالوا لها لقد مضى عهد (الحريم) يا سيدتي ، وصفقوا لما قالوا ، وأوجست المرأة خيفة في نفسها ، مما يقولون ، وجعلت تفكر وتفكر ، ثم استسلمت لهم أخيراً ، وخرجت عارية أو شبه عارية !! .

ونادى زبانية الفكر نساء العالم كله ، أن اخرجن أيتها الجميلات ، وشاركن في كل شيء فلستن بعاجزات ولا فاجرات .

وكأنما المرأة قد انتفض في باطنها مارد الانتقام ، فخرجت على كل شيء ، ودخلت في كل شيء !! .

ونزلت إلى الحياة تحمل سلاحين ، سلاح الجمال ، وسلاح الأعمال .

أما سلاح الجمال فهو سلاح لا يقاوم ولا يدافع ، سريع المفعول ، فتاك الآثار .

وأما سلاح الأعمال فهي تؤديه كما يؤديه الرجل وزيادة .

فهي بذلك تتفوق على الرجل في ميادين الحياة .

تتفوق عليه بسلاحها الخاص بها ، سلاح الجمال ، ذلك الذي تلقيه في تحركاتها ، فتجد من يهرع إليها ، متطوعاً ؛ أو معجباً ، يعينها فيما شاءت ، ويفتح لها مغاليق ما تريد .

وتتساوى معه بعد ذلك في قيامها بنفس العمل الذي يقوم به الرجل .

وإذا التقى سلاحان وسلاح عرفت النتائج قبل البحث في المقدمات .

النتيجة أن المرأة تفتح لها الدنيا كلها الآن ، وأن الرجل تغلق في وجهه أكثر مداخل الحياة !! .

لماذ . . . لأن المرأة دخلت الحياة بسلاحيها والرجل ذو سلاحٍ وحيد . . . هو العمل .

وإذا عرف أن المرأة على استعداد لأن تنفق الكثير ليقال عنها جميلة ، أمكن إدراك الخطر الأكبر الذي يهدد العالم كله ، بسبب اطلاق المرأة .

لقد أطلقوها فأنطلقت . . . حرة في أوسع معاني الحرية .

حرة في زينتها . . . ويا ويل العالم إذا عاشت المرأة حرة في إبراز زينتها إلى الناس . إنها تحول كل شبر من الأرض ، تسعى عليه بساقيها ، إلى معرض من معارض فتنتها ! .

حرة في أفكارها . . . ويا ويل العالم إذا ترك المرأة تفكر كيف شاءت ، بلا قوامة من الرجل على تفكيرها ! .

حرة في اختيار أسلوب الحياة الذي تريد هي أو تمليه على المجتمع . . . ويا ويل العالم إذا وضعت المرأة له أسلوب حياتها هي على أنه هو الأسلوب ! .

ووصلت كثير من المجتمعات الغربية إلى مستوى تمحي فيه الفوارق محواً تاما بين الجنسين ، فكل ما للرجل هو للمرأة ، وكل ما للمرأة هو للرجل .

ففي مجتمع امريكا وصلت المستويات النسائية فيه حدا تسامت فيه على الرجال في أكثر الأعمال .

فرجال الأعمال يفضلون المرأة الجميلة في أعمالهم لأنها أقدر على جلب الزبائن ،

والمرأة لها الصدارة في الحفلات ، والبيوتات ، الفوق والمصانع ، أثاث ، والإذعات ، والأفلام ، والتأثير على جمهور الناخبين ! .

حتى أذواق « المودة » بدأت تتجه إلى محاولة التوحيد بين أزياء النساء وأزياء الرجال ، تحقيقاً للفكرة المسيطرة عليهم ، فكرة التساوي بين الجنسين !

وجاء دور الدول المتخلفة في المدنية ، فقامت هي الأخرى تقلد الدول السابقة في هذا الميدان .

وأصيب تلك الدول بما يصيب المتخلف إذا أراد أن يلحق بمن سبقه ، أنه يريد أن يصل إلى مستوى سيده بأي أسلوب وبأي ثمن .

وهذا ما عليه المجتمع العربي الآن . . .

مجتمع متخلخل مضطرب ، لا يؤمن بتقاليده القديمة ، ولا يؤمن بعادات الغرب الوافدة إليه .

فهو مجتمع يعاني عقدة نفسية حادة ، فلا هو يملك الجرأة لنبذ كل ماهو قديم ،ولا هو يملك الجرأة للأخذ بكل ما هو جديد .

ويبدو هذان الاتجاهان واضحان متلازمان في تصرفات كل إنسان عربي نال حظا من الثقافة الحديثة .

هو مركب مختلط ، ومزيج ، في تصرفاته وأفكاره ، ونظراته الى الأمور .

حتام نبقى هكذا ؟ . وأين طابعنا العربي الخالص في هذا النحو من الحياة ؟ .

فمن المعروف أن المرأة العربية ، أمرأة لها تقاليدها العتيدة ، المؤسسة على الدين والعرف .

وأنها عاشت قروناً طويلة في مجتمع انفصالي لا يسمح فيه بالاختلاط .

وأن هذا المجتمع الإنفصالي قد ترك رواسبه في أعماقنا جميعاً .

وأن الرجل العربي لا يطيق أن تخالط امرأته غيره من الرجال ، وأنه إذا سمح لها بذلك ، فهو يسمح به قهراً لا اختيارا ، ومجاراة لما هو كائن لا إيمانا بما هو قائم .

ومن المعروف كذلك ان سمات مجتمعنا العربي لم تتبين بعد في هذه الزاوية من الحياة .

فكيف السبيل لنتبين طريقا إلى سمات المرأة العربية الحديثة ، وما ينبغي أن تكون عليه نساؤ نا ؟ .

إن أكثر الناس يظنون أن هذا الأمر هو أعقد العقد في المجتمع العربي ، وأن الوصول إلى حل يرضي الجميع في هذا المشكل هو احدى المستحيلات .

وهم يؤيدون نظريتهم تلك بقولهم أن المدنية الحديثة إما أن تؤخذ كلا او تترك كلا ، وأن محاولة المزج بينها وبين التقاليد العربية محاولة فاشلة وجهد ضائع ، يؤدي بنا الى مسخ الجانبين ، فلا نحن تغربنا ولا نحن تعربنا .

كذلك يقولون ، وهو قول له وجاهته ، وفيه شيء من الحق ، إلا أنه لا يحل إشكالا ، ولا يصنع علاجاً .

والحقيقة أن الأمر سهل ميسور لو أخذناه بشيء من الحكمة والتفكير .

أما أن نزعم أن الأمر عقدة العقد ، ثم نجلس نتثاءب والزمان يمر سريعاً علينا . فذلك شأن الفاشلين الحالمين ، لا شأن المجاهدين الثائرين .

أقول إن المخرج غاية في السهولة ، وغاية في البساطة .

وما علينا إلا أن نتقهقر عبر القرون لنقف وجها لوجه مع

أصل هذه البشرية كلها . . . آدم وحواء .

هنالك تجد الإنسان كما خلقه الله . . . ذكراً أو أنثى ، وتجد توجيه الله تعالي للجنس كله في قوله سبحانه ﴿ يا بني آدم لا يفتتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم . . . ﴾ .

إذا مسألة الملابس ينبغي أن يراعى فيها عدم الإثارة للجنس .

وهذا هو الأصل الاصيل في مشكلة ملابس الخروج .

كل ملبس لا يثير للجنس فهو حلال ، وكل ملبس يثير للجنس فهو حرام .

وقد جاءت الشريعة الإسلامية الشاملة الكاملة في هذا المضمار .

فحرمت أن يبدو للأجنبي من المرأة سوى وجهها وكفيها .

وحرمت كل ملبس تلبسه المرأة يشف عن جسمها او يصف جسمها .

وفي حدود هذه التوجيهات العامة يمكن أنتنتظم

ملابس الخروج لنسائنا العربيات .

ماذا أريد أن أقول ؟ .

أريد أن أقول إننا لسنا دعاة جمود ولا رجعية ، ولكننا لا نقبل الفجور والانحلالية .

والفضيلة دائما وسط بين رذيلتين . فنقطة الالتقاء بين الرجعية والانحلالية يمكن ان تكون هي الفضيلة للمرأة العربية في هذا الزمان .

ونحن لا نستطيع أن نقول للمرأة العربية الحديثة الآن أطيلي جلبابك حتى يجرجر من ورائك شبرين أو ثلاثة لأن الدين يحب هذا .

ولا نستطيع أن نقول عودي إلى الحبرة واليشمك . لأن هذين الرداءين ليسا فرضا في الإسلام .

ولكن نستطيع أن نقول لها كوني فاضلة بما يتناسب مع تقاليد عروبتك ودينك .

وخذي من « المودات » ما يتناسب مع تلك التقاليد وانبذي منها ما يضاد هذه التقاليد .

فإن لم تجدي في « المودات » ما يناسب تقاليدنا فانبذيها كلها ، وابتكري أنت الأزياء العربية ، والمودات العربية .

وكما أصبحت لنا فلسفتنا السياسية المستقلة النابعة من ضميرنا ، وفلسفتنا الاقتصادية النابعة من مصالحنا ، فإنه ينبغي أن تكون لنا فلسفتنا الاجتماعية النابعة من تقاليدنا .

لا ينبغي أن نظل عالة على الغرب في أزيائنا بدعوى أنه لا يوجد لنا أزياء .

ينبغي أن يكون لنا أزياء ، ينبغي أن يبرز الزي العربي النسائي إلى الوجود . . . يبنغي أن يعلن عن نفسه ، وأن تلبسه المرأة العربية ، وأن تتميز به بين نساء العالم كله حتى يقال هذه امرأة عربية .

ولست أدري لماذا أبينا أن نقلد الغرب أو الشرق في سياسته واقتصاده ، وأعلنا في العالم كله سياستنا الجديدة المستقلة ، ولا نأبى أن تقلد نساؤنا نساء الغرب في أزيائها .

إن ما نحن عليه هو من رواسب الاستعمار ، وقد خرج الاستعمار ، فينبغي أن تخرج معهرواسبه .

فالأمر إذا ليس عقدة العقد كما يتصورون ، بل هو يرتكز على أساس واحد ، هو عدم الإثارة .

وأي ملابس لخروج المرأة تحقق عدم الإثارة ، فهي

ملابس عربية وهي ملابس إسلامية .

وفي نطاق هذا الاطار ينبغي أن تدور « المودات » العربية ، وتتحدد سياستنا الاجتماعية .

وهو شيء عملي سهل إذا أردنا له تنفيذاً ، وأحببنا له تطبيقاً .

ما علينا إلا أن يحدد القانون لواضعي الأزياء النسائية الاطار العام لتلك الأزياء وأن يستضيء واضعو ذلك القانون بهدى الشريعة في ذلك الاتجاه ، وأن يكون فهمهم للشريعة فهم الرجل الحديث ، الفاقه لدينه ، المتطور مع زمانه .

وبهذا نقضي على تلك الفوضى في أزياء نسائنا . . .

تلك الفوضى التي سولت للمرأة العربية أن تكشف ظهرها ، وصدرها ، وتحت أبطها ، وساقيها ، لمن شاء أن يرى !! .

ولئن كان هذا أمراً غربيا طبيعيا فهو ليس بعربي ولا من طبيعتنا. . . وإنما هي رواسب الاستعمار ما زالت تعيش في مجتمعنا .

وكما حددت الآية مهمة الشيطان أنه ينزع عن الجنس لباسهما ليريهما سوآتهما أي أنه يعمل جاهداً لينزع عن

الجنسين لباسهما ليريهما عوراتهما :

ومتى تم ذلك تمت الاثارة ، ومتى تمت الاثارة تمت الجريمة . ومتى تمت الجريمة تخلخل المجتمع . وتطايرت الفضائل .

إن الغريزة الجنسية ليست في حاجة إلى إثارة حتى نعمل على إثارتها بكل الطرق كما هو اتجاه المدينة الغربية الحديثة .

وإنما نحن في حاجة إلى إنامتها في المجتمع . ليتفرغ المنتجون إلى إنتاجهم ، والعاملون إلى أعمالهم .

أما أن نثيرها وتخرج نساؤنا يشعن الفتنة حيث سرن ، فذلك ليس من أخلاق العرب ولا من أخلاق الانسان ، وإنما هوانحطاطما بعده انحطاط في المجتمع الانساني .

ومن أعجب ما أصيب به الناس أنهم ألفوا ما نحن فيه ، وأصبح وليس من المستغرب أن يجري بيننا هذ الانحلال ! .

فعلى الذين يريدون حلا لأزياء نسائنا أن يتفكروا في قلناه . . . وسوف ينشرح صدرهم لما قلنا .

وعلى الذين يريدون إبراز سمات مجتمعنا العربي ، أن

يلتمسوا ذلك من توجيه شرائعنا السماوية ،وعاداتنا العربية الكريمة .

وعلى الذين يريدون للمرأة العربية النهضة أن ينهضوا بها بحق ، وذلك بصيانتها من الابتذال والمهانة ، ورفعها إلى مقام الحفظ والصيانة .

وعلى الذين ينادون بالمساواة بين الرجال والنساء ، أن يعلموا أن المرأة امرأة والرجل رجل ، وأن الله أراد ذلك أزلا وأبدا رغم أنوفهم ، وأن الحق من ذلك الأمر أن يعرف كل جنس موضعه الصحيح من الحياة ، لا أن يشابه كل منهما الآخر .

فليس الحق أن تقول أن الماء والنار سواء ، ولكن الحق أن تقول أن الماء ماء والنار نار .

فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟ .

لا سلام ولا كلام

الذين يلتمسون السلام من كل ناحية ، إلا من ناحية واحدة . . . هي طاعة الله . . . أولئك الذين بعدوا عن الحق ، وكان لهم السلام حلماً بعيداً .

لأن إرادة الله اقتضت إعلان الحرب على الذين يعصون الله . . .

ماذا أريد أن أقول ؟

أريد أن أقول إن الله قرر نواميس في الحياة لا تتبدل ولا تتغير .

فمن نواميس الله الدائمة أن الأمن للناس إذا أطاعوا الله ، والخوف للناس إذا عصوا الله .

السلام للطائعين . . . والحرب على العاصين فهل البشرية طائعة لله ؟

أيا ما كانت الألوان والاجناس واللغات والأديان . . .

هل البشرية طائعة لله .

كلا . . . البشر كلهم عصاة لله . . . وإن شئت فها هي الارض أمامك . . أرني فيها وجه الطائعين لأقبلهم !

سيقولون هناك المسلمون . . . وأقول لهم أو إن شئتم قولوا المستسلمون . . . ثم نبئوني من المسلمين يعبد الله كما يحب الله ويرضى؟

سيقولون كثير . . . قلت مهما كان عدهم فهم قليل القليل بالقياس إلى أهل الأرض أجمعين .

وصلنا إذا إلى نتيجة حتمية . . إن أكثر أهل الأرض لا يؤمنون ، وإن آمنوا لا يخلصون وإن أخلصوا لا يثبتون .

فما كان جواب القدر ؟

كان جوابه أن العقاب آت لا ريب فيه . . . جزاء وفاقا ، لما عليه الناس من تحول عن الله .

وهذا العقاب يأخذ أساليب شتى فالآفات الزراعية ، تأكل الأخضر والأصفر عقاب .

ودفع الناس بعضهم ببعض عقاب وإصابة الأبدان بالأمراض عقاب والغلاء العام عقاب .

والقلق والخوف الدائم عقاب .

والرهبة من المستقبل المحفوف بالمخاطر عقاب .

كل هذا عقاب . . . وغير هذا مما لا يعلمه إلا الله عقاب .

وهو سبحانه يصب منه كيفما شاء على من شاء « عذابي أصيب به من أشاء » .

وعذاب الله يكون في الدنيا قبل أن يكون في الآخرة .

ودع عنك عذاب الآخرة جانبا الآن ، فإن أكثر الناس لا يؤمنون به ، وهم منه في شك مريب .

وإنما نحن بسبيل العذاب الدنيوي ، ذلك العذاب الأدنى الذي يعانيه الخلق ويذوقون منه كل يوم كثيراً .

إن العالم كله الآن ، شرقيه وغربيه ، يعيش في قلق وخوف دائمين ، كل يتربص بالآخر ، ولا يدري متى يبغت بعضهم بعضاً .

ثلثي ميزانيات الشرق والغرب تنفق في التسلح . لماذا ؟

لأن الناس يخشى بعضهم بعضاً .

فمن الذي صب عليهم ذلك الخوف ؟

الله هو الذي أصابهم بهذا العذاب ، جزاء ما هم فيه من كفر وعصيان .

إن الغرب والشرق الغارق في الكفر والعبث ، ليس له أن ينتظر سلاماً ، وإنما الحرب دائماً ، لأنهم يحاربون الله ، فحق عليهم الحرب من الله .

فإن قيل ولكن الناس أنفسهم يحاربون ؟ فما دخل الله في الأمر ؟

قلنا يا مجانين . . . وإن من شيء إلا هو آخذ بناصيته . . . وهل يستطيع أحد أن يفلت من إرادة الله فيه ؟

تلك هي المشكلة من أعمق أعماقها . . . بشرية كافرة عاصية . . . استحقت عذاباً على سلوكها . . . . فهذه الحرب التي يستعد لها الطرفان ، هي النتيجة الطبيعية لسلوك الإنسان .

ومثل الناس في هذا ، كمثل الخارج على القانون ، حين يساق إلى السجن جزاء جريمته .

كذلك الناس يساقون إلى مذابح الحروب ، جزاء خروجهم على القانون الطبيعي قانون السماء .

فعلى الذين يحلمون بالسلام أن يوقنوا أنه« لا سلام ولا

كلام ، وإنما هي الحرب تلو الحرب ، لأنهم يزدادوان آثاماً يوماً بعد يوم » .

لأن الحرب هي ثمرة الجريمة العامة التي اصطلحت عليها البشرية ، جريمة الإعراض عن الله والكفر بالله .

إنهم يقولون كل شيء ، ويتصورون السلام في كل شيء . . . إلا أن يكون عن طريق الإيمان بالله والإستقامة على أمر الله .

ولكن السلام لن يكون في الأرض إلا من هذا الطريق . . . وهذه هي العقدة نعم . . . هذه هي العقدة ، لأن الناس أنفسهم لا يتصورون أن السلام في الأرض له علاقة بطاعة الله او معصيته !! .

والحقيقة السافرة أن البشرية كلما تقدمت وتحضرت ، كلما ازدادت حروبها وازدادت شرورها .

وإن هي عاشت في السلام حيناً ، فإنما هي هدنة مسلحة ، أو فترة ما بين حربين وليست سلاماً حقيقياً ، ولا رغبة في السلام .

فالأصل الأصيل ، والسر الدفين في وجود الحرب ، هو معصية الناس لله . . . تلك التي تستوجب أن يعذبهم الله

بعضهم ببعض .

فإن تصور الناس امتناع الشر منهم ، أمكن ان يتصو امتناع الحرب بينهم .

فـاذا كـان الشـر بين أصـول تكـوين الإنسـان ، وجب الإعتقاد أن الحرب من أصول تكوين الإنسانية .

وهـذا ما شهـد به التـاريخ فيمـا مضى ، وسيشهد بـه التاريخ فيما هو آت .

ولئن كانت هذه صدمة أليمـة للذين يحبون السـلام ، ويتمنون السلام . . . إلا أنها هي الحقيقة ، رغم مرارتها ، ورغم آلامها .

وآية ذلك أن زعماء العالم الغربي والشرقي ، يتنـادون بـالسـلام ، ومن ورائهم مـالا يحصى من أدوات الـدمـار والخراب .

ويتنادون بنزع السلاح ، وكل منهم يعد السلاح ؟

ويبدون رغبتهم في التفاوض ، وهم يخفون رغبتهم في إبادة بعضهم البعض .

فإن شاءت البشرية سلاما دائماًفلتنتظر موقفها من الله .

فإن كان ازورارا عنه سبحانه ، وإعراضاً عن طريقـه ، فلتسعن على أمره ، ثم تنتظر بعد ذلك السلام والوئام .

أما أن تكون قلوب الناس قلوب الذئاب ، ثم يلبسون مسوح الضأن ، ويتمنون السلام ، فذلك ما لن يكون ، لأنه مضاد لسنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

الإيمان بالله أولا ، وطاعة الله ثانيا والسلام على الأرض ثالثا .

وطالما أن هناك حقا وأن هناك باطلا ، وأن هناك شراً ، وأن هناك خيراً ، فالحرب باقية ، لأنها السبيل الوحيد ليدفع المظلوم بها عن نفسه ظلم الظالمين .

وهذا ما تدركه الأمم بغريزتها التي فطرها الله عليها ، غريزة الدفاع عن النفس .

والسلام الدائم يتصور ، لو تصورنا امتناع الشر من النفوس .

وفي رأيي أن أساليب الدمار والإفناء التي وصلت إليها الكتلتان المتصارعتان على الأرض ، هو تمدد طبيعي يمضي وجها لوجه مع تمدد الإنسانية في معصية الله ربها .

لقد بلغ الإنسان حداً عجيباً من الكفر بالله ، حتى أصبح هناك عالم بأكمله ، نحوا من تصف البشرية ، هو العالم الشيوعي ، لا يؤمن بالله ، ولا بمجرد فكرة الله .

وهناك العالم الغربي الراقص العابث الذي أعطى دينه ظهره ، وأقبل على دنياه يغترفها اغتراف الوحش الجائع لدماء فريسته .

فهل هؤلاء هم الذين يقررون السلام ؟ كلا . . . ثم كلا . . .

إنهم يخادعون الله ، وهو خادعهم وسوف يعلمون يوم تشتعل الحرب القادمة وينتشر الدمار والخراب الهيدروجيني في الأرض . . . يومها يعلمون أن الله يصفي حسابه مع العصاة . . . وأنه إذا أخذهم لم يفلتهم .

إن السماء تقول : لا سلام ولا كلام . والناس يقولون : نريد السلام ، نريد السلام . والحقيقة تقول آمنوا بالله ربكم ، يأتكم السلام والوئام ، ويصبح حديث الناس : اللهم أنت السلام ومنك السلام ، تباركت ياذا الجلال والإكرام ؟

هل أنت إنسان ؟

سيقول البسطاء من الناس ، أفي إنسانيتي شك ؟. . .

نعم ، أنا إنسان ! !

وأقول لهؤلاء ، كلا يا هؤلاء ، إن في إنسانيتكم شكا ، بل شكوكا !

ما كانت الإنسانية شيئاً يفترى ، ولكن دونها تدق الأعناق ، وتهوى الرجالات .

تلك القصة المسماة بالحياة . . . ما حقيقتها ، ما وراءها ، ما غايتها ، ماذا يراد منا فيها ؟

إني أرى أشكالا ، وألوانا ، من الناس ، فأسأل نفسي : هلى هؤلاء ناس ؟

فلا أستطيع أن أحشرهم في زمرة الناس ، ولا أستطيع أن أقولها !

وأنا في ذلك أمسك بمقياس من السماء ، إسمه مقياس الوحي الإلهي ، فما وجدت منهم من إنسان ، وما وجدت منهم من رجال .

إنها لقضية عامة خطيرة ، نطرحها على الناس جميعاً ، ليسألوا أنفسهم ، هل حققوا إنسانيتهم ، هل عاش كل واحد منهم إنساناً ؟

لقد خالطت صوراً من الناس شتى ، فوجدتهم يأكلون ويتمتعون ، ولا هم لهم إلا لذائذ الشراب والطعام . . . فهل هؤلاء ناس ؟

أولئك الذين يمسون ويصبحون ، وكل ما في رءوسهم كيف يأكلون ، وكيف يكنون ، هل هؤلاء ناس ؟

أولئك الذي يتصارعون من أجل أن يطغى بعضهم على بعض . . . هل هؤلاء ناس ؟

أولئك الذين يعيشون ليملؤا بطونهم ، ثم يفرغوها . . . هل هؤلاء ناس ؟

أولئك الذين ضجت من نجاساتهم الأرض والسماء . . . هل هؤلاء ناس ؟

أولئك الذين ينامون على شر ، ويصبحون على أشر . . . هل هؤلاء ناس ؟

وإذا كانت الأرض تكاد تميز من الغيظ مما تحمل من تلك الأعداد . . . فهل هناك من أمل ؟

هل هناك من أمل في مستقبل هؤلاء الناس ؟

أنا لست يائسا من الله . . . ولكنني يائس من الإنسان .

وهناك فرق بين اليأس من الله ، واليأس من الإنسان .

فاليأس من الله إنسان قانط ، لا يأمل في خير يأتيه من الله .

ولكن اليائس من الناس ، رجل رأى ما هم عليه من إصرار على الإعراض عن الله، فقال ياقوم . . .إني ذاهب إلى ربي سيهدين . . . يا قوم . . . إني بريء مما تعملون .

مقاييس للناس وضعها لهم شيطان !

فالعظيم عندهم من كان ذا مال وبنين !

والرجل في تفكيرهم من كان ذا مكر ودهاء !

والناجح في عرفهم من جمع الدنيا ، لا يبالي من حرام جمعها أم من حلال !

والحسناء في أعينهم من كانت عارية ظهراً لبطن ، تهتز في الطريق كأنها جان !

وهكذا . . . نكسوا على رؤوسهم ، فما استطاعوا أن يبصروا . . . وما استطاعوا أن يعقلوا !

فهل هؤلاء ناس ؟

كلا ثم كلا . . . إن هؤلاء حمر مستنفرة ، أو أنعام ، أو أحط سبيلا .

إن المقـاييس التي ينبغي أن تتقـرر إنمـا يـجب أن تستوحى من وحي السماء .

ووجي السماء يقول : إن أكرمكم عند الله أتقاكم . . .

وذلك هو المقياس الحق ، الـذي ينبعي أن تقاس بـه قيم الخلائق .

فمن كان تقياً فهو الإنسان . . .

ومن كان فاجراً فهو الحيوان . . .

ذلك هو الميزان الحق ، وهذا هـو الشيء الذي ينبغي أن يقيس به كل إنسان نفسه .

فلينظر الإنسان إلى نفسه ، هل هو يؤمن بالله ، هل هو يؤدي ما افترضه عليه ، هل هو يسارع إلى ما دعاه إليه . . .

فإن كان كذلك ، فليحمد الله ، وليعلم أنه إنسان .

وإن كان غير ذلك ، فلا يلومـنَّ إلا نفسه ، وليعلم أنه حيـوان . . . وإن لبس لباس الملوك ، أو سكن مسـاكـن الأباطرة ، أو مَلك مُلك الأكاسرة .

ولقد كانت شريعة الله شريعة صدق وعدل وإنصاف يوم قررت تلك الحقيقة .

ذلك أن الدنيا لا يوزعهـا الله على الناس لتكـون دليلا على تقـديره لهم ، وإنمـا يوزعهـا عليهم ليختبـرهم بهـا ، ويكشف معادنهم عن طريقها .

ولكن النـاس وضعوا لهم مقيـاساً من صنـع خيالهـم ، وراحوا يحترمون أنفسهم أو يحتقرونها على أساس من هذا المقياس !

وذلك فهم خاطئ ، إصطلحت عليه البشـرية ، منـذ كانت ، وحتى تكون .

إلا قليلا ممن علمهم الله من لدنه علما ، وآتـاهـم من فضله نوراً ، به يبصرون .

يبصـرون الحياة الـدنيـا على حقيقتهـا ، ويعلمـون أن الإنسان من كان تقياً ، وأن الحيوان من كان قاصراً عصيا .

فـلا تحـركهم زينتهـا ، ولا يشغـل بـالهم زخـرفهـا ، ويعلمون أنها مصيبة إن أقبلت ، ومصيبت إن أدبرت .

ولكن الأنعام الآخذة صور الناس ، يقيمون القيامة من أجل تفاهات ، أي وربي تفاهات .

تفاهات تلك التي أخذت على الناس عقولهم ، فعبدوها وماتوا في عبادتها .

وإني لأنظر طويلا إلى أولئك الذين يستميتون في طلب الدنيا ، ويهلكون أنفسهم في تحصيلها ، فأعجب وأسأل : هل هؤلاء عقلاء ؟ هل هؤلاء ناس ؟

والحقيقة أنهم ليسوا عقلاء ، وليسوا ناساً ، وإنما هم مخلوقات جهلت الفكرة من وجودها ، فجهلت بالتبعية كيف تتجه في حياته ، فكان هذا الإنحراف الذي هم عليه .

ولقد كان هذا الخلاف هو أساس الصراع بين الشرائع وبين الناس .

ولقد سجله الحديث القدسي حين قال : « وضعت لي نسبا ، ووضع الناس لهم نسبا ، أما نسبي فإن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وأما نسب الناس فالمال ، فاليوم أرفع نسبي وأضع نسبهم » .

إن المقياس الذي تزن به الشرائع قيم الناس ، هو مقياس الحقيقة ، هو أن الإنسان إنسان بقدر ما فيه من حب الله ، وهو لا يساوي شيئاً بقدر ما هو عليه من إعراض عن الله .

ولكن ميزان الناس ، ميزان مادي ، يقوم بالقروش والجنيهات .

وسيظل هذا الخلاف قائماً ، ما بقي الناس في الحياة .

فريق نسبه المال ، وآخر نسبه التقوى .

فلا يتزلزلن الأتقياء مما يرون من حولهم ، وليثبتوا ، وليعلموا أنما هم على الحق ، وأن ارتفاع الأوباش ليس ارتفاعاً ، وإنما هو زبد يطفو ، وسوف يذهب جفاءا .

وليعلموا أن النار التي هم فيها في دنياهم ، إنما هو الثمن الطبيعي ، لأغلى سلعة يشترونها ، سلعة الجنة . . . ألا إن سلعة الله غالية .

ولا يغترر الأوباش بارتفاعهم المؤقت في أوضاع الدنيا ، فإنما هو الغرور والوهم ، وسوف يأتي اليوم الذي تتقرر فيه الأوضاع على حقيقتها .

وليقرأ الفريقان كتاب ربهم ، وفيه فصل ما اختُلف فيه ، ومنه سوف يعلمون حقيقة أمرهم .

فإن أعرضوا ، فإني أقرئهم بقوله تعالى ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . وإذا مروا بهم يتغامزون . . . فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . على الأرائك ينظرون . هل ثُوِّب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾؟

آشتراكية في الإسلام ؟

ما إن فرغت من قراءة كتاب « اشتراكية الإسلام » للدكتور مصطفى السباعي ، حتى وجدت نفسي تسألني : آشتراكية في الإسلام ؟

هل صحيح تلك الدعوى التي يطلقونها ويزعمونها . . . أن الإسلام اشتراكي ، وأن الاشتراكية من الإسلام ؟

والسؤال ليس سهلا ، والإجابة عليه كذلك ليست أمراً ميسوراً . . .

ولئن كان مصطفى السباعي في كتابه بدا رائعاً محلقاً ، عالماً ملما بأطراف القضية ، يصول فيها ويجول ، ويسبح في أرجائها ، وينزل إلى أعماقها ، سبح المتمكن الدارس

الواعي . . . لئن كان هـذا كله كان من المؤلف ، إلا أنني ألقي عليه نفس السؤال : هل الاشتراكية يـا مصطفى حقـا من الإسلام ؟

ولقـد قـالهـا مصـطفى عـاليـة صـريحـة مـدويـة ، أن الاشتراكية من الإسلام .

بل ذهب إلى أبعد من هذا ، وأفتى إفتاء مؤسسا على النصـوص والاصول ، أن تحـديـد الملكيـة الـزراعيـة من الإسـلام ، وأن تحديـد الأرباح من الإسـلام . وأن إشراك العمال في أرباح الشركات من الإسلام .

والكتاب في هذا يأتي فريداً في بابـه . في وقت تتغير فيه أوضاع تاريخ هذه الأمة ، ومقدراتها ومقوماتها .

ولقـد جمعني مجلس قـال فيـه قـائـل : الـواقـع أن الاشتـراكيـة ليست من الإسـلام ، لأن الإسـلام يقـدس الملكية ، وحسبنا أن رسول الله ﷺ قال : من مات دون ماله فهو شهيد .

وردي على ذلك القائل ومن ذهب مذهبه أن الحكم لا يؤخذ من نص واحد . وإنمـا توضـع النصوص إلى جـوار بعضها البعض . ومن مجموعها تؤخذ الأحكام .

فلئن كان رسول الله ﷺ قال ذلك . ولقد قاله حقا . إنه قال أيضا لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . وبذلك يتكامل المعنى . وتتجلى الحقيقة .

ولقد دأب القرآن الكريم على هذا المنوال دائما . فما ذكر النار إلا ذكر جوارها الجنة . وما خوف إلا ورغب . وما ذكر رحمته إلا وذكر عذابه .

فلا ينبغي أن يقال النص ليستشهد به على قضية . وتترك سائر النصوص التي تكمله .

وأنا أدعو جميع الناس أن يقرءوا ذلك الكتاب . خاصة في تلك الأيام الحاسمة من تاريخ البلاد .

فإن الأمة الآن بسبيل وضع دستورها . واختيار الأسلوب الذي ترتضيه لحياتها القادمة .

وأعود الآن إلى سؤالي وأسأل نفسي ! آشتراكية في الإسلام ؟

وجوابي أن المسميات ليست شيئا ذا بال في الموضوع . وإنما الحقائق هي الموضوع سمها الاشتراكية . سمها الكفاية والعدل . سمها توزيع الثروة على أساس تكافؤ الفرص . . . سمها ما شئت . فلسنا نبحث عن اللافتات . وإنما نحن نبحث عن الحقيقة .

فما حقيقة هذا الدين المسمى بالإسلام ؟

ما حقيقة الإسلام . التي تتفرع منه حقائقه جميعا ؟

حقيقة الإسلام هي قوله تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل ﴾ .

الإسلام يريد العدل .

كل ما يحقق العدل هو من الإسلام .

لأن كانت الاشتراكية تحقق العدل فهي من الإسلام .

والنظم بتطبيقها لا بأسمائها ، فلئن كانت الاشتراكية تأتينا بالعدل بين الناس فهي من الإسلام ، وإن كانت لا تأتينا بالعدل فهي ليست من الإسلام .

وهذا ما أحب أن يلتفت إليه الناس من هذا الأمر .

حتى يظل الإسلام بريئا طاهراً مما ينسب إليه وهو منه براء .

فكم لاقى الإسلام ، وكم اتهم بسبب انتساب السياسية إليه في شتى العصور .

فما من دولة حكمت المسلمين في تاريخهم الطويل ، إلا وألقت بأفكارها على الإسلام ، ونسبت ما تفعله إلى الإسلام .

وكان من أثر ذلك أن كره الناس الإسلام نفسه ، ظنا منهم أن ما هم فيه من بلاء ومظالم سببه الإسلام !!

ولقد كانت الدولة العثمانية مثلا سيئا في تاريخ المسلمين ، حين قامت منتسبة إلى الإسلام ، وحكمت بقاع المسلمين باسم الإسلام ، وهي في أسلوب حكمها بينها وبين الإسلام ما بين السماء والأرض !

ولقد ود المسلمون لو تخلصوا من حكمها ولو إلى الشيطان ، من سوء ما ذاقوا ومن سوء ما لاقوا .

من أجل ذلك ينبغي أن نقولها صريحة حققوا العدل بين الناس . . . فإن رأيتم أن الاشتراكية تحققه فكونوا اشتراكيين ، واعلموا أنكم بذلك قد حققتم أصلا من أصول الإسلام .

وإن لم تحققوا العدل في اشتراكيتكم ، فاعلموا أنكم لستم على شيء ، ولستم من الإسلام في شيء .

ما كان الإسلام يوماً ما دين أسماء ومسميات ، وهو القائل في آي كتابه : ﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباءكم . . . ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ .

فالإسلام بطبعه يسخر من الذين يقولون بأفواههم ما

ليس في قلوبهم ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟! كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ .

إنه ينادي بأعلى صوته أن الله يبغض أشد البغض أولئك الذين ينادون بالشعارات لمجرد الشعارات ، ليخدعوا الناس وهم بها لا يعملون .

إنه يريد روح التشريع لا التشريع نفسه ، يريد حقيقة العدل لا العدل نفسه ، يريد جوهر الأمور لا مظاهرها .

وإذا علمت هذه القاعدة من الإسلام بالضرورة ، انزاح عن صدر الإسلام ذلك الكابوس الثقيل ، من النظريات العديدة البغيضة ، التي ألصقت به وهو منها براء .

لقد كان التوحيد الإسلامي تحدده كلمة واحدة سهلة حلوة هي « ليس كمثله شيء » فجاء المنحرفون ، وصنعوا للناس آلهة أخرى تحت عناوين التوحيد .

كان الاقتصاد الإسلامي سهلا واقعيا يدور مع واقع الحياة ، ويحل مشاكلها بما يكفل العدل بين الناس ، فأبى المنحرفون أن تكون الأمور خطا مستقيما ، وأرادوها عوجا وانحرافا .

وفرعوا ، وصنفوا ، وعقدوا ، ودخلوا بالناس في منحنيات لا أول لها ولا آخر .

ولو أنهم عقلوا قول الله ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ ما التوت عليهم معايشهم وما انطمست في عقولهم أنوار الشريعة .

فأي نظام سمعت به أو تسمع به من بعد ، سل نفسك : هل هذا النظام يحقق العدل بين الناس . . .

فإن آنست فيه عدلا فاعلم أنه لا ينافي الإسلام ، وإن آنست منه ظلما فاعلم أنه ليس من الإسلام .

شرط واحد يضاف إلى تلك القاعدة ، هو ألا يحل حراما أو يحرم حلالا .

ولنأخذ على ذلك مثالا تطبيقيا حيا بيننا . . . تخفيض الإجارات . . . هل هو من الإسلام ؟

الجواب . . . لقد كان أصحاب المباني يغالون في تقدير إيجار مبانيها ، ويستنزفون عرق العاملين والموظفين ، كأنما قد كتب على الموظفين أن يكدحوا طول الشهر ، ليسلموا أجورهم بعد ذلك لأصحاب المباني .

فهل هذا من العدل ؟

كلا . . . إنه أكل لأموال الناس بالباطل . . . فإذا صدر تشريع يخفض الإيجار قليلا ليحقق العدالة بين المالك

والمستأجر فهو من العدل . . . فهو من الإسلام .

بقي أن ننظر هل تخفيض الإيجارات أحل حراما أو حرم حلالا ؟

كلا . . . إنه لم يفعل شيئا من هذا ، ولم يجاوز حدود ما شرع الله . . .

إذاً تخفيض إيجارات المباني من الإسلام .

ثم هذا الأمر الجاري الآن وهو وضع أموال بعض الرأسماليين تحت الحراسة . . . هل هذا من الإسلام ؟

نعم . . . بل هو روح التشريع الإسلامي . . . إن شئت الحقيقة :

لأن الله يقول ﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم ﴾ . . . فإن كان الأصل في المال هي حرية المالك في التصرف في أمواله . . . إلا أن هذه الحرية إذا انقلبت ضرراً أكيداً على كيان المجموع وكيان الشعب ، وجب فوراً انتزاع هذا المال من صاحبه ، ووضعه تحت الوصاية . . . وهو ما يسمى شرعا بالحجر على السفيه .

وأي سفاهة أكبر من إنفاق الأموال فيما يعود على المجتمع الذي آواهم وأكرمهم بالضرر المبين ؟

أي سفاهة أكبر من إنفاقها في إشاعة الفحشاء والمنكر والدسائس والمؤامرات .

لقد أصبح الأمر واجباً وحتما أن توضع أموال هؤلاء تحت الحراسة . . . وأن تنوب أصحابها في إدارتها .

وهكذا تمضي مع الأحداث الرائعة التي تجري بيننا الآن . . . حدثا حدثا . . . وتسأل نفسك : هل هي تحقق العدل ، هل هي تحل حراما أو تحرم حلالا . .

وعلى ضوء ما تجيب به يكون ما حدث إسلاما أو غير إسلام .

فلو رأيت قوما يزعمون أنهم يحكمون بالإسلام ، فالتمس العدل في دولتهم ، فإن لم تجده فاعلم أنها دعوى زائفة ، مهما رفعوا لها من الشعارات .

ولقد كان الله أعدل الحاكمين ، لأنه يحاسب الناس بما في قلوبهم ، لا على أساس من صورهم .

كذلك ميزان الإسلام يزيد بمثاقيل الحق ، ولا يزيد بموازين المظاهر .

ولذلك يقول سبحانه ﴿ اليوم لا تظلم نفس شيئا ﴾ . . . يوم القيامة ﴿ لا ظلم اليوم ﴾ لأن حقائق الناس تتبدى

وتتكشف ، فيتحقق العدل في أسمى معانيه .

والله الذي أخذ نفسه بقوله سبحانه ﴿ ولا يظلم ربك أحدا ﴾ هو الله الذي أنزل في كتابه ﴿ إن الله يأمر بالعدل ﴾ لأن العدل يحب العدل ويأمر به . . . فالله أعدل العادلين فهو سبحانه يأمر بالعدل لأنه صفة يحبها .

ذلك هو روح التشريع الإسلامي ، وما كان الإسلام أبداً دين جمود وتحجر ، بل كان روحا من الله يسري في موات الأجيال ، فيحييها بإذن ربها حياة طيبة كريمة على أساس من العدل والربانية .

والذين يحبون أن يزعموا أن نظاماً ما هو من الإسلام ، عليهم أن يعلموا قبل كل شيء ، أن الإسلام يدعو إلى العدل ، ولا تهمه الأسماء ، ولهم بعد ذلك أن ينسبوا نظامهم إلى الإسلام أو لا ينسبون .

ولو أرادوا لهذا الدين تلخيصا لقلنا هو أمر بالعدل ونهى عن الفحشاء .

واليوم الذي تأمر فيه الدولة بالعدل . . .

واليوم الذي تنهى فيه عن الفحشاء . . .

فقل هي دولة تسير نحو الإسلام ، لا دولة تطبق

الإسلام ، لأن الإسلام يشترط النية ، وهي أن تريد بعملك وجه الله .

هذا ما نريده من كل من أراد الإنتساب إلى دين الله .

هذا هو العطر الذي يفوح من اقتصاد الإسلام . .

انه إقتصاد معطر ، يتحول إلى ربانية رائعة ، تجعل التعامل بين الناس أخوة ، والتبادل رحمة والبيع والشراء ربانية ، يتوجها كلها قول رسول الله ﷺ « الدين المعاملة » .

والآن . . . وبعد . . . هذه الجولة . . . آشتراكية في الإسلام ؟

نعم . . . على أن تحقق عدلا ، وتمنع ظلماً ، وتؤاخي بين الناس .

العاملون ضد الله !

الذين يعملون ضد الله . . . قوم أغبياء !

أغبياء . . . ورب الأرض والسماء ! ذلك أنهم بعملهم ضد الله ، يجهلون حقيقة الشيء الذي ضده يعملون !

فلو أن دولة صغيرة كاليمن مثلا ، قامت وحدها لتعمل ضد دولة عظمى ، لقلنا سياسة خرقاء !

ولو أن إنسانا ضعيفا ، قام ليعمل ضد جبار من الجبابرة ، لقلنا مجنون !

ولكن الانسان يقوم بعمل ضد الله ، فلا يحرك ذلك من أحد تفكيرا ! فما دلالة ذلك ؟

دلالته إحدى اثنتين . . . إما أن العاملين ضد الله لا يعتقدون بوجوده . . . وإما أنهم يجهلون عظمته . . .

وما من عمل قام في هذه الأرض ضد الله إلا ويمكن

إرجاعه إلى سبب من هذين السببين .

إما الانكار لوجود الله . . .

وإما الجهل بعظمة الله . . .

أما الذين ينكرون الله ، فهم أجرأ الناس على العمل ضد الله .

إنهم لا يخشون شيئا . . . وينطلقون في حياتهم انطلاق البهائم في مراعيها .

يأكلون ويشربون ويتمتعون ، ولا شيء وراء ذلك !

وأما الذين يجهلون الله ، فهم كذلك يسارعون إلى العمل ضد الله ، لأنهم لم يعرفوا له عظمه ، ولم يرجوا له وقاراً !

ولقد أطلت الفكير والتنقير ، وراء تلك المشكلة ، وسألت نفسي : لماذا يجرؤ الانسان على العمل ضد الله ، بينما لا يجرؤ على العمل ضد القويّ من الناس ؟

هل هان الله على الناس إلى ذلك الحد ؟

ألا يثير الله في الإنسان ، الرهبة التي يثيرها في نفسه عدوه من بني جنسه ؟!

هل أصبح الله شيئاً لا يثير الاحترام أو الالتفات من الانسان ؟

هل الإنسان حقـا لا يقيم وزناً لله ، في خبيئـة نفسه ، وإن تظاهر بأنه يعظم الله في سلوكه ؟

وأطلت التفكيـر . . . وأكثـرت التنقيـر . . . فـأدركت أمراً . . .

أدركت أن الإنسان مسكين حقاً . . . حين ينكـر وجود الله . . . وحين يجهل عظمة الله ! !

قد يتصايح الأكثرون . . ما هذا الذي تزعم يا هذا ؟

وإلى هؤلاء أقـول : وهـل أنتم تقرون بـوجـود الله ، وتعرفون عظمة الله ؟

سيقـولون : نحن مؤمنـون بـالله ، وعـارفـون بعـظمـة الله . . .

فأقول لهم : لا تقولوا آمنا ، وقولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم . . .

وأقول لهم : لا تقولوا عرفنا الله وعظمته ، ولكن قولوا ليتنا نعرف الله حق المعرفة .

وآية الجهل منكم بالله ، أنكم تزعمون عرفـانكم به ، وما عرفته أهل الأرض ، ولا أهل السماء !

إنما الإيمان دعوى ، لا يستطيع المقربـون ادعاءهـا ، فكيف بالذين هم يتخبطون ؟

إن الإنسان مسكين . . . والله مسكين . . .

فهو يولد كتلة لحم لا يعلم شيئاً . . . فما يدرج على وجه هذه الأرض ، حتى تتناوشه الشياطين من كل مكان .

هذا في الباطن . . أما في الظاهر ، فتقبل عليه الفتن ، في نفسه ، في أهله ، في عشيرته ، في وطنه ، في العالم ، في ماضيه ، في مستقبله ، في أمره كله .

فتن هنا وفتن هناك . . . وهو قوة صغيرة ، مكلفة بالتغلب على تلك القوى جميعاً !

فهل هذا ممكن . . . كلا . . .

وهذا هو سر الانهيار من ذلك المخلوق المسمى بالإنسان .

وسر فشله في تطبيق رسالات السماء .

تلك الرسالات التي تطلب منه ، أن يجاهد كل شيء ليصل إلى ربه !

بحر متلاطم بأمواج الفتن ، وابن آدم يجري فيه ، في سفينة صغيرة ، تتقاذفها الأمواج من كل مكان .

ما هذا الكلام ؟

هذا كلام ليس من عندي . . . وإنما هو يستوحى من قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب

بقيعة ، يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد الله عنده ، فوفاه حسابه ، والله سريع الحساب أو كظلمات ، في بحر لُجِّيٍّ ، يغشاه موج ، من فوقه موج ، من فوقه سحاب ، ظلمات ، بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده ، لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا ، فما له من نور ﴾ .

إن الآية تقرر أن أعمال الذين كفروا . . . كظلمات . . .

ظلام تام . . . لا نور فيه . . .

تصور هذا . . . ظلمات مطبقة .

ثم ماذا ؟ في بحر ، في محيط زاخر ، لجى ، يموج بأمواج كالجبال .

ثم ماذا ؟ يغشاه . يغطيه موج . . . ضخم . . . عال . . . من فوقه موج . . . أمواج يركب بعضها بعضا ، كما تتراكب الجبال !

هل هذا فقط ؟ . . كلا بل السماء هي الأخرى ، تزيد الظلمة ظلاما ؟! من فوقه سحاب ، أسود قاتم ، يحجب أنوار القمر إذا تلألأ ، والنجم إذا تجلى !

من السماء ظلام .

ومن الأرض ظلام .

من البحر ظلام.

ظلمات بعضها فوق بعض !.

إذا أخرج يده لم يكد يراها . . . إذا أخرج يده، ومدها أمام عينيه ، لا يراها من شدة الظلام .

هذا حال الكافر، إنه مظلم ! ظلاما تاماً ، فهو كالمسافر في بحر لجي في ظلمات متتابعة ، ليل نهار، لا يطلع لها فجر .

هو يسافر في ظلام . . . ولا امل له في مطلع النور . . .

إنه مظلم . . . ويائس . . . وهذا شر حال . . . أولئك شر البرية .

ومثله تماما من لا يعرف لله عظمة ، ولا يقدر الله حق قدره . . .

أولئك اعترفوا بالله ، ولم يعترفوا بعظمته . . .

فهم مظلمون . . . ويائسون . . . وإن كانوا أقل من الأولين ظلاما ويأساً .

ثم يكون ختام الآية . . . ومن لم يجعل الله له نوراً ، فما له من نور . .

من لم يتفضل الله عليه بنور من عنده ، فما له من نور ، ينير له طريقه في تلك الظلمات المتراكبة .

ومتى تفضل الله على إنسان بذلك النور ، أضاء له طريقاً إلى معرفة الله .

ومتى عرف الانسان ربه، بدأ يدرك من عظمته شيئاً فشيئاً . . .

وكلما شهد من تلك العظمة ، نما في نفسه تعظيم ربه ، وتوقير خالقه ، وهنا تبدأ الخشية ، والخوف من الله . . .

ومتى خاف الانسان، تراجع عن المعصية، لأنه يخشى من يعصيه.

فالحاكم المرهوب . . . قليلاً ما يخرج الشعب على قرانينه .

والحاكم الذي لا يخشاه الشعب ،قليلاً ما يحترم ذلك الشعب له قانوناً.

كذلك الانسان مع الله ، كلما ادرك من عظمة الله شيئاً ، تراجع عن العمل ضد الله . . .

لأنه يدرك جبروت الله ، وقهروت الخالق، وملكوت الجبار . .

يدرك أنه لو أراد به شيئاً لكان، فهو يخشاه، ويخشى عقوبته .

وهذا هو سر اجتراء الناس على العمل ضد الله .

إنهم جهلوه، وجـوداً، أو صفاتا . . .

فاستهانوا ، فاجترءوا، فكان ما كان منهم . . .

ولذلك كان الطريق الطبيعي لمنع المعاصي، هو تعريف الناس بالله . . .

ومتى عرفوه، عظموه ، أحجموا عن مخالفته .

ومن اجل ذلك، كان اكبر اهتمام الاسلام منصباً على تركيز التعظيم والاجلال لله في قلب اتباعه .

وما العبادات كلها فروضاً وسنناً ونوافل إلا وسائل الى تلك الغاية .

وما التسبيحات وما التكبيرات وما التهليلات إلا موصلات إلى ذلك الهدف .

لماذا يقول لك الاسلام : اذكروا الله ذكراً كثيراً ؟

لماذا يقول لك : سبح في أدبار الصلاة مائة ؟

لماذا يأمرك بالمراقبة سرا وعلانية ؟ .

لماذا يأمرك بالتفكر في خلق السماوات والأرض ؟ .

لماذا ولماذا ؟ . . . كل ذلك ليركز في نفسك تعظيم الله ، خشية الله، ومتى خشيت أحجمت عن معصيته .

فالعاملون ضد الله مساكين ، لأنهم ما اجترءوا على

أعمالهم تلك إلا بسبب جهلهم بالله .

ويوم يقوم في نفوسهم أدنى اعتراف بالله ، أو تعظيم لجلال الله ، لرأيتهم يخرون للاذقان يبكون .

مساكين . . . والله مساكين . . . ليتهم يجدون من يعرفهم ربهم . .

إن فيهم ملايين تبحث عن الله ، او عن فكرة الألوهية . . .

ملايين حائرة ، مظلمة ؛ يائسة، تسأل : أين الله ؟ .

ولا يجدون على سؤالهم جواباً . . . إلا ما يسمعون من سخافات وخرافات .

فمتى ينبعث في الأرض من يقوم برسالة البلاغ ؟ .

متى تشرق الأرض بنور ربها ، وتصل الدعوة الصافية النقية إلى قلوب هؤلاء ؟ .

إنهم لا يعملون ضد الله عن عمد، ولكن عن جهل .

فما احوجهم إلى من يعرفهم ربهم . . . وحينئذ ينقلبون . . . من طاقات محاربة لله ، إلى طاقات عاملة لله . .

ضفدعة تسخر من داوود !

يعجبني من آثار الأقدمين . . .

ذلك الأثر القائل : «قام داوود يصلي من الليل ، فوقع في نفسه ان احداً لا يسبح الله تعالى في تلك الساعة مثله . فأوحى الله الى ضفدعة ، فقالت:

يا داود ظننت كذا وكذا ؟ ، فاعلم أني ومن ورائي سبعين ألف ضفدعة، تسبح الله تعالى طول الليل على قدم واحدة»!!

يعجبني ذلك الأثر . . . لأنه بعيد الدلالة عميق الفكرة . .

لأنه يكسر من غرور الانسان ، ذلك الذي يظن أنه مدار كل شيء، وأن الأشياء كلها تدور من حوله .

وهذا الغرور من الانسان أصل في تكوينه ، ولا يفلت منه احد من بني جنسه .

وهذا الغرور من ابن آدم غريزة طبيعية ، يندر أن يبرأ منها في حياته .

ولها سببان يدفعانه دفعاً إليها .

الأول : الشيطان . . ذلك المخلوق الخارجي ، المسلط عليه ، بقول الله تعالى «وعدهم . . . وما يعدهم الشيطان إلا غروراً » .

ومن هنا ينشأ الغرور في الانسان .

ولكن ما هو هذا الغرور ؟ .

هو أن يعتقد الانسان خلاف الواقع ، بما يخيل إليه الشيطان ، وبما يزين في رأسه .

والثاني: ضعف الانسان الجبلي . . . الناشىء من قوله سبحانه «وخلق الانسان ضعيفاً» .

وهذا الضعف الجبلي ، يدفع الانسان دفعاً الى الغرور ، بدافع النقص الذي فيه .

والقضية الآن بدأت تتجلى وتتشعشع .

فالغرور غروران . . . غرور من الشيطان، وغرور من الانسان .

أما غرور الشيطان؛ فشيء طارىء ، يطرأ على الانسان من خارج بما يوسوس إبليس .

وأما غرور الانسان ، فهو من داخل. من باطن ، ينبع من ضعف الانسان .

وكلاهما خطر ، وعدو لدود .

ويحضرني هنا موقف إبليس من جسم آدم ، حين خلقه الله صلصالاً كالفخار ثم طوف إبليس من حوله : فلما رآه ذا جوف وأحشاء، علم أنه لم يلبث أن يتهاوى .

لقد أدرك إبليس على الفور ، حين رأى جسم آدم ملقي في الجنة، قبل نفخ الروح فيه ، أدرك أنه مخلوق ضعيف يسهل مخادعته وإضلاله .

ورتب خطته على ذلك ، وكان تكتيكه مع بني آدم نابعاً من هذا الفهم الأصيل .

وعلى هذا يعتبر ضعف الانسان التركيبي ، هو الذي مكن إبليس من التسلط عليه .

وسنفصل ذلك تفصيلاً جميلاً .

انظر الى الانسان . . . نطفة دافقة تستقر في الآرحام إلى حين، ثم يصورها الله كيف يشاء .

ثم يخرج الانسان الى الحياة ضعفاً، وعجزاً مطلقاً .

أما الضعف فهاك دليله النصى ، الذي يؤيد دليله الواقعي . .

أما النص فقوله « الله الذي خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً ، وشيبة . . .

وقوله «حملته امه وَهْنـاً على وهنا . . .»

وأما دليل الواقع . فما نراه جميعاً من أمر المولود .

يولد عاجزاً عن كل شيء . عكس الحيوان الذي يولد قادراً بعض الشيء .

هو كتلة من اللحم المتحرك ، لا يعلم شيئاً ، ولا يقدر على شيء ، ولا يستطيع شيئاً .

فهو في حاجة الى من يرضعه : وهذا اشد أنواع الضعف .

وحتى الأمعاء لا تستطيع ان تضهم الطعام المألوف ولذلك جعل الله له لبناً سهلا مهضوماً .

وتراه عجزاً تاماً . . . وهو رضيع ، لا يستطيع لنفسه نفعاً ولا ضراً .

فهو يحتاج الى أمه كي ترضعه وتلبسه : وتغطيه إذا نام .

وتغسل جسمه إذا اتسخ : وهكذا . . عجز تام ، وجهل تام .

قال تعالى «أخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئاً » .

ثم يتطور هذا المخلوق العاجز : شيئاً فشيئاً : فيتطور معه اكتساب الصفات شيئاً فشيئاً .

فبعد أن كان جهلاً تاماً : يتحول الى علم نسبي .
وبعد أن كان عجزاً تاماً : يتحول الى قدرة نسبية .
وبعد أن كان عالة على أمه ، يبدأ ينفصل عنها نسبياً .
وهكذا . . ترتفع طاقاته شيئاً فشيئاً .
حتى يبلغ مرحلة البلوغ . فيكون منه القدرة على الجنس .

وهنا يفرض عليه الله الفرائض ، لأن طور البلوغ ، طور أكتمال الشهوة طور انطلاق واشتياق ، يحتاج إلى (فرامل) وتلك مهمة الفرائض.

وما يزال الإنسان يقوى ويقوى ، حتى يبلغ أقصى درجات القوة .

ثم يلحقه الأصل الذي هو منه . . . الضعف . . . فما يزال يضعف ويضعف حتى يتدلى في كل شيء، وتكون الشيخوخة بوجهها الكئيب .

انهيار تام في كل شيء . . . .

قال تعالى «ومنكم من يرد إلى ارذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً » .

أحط أنوع العمر تلك الشيخوخة ، يتساقط فيها الانسان من قوته كما تتساقط الأوراق عن اغصانها .

إنها إعداد للموت ... وتمهيد للفناء ..

ذلك هو الانسان ، يبدأ من ضعف وينتهي إلى ضعف حتى مرحلة الشباب ، تلك التي يبلغ فيها شيئاً من القوة ، تعتبر مرحلة طارئة ولذلك لا يلبث ابن آدم أن يرتد بعدها الى طبيعة الضعف .

والانسان ليس فقط ضعيفا في بنيان جسمه المادي ، إنما هو ضعيف في صفاته المعنوية .

هو ضعيف في شهواته ، لا يصبر عن النساء ، ولا تصبر النساء عن الرجال !.

ضعيف في إرادته لا يصبر على طاعة ، ولا يصبر عن معصية ، ولا يصبر في الله . ولكن يجزع ، ويجمح الى الانطلاق دائماً .

ضعف في الايمان بالله ، برغم الايمان ، فاذا دهمته صروف البلاء ، طار عنه ايمانه ، وتضعضع منه جنانه !.

ضعيف امام المخلوقات التي تشاطره الحياة فوق الأرض... فماذا يفعل الانسان اذا صارعه اسد من الأسود ؟.

ضعيف أمام الميكروب والفيروس الذي يهاجمه ، وينتشر

في جسمه ، وقد يقتله وهو لا يستطيع له دفعاً ! :

هذا عن الضعف الجبلي . المجبول عليه الانسان .

فماذا عن الغرور ! :

هذا الضعف يدفع الانسان الى الغرور . أو هو الذي يدفعه فعلاً الى الغرور . .

كيف هذا . ؟

تلك مهمة الشيطان . . او هنا يأتي دور الغرور الشيطاني، او دور الغرور الطارىء من خارج .

يعلم الشيطان من الانسان هذا الضعف ، فيوسوس إليه ، ويخوفه ، فتضعف ارادة الانسان ، ويستسلم له .

وكيف ذلك ؟ .

يعلم الشيطان ان الطفل ضعيف أمام أبويه . يراهما إلهين اثنين، وكيف لا وهما أساس حياته. وأصل رعايته .

فيزين له ان هذين الأبوين هما الالهان المعبودان، ويجب عليه طاعتهما . طاعة تامة .

فاذا قالا له : اكفر ، كفر ! .

هل هذا يحدث ؟ .

نعم: بل هو الحادث . وما كفر من كفر إلا من هنا . . .

من قولهم .. إنا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون .

كيف كان اليهودي يهودياً الا بتوجيه أبويه له فاطاعهما وتهود ؟.

وكيف كان المجوس مجوسياً ، الا ان وجهه أبواه الى المجوسية فتابعهما ؟.

قال ﷺ(كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه او ينصرانه أو يمجسانه) .

ثم يأتي الشيطان الى الإنسان حتى يبلغ ، ويعلم منه أن الشهوة الجنسية تشتعل فيه اشتعالا .

فيوسوس اليه بالمرأة ، ويوسوس الى المرأة بالرجل .

ويضعف الإنسان ويسلس قياده للشيطان ، ويكون ما كان .

ويأتي الشيطان الى ابن آدم ، ويعلم منه ضعفه أمام إغراء المادة ، وعدم صبره عن حب المال .

فيوسوس اليه ان قم إلى المال واجمعه ، فهو سبيلك إلى السعادة ، والعلو والخلود.

ويضعف الانسان ويهرع الى المال ويجمعه مما هب ودب.

ويكون منه جرائم وجرائم .

ويأتي الشيطان إلى الانسان في شيخوخته . ويخوفه من الموت ، ويزين له الاستمتاع بحياته قبل ان يمضي . ويضعف الشيخ ، ويكون منه استسلام تام، ويأتي بالعجائب للاستمتاع بالحسان !.

وهكذا . . . يتعاون الرفيقان ، الشيطان وضعف الانسان ، على نفخ الغرور في الانسان .

يقول له الشيطان : من قال انك ضعيف ؟.

أنت عظيم ، أنت أعظم إنسان، أنت اعظم مخلوق!.

ويصدق المسكين مقال الشيطان ، ويحوله في باطنه الى عقيدة راسخة .

ويوجد من الناس من يعتقدون هذا، ويفلسفونه ، ويقولون : الانسان مركز الكائنات ، وسيد المخلوقات . . .

بل وجد من يزعم ان الانسان هو اله هذه الأرض. وإله كل شيء ولا إله هناك !!.

وينفخ الشيطان في الانسان ، ويناديه من ماضيه ، ويناديه من مستقبله ، والانسان يصدق ما يقول ، وينخدع بما يوسوس !.

وقديماً خدع آدم من ضعفه حين قال له «هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى؟».

وصدق آدم وصدقت حواء . وكان ما كان .

وما زال الملعون دائباً على التغرير بأبنائهما ، ليشفى غله ، ويذهب غيظه :

«فبما اغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم» . .

هذا هو الغرور . . هذا هو الوهم الذي يعيش فيه الانسان : بجنسيه ، هو ألد داء ، وأشد الأمراض فتكا بنفس الانسان .

فالمغرور : لا يصدق أنه سيموت فتراه يفعل فعل الخالدين .

والمغرور لا يصدق أنه سيبعث ويحاسب على عمله ، فتراه يتصرف تصرف الجبابرة ، الذين لا يخافون عقباها .

والمغرور لا يصدق أنه لا شيء ، فتراه ينظر إلى الناس على أنهم لا شيء وأنه هو وحده الشيء .

المغرور لا يصدق أنه جاهل . فيفلسف الاشياء حسبما يتصور ، ويرى الناس جهالاً ! .

والمغرور لا يصدق أن له إلهاً . فوقه . قد خلقه ، وسوف يحاسبه على اعماله فتراه يتصرف على أنه هو السلطة العليا في الأمور ! .

وها هو الله ينبه الإنسان إلى خطر الغرور على كيانه كله ، فيقول: يا ايها الانسان ما غرك بربك الكريم ؟، الذي خلقك فسواك فعدلك؟ في أي صورة ما شاء ركبك ؟.

إنه الشيطان يا رب، . الشيطان الذي غرنا بك ؟!

ليس من الذوق ولا من الآدمية

لم أشأ أن اقول : ليس من الدين . . . هذا الذي نحن عليه ، لم أشأ ذلك القول ، لأن الدين اصبح ممجوجاً من السادة أدعياء الحضارة ، وببغاوات التقدم .

لم أشأ أن أقول أن ما عليه نساؤ نا ليس من الدين . . . حتى لا يغص به قوم ، تقف في حلوقهم كل كلمة تتصل من قريب او بعيد بالدين .

ولم أشأ أن أقول : قال الله وقال رسول الله ، لأن اقواماً . لا يستطيعون ازدرادتلك الأقوال الكريمة العالية .

وآثرت ان اقول : ليس من الذوق ، وليس من المدنية ، وليس من الآدمية . . لعل الجماهير تنصت ، أو لعل الناس يبحلقون ! .

والشيء الذي أريد الحديث عنه ، هو حال نسائنا ، وما هن سائرات إليه ،مبصرات أو عمياوات .

هل فكر نساؤنا فيما هن عليه ؟.

هل خطر ببالهن ما هن سائرات إليه . ؟.

لا شيء من هذا ولا من ذاك . . . وإنما هو تيار يتدفق الى اسفل ، وكلهن سابحات فبه !!

حتى أصبح الأمر عرفاً مألوفاً ، وأسلوباً معهوداً ، لا يثير نقداً ، ولا يحرك اشمئزازاً .

وإنك لتتأمل الأزياء، فتجد تصميمها يعتمد على الإثارة .

فتعجب وتسأل : أليس للرجال من عمل في هذه الحياة ، سوى تتبع أزياء النساء !!.

في الصباح ، في المساء، في الظهيرة، في الليل ، في المجتمعات، في البيوت، في دور العلم ، في دور اللهو ، في اليقظة في النوم ، في العمل ، في الفراغ . . . في كل زمان ومكان . . . . نساء اليوم متفرغات للأزياء والزينة!.

من بعيد . . . تشم روائحهن الزكية. تتضوع مع النسيم، وتملأ عليك خياشيمك !.

رغم أنفك . . . ليس لك اختيار، ولا رأي ،وإنما عليك ان تشم ، ليس إلا . . . فتتساءل : لماذا هذا ؟ ولحساب من ؟.

الجواب : المودة يا أستاذ . . .

ومن بعيد تقبل عليك المرأة في الطريق ، كأنها شيطان جميل ، تتلوى وتتبختر ، وتتثنى ، وتحدث أنغاماً بجسمها ، وأنغاماً بوقع اقدامها ، وليس لك من الأمر إلا أن تنظر . . . ليس إلا . . . فان سألت : لماذا ؟.

قالوا : المودة يا افندم !

وأنا اسأل نساءنا : هل هذا من الذوق ؟. هل هذا من المدنية ؟. هل هذا من الآدمية ؟.

هل هذا الأسلوب يؤدي الى العثور على المنشود؟. أي الزوج المطلوب ؟

وإن جاز هذا للآنسات ، والعانسات ، فهل يجوز هذا للزوجات ، وربات البيوت، والأمهات ، والعمات ، والخالات ؟

وإن جاز هذا للزوجات ، فهل يجوز للحماوات ، وللجدات ؟.

ما هذا السعار الذي قام في رءوسكن يا نساء اليوم . كيف يجوز للمرأة وقد جاوزت الخمسين ، أن تفعل بنفسها فعل بنات العشرين . بل وأكثر ؟ ولكنها الدوامة . . .

والكل سابحات . . . فاتنات أو غير فاتنات ! .

والرجال . . . اين الرجال ؟ . . . لقد تولاهم اليأس، وغلبهم التيار . . . فأعطوا ظهورهم إلى النساء ، وتركوهن يفعلن ما يحلو لهن ! .

وهكذا . . . الكل لا يدري . . . إلى اين نسير . . . أإلى الهاوية . . . أم إلى الناجية ؟ .

إن الذي استطيع ان أؤكده ، ويؤكده كل ذي عقل، ان حال نسائنا ليس من الذوق ، لأن الذوق الرفيع ، الذوق الإنساني، يأبى العرض الرخيص . . . وأن كل ما ابتذل زهدته النفس ، وكل ما تأتي رغبت فيه النفس .

ولقد هانت اجسام النساء ، حتى اصبح في متناول اي صعلوك ، ان يستمتع بجمالهن ، بدون عناء .

قد تكون المرأة زوجة لكبير ، أو أما لعظيم ، او بنتاً لرجل مهيب . . . ومع هذا تسير في الطريق العام شبه عارية . . . تلقي بنفسها القاء رخيصاً ، لا صيانة فيه ، لحمها مبذول، جمالها معروض ، بل مواضع العورة منها محددة، مجسمة ، مشار إليها من تلك الملابس التي اخترعوها لهن !! .

فأي مهانة بعد تلك المهانة ؟!

ولكن هل يشعر الرجال بذلك ؟.

يخيل إلى أنهم نكسوا على رؤوسهم ، فأصبحوا لا يشعرون !.

هل يتألم الرجل الآن ، وهو يرى بعينه ابنته الجميلة الفاتنة ، الكريمة الأصل، الطيبة التربية ، تسير في الطريق العام، فيستمتع بجمالها من شاء من الناس، ويتناولونها بالتعليق ، والتجريح ، والتمني ، والمتابعة بالعيون ، وغير العيون .

يخيل إلي أنه لم يعد رجل يتألم لذلك ؟!

وإلا فلماذا استسلم الجميع للتيار، وسكتت الأصوات حتى عن مجرد الاشمئزاز ؟.

وهل فكرت تلك التي تفعل هذا ، انها تعرض نفسها للمهانة ، وتعرض اسرتها للإهانة .

اعتقد ان تلك المشاعر، بدأت تختفي من النساء كذلك !!

تيار عام ... تيار جهنمي ... يهب على مجتمعنا ، كماتهب الرياح الحارقة على الأشجار الوارفة ، فتحرقها إحراقاً .

تيار جهنمي ... يحرق كل مقدساتنا ، وكل اصولنا الكريمة .

ويوشك ذلك التيار . . . ان يتسلل الى قلوبنا نفسها . فيقتلع منها الإيمان بالله !.

وكيف يعيش الإيمان في قلب بليد ، لا غيرة فيه ؟.

وكيف ينمو الإيمان ، في نفس مستهترة ، لا حياء فيها ؟.

ليس من الذوق إذاً هذا الذي نحن فيه . . . لأن الذوق الآدمي يمج شيوعية الجنس، ويمج شيوعية المتعة ، ويمج شيوعية المرأة .

وليس من المدنية ، لأن المدنية الغربية . . التي نقلنا عنها هذا الإجرام . . . اصطلحت على ان للعمل آداباً ، وللهو آداباً .

فالمرأة الغربية . . . تلبس في ساعات العمل لباساً عملياً . . . وتتزين في ساعات لهوها زينة المتعة .

أما نحن فلا فرق عند نسائنا بين العمل واللهو . . . تخرج الموظفات إلى وظائفهن . . . والطالبات إلى معاهدهن . . . متزينات تماماً كما لو كن ساعيات إلى سهرة ، او ذاهبات الى متعة ! ! .

فوضى . . . ليست حتى من المدنية ، التي يزعمون انهم ينقلون عنها . . .

وليس هذا كذلك من الآدمية . . . ولكنه حيوانية . . . وبهيمية . . . إن شئت تسمية صحيحة !.

فهل من الآدمية، ان يترك الرجل عرضه العوبة في يد صعاليك الناس ؟.

هذا ينظر . . . وذاك يتمنى . . . وذلك يسخر ؟.

إن هذا يوجد في مجتمعات البهائم ، ولكنه لا يوجد في مجتمعات الآدميين !.

وهل نترك اعراضنا العوبة في أيدي مصممي الأزياء ، يلعبون بها كيف يشاءون ؟.

ثم من هم مصممو الأزياء ، ومصمماتها ؟.

هل هم قوم يؤتمنون على الأعراض، أم هم قوم يتعمدون إثارة الجنس بين الرجال والنساء ؟.

إنهم لم يكتفوا بكل ما فعلوه من انهيار في ازياء النساء . . .

لم يكتفوا بتضييق الفستان حتى يصف جسم المرأة وصفاً تفصيلياً . .

ولم يكتفوا بتقصيره حتى يبرز ساقيها ، وذراعيها ، وظهرها، وشيئاً من ثدييها . . . وما تحت أبطها . . .

ولم يكتفوا بتحويلها إلى راقصة ترقص مجاناً للجماهير ، في مسيرها ، وإنما راحوا يفكرون ، ويستوحون شياطينهم، كيف

السبيل الى مزيد من الإثارة ؟ .

وخرجوا علينا بمزيد . . . شقوا لها الفستان من الخلف . من أسفل ، حتى إذا ما سارت ظهر شيء من الساق، وحينئذ يحلو المذاق! .

ما هذا ؟ . ولماذا يترك هؤلاء «يعبثون» بأقدس ما نملك في الحياة . . . عرضنا ، وشرفنا؟! .

أي الناس اخطر على بناء هذه الأمة . . . باعة الحشيش ، أم باعة الاجسام ؟ .

إن الامر أصبح خطيراً خطيراً . . . وإذا كانت الدولة تتدخل في كل شيء فيه استغلال للشعب ، وتضليل للجماهير ، حماية للشعب من الاستغلال ومن التضليل . . .

فان واضعي الأزياء ، تلك الفئة المشيعة للفحشاء في كل مكان ، يجب ان تضرب الدولة على يدها ، وأن تمنعها من مباشرة الإفساد .

لا تقولوا : كيف ؟ . . . فان الدولة تستطيع كل شيء ، فالدولة التي استطاعت ان تقضي على الحشاشين في لحظة . . . تستطيع ان تقضي على اولئك في أقل من لحظة .

ولا تقولوا : الحريات . . . فليست الفحشاء حرية . . . وليست الجريمة حرية . . . وكيف وهذا شر انواع الفحشاء ،

واعظم صنوف الإجرام ؟ .

اقضوا عليهم قبل أن يقضوا علينا جميعاً . . .

لماذا يكون هذا ؟ . . . ولحساب من تشيع الفحشاء في مجتمعنا ؟ .

يجب القضاء فوراً عليهم . . . والقضاء فوراً على تلك الفئةالمسماة بحلاقي السيدات « الكوافير » . . . تلك الفئة التي تنتشر في مجتمعنا إنتشار النار في الهشيم .

تلك الفئة التي تتكدس في محلاتها ، نساؤ نا انتظاراً لدورهن في تصفيف شعورهن !! .

هؤلاء الحلاقون ، أليسو رجالاً . . . . فكيف لا نغار على نسائنا منهم ؟ .

عجباً . . . لقد فقد الناس عقولهم !! .

يا أيها الناس . . . إني لكم ناصح أمين . . . اقضوا على الفتنة قبل ان تقضي عليكم . . .

سدوا على الشيطان مداخله ، احفظوا أعراضكم من الضياع، إمنعوا فتياتكم من الفساد .

سيقولون : كيف ؟ .

وأقول : تأميم للأزياء ، وإغلاق لمحلات حلاقي النساء، فاذا الفتنة تتبدد مع الهواء .

أدبني ربي فأحسن تأديبي

ولعل سائلاً يسأل . وكيف ادبه ربه ؟.

والجواب ان للمقادير اساليب في التأديب والتربية .

فالمعنى على ذلك : سلك بي ربي طرقاً من المقادير. تؤدي الى احسان تربيتي .

ما معنى هذا ؟ . . معناه ان الله فرض على محمد ﷺ أساليب من الحياة تؤدي الى تربيته أحسن التربية .

وليس معنى (أدبني ربي) أن الله أمسك له عصا يزجزه به . او انزل اليه مربياً يتولى تربيته . كلا. وإنما المعنى ان المقادير تولت تربية . .

فكيف كان ذلك ؟.

كان ذلك يوم اختطف القدر اباه وهو جنين في بطن امه . فذاق ﷺ اليتيم وهو في أحشائها !.

ويوم ماتت امه بعد قليل من مولده . . فانضم بذلك . يتم الأم إلى يتم الأب فصار اليتيم لطيماً ! :

وذاق ﷺ مرارة اليتم من طرفيه . . . ، وحزن . وإن للحزن لأثراً في تربية النفوس .

وكان ذلك عندما توفي جده عبد المطلب . الذي كان يحبه اشد الحب . . فذاق الطفل مرارة الحرمان من العطف والحنان . . . فلا أم يأوى اليها . ولا أب يستند عليه . وحتى جده الذي كان يجد في حنانه شيئاً من العوض عما فقد . ، . حتى هذا هو الآخر يموت !.

وآوى إلى عمه أبي طالب . ودافع عنه ابو طالب اشرف الدفاع ضد قريش، وآوى إلى خديجة ، ووجد فيها حنان الزوجة . وعطف الآمومة .

فهل تركته المقادير الى عمه ، وإلى زوجة . . كلا . وانما اختطفتهما تباعاً .

وفقد الرسول ﷺ من كان يدافع عنه . ومن كانت واحته التي يأوى الى ظلالها كلما اشتدت به حرارة الجهاد.

حتى أجترأت عليه غلمان قريش ، وآذوه اشد الايذاء .

وهنا تعلم ﷺ ان الحياة لا أمان لها . وان الذي يركن الى سبب من أسبابها انما يركن الى هباء . . .

وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه . .

وعلمته المقادير ان الملاذ إلى الله وحده . . . لا إلى أبي طالب . ولا الى خديجة .

واشتّد ايذاء قريش . وأذن له أن يهاجر . وخرج مهاجراً إلى المدينة .

وحده !!، . ليس معه غير صاحبه . هنالك كان ثالثهما الله . . وأدرك ﷺ ان الله حسبه . أدركهما يوم أجتمعت عليه الدنيا . فمنعه منها . وهو لا حول ولا قوة .

وهذا أسلوب من المقادير لتجلئه الى الله مرة اخرى .

وكانت غزوة احد . . . ورأى رسول الله ﷺ أعز الناس عليه . عمه حمزة . . وقد تناثرت احشاؤه . من سوء ما صنعت به بنت ابي سفيان !.

وأقسم لينقمن له . . ولكن المقادير ابت عليه ذلك . . فرجع ﷺ عما كان ينوي : ونزل على إرادة الله !.

وهناك المقادير التي تعقبته ﷺ: من جهة اولاده :

أنه يراهن يتوفاهن الله تباعاً . . فيحزن : ويعلم ان كل انسان سوف يموت ويدخل التجربة بنفسه . ويعانيها : حين تتساقط فلذات كبده: واحدة بعد الأخرى.

حتى إبراهيم: ولده الصغير. ذلك الذي كان يحبه حباً شديداً : هو الآخر يموت : ويذوق ﷺ آلاماً فوق آلام البشر. وحيده : وشبيهه. يذهب هو الآخر..

حتى فاطمة : رضي الله عنها . يسر إلى أذنها انها اول من يلحق به من اهله وماتت بعده بشهور. وكان ﷺ يعلم ذلك قبل موته :

ما هذا؟. إنها المقادير التي كتب الله على رسوله ان يسلكها . فيكون منها خير أستاذ : وخير تربية له ﷺ :

ثم هناك الرسالة : والاعداد لها قبل نزولها فهو الأمين قبل ان يبعث : والصادق بعد أن يبعث:

وهو أشجع الناس : وأكرم الناس : وأجمل الناس : واعلم الناس. جمع الصفات الحسنى : فكان اهلا لتلك الرسالة :

وهذا أيضاً من المقادير التي كتبت عليه ، ليتطابق الرجل مع الدعوة : فهو القرآن والقرآن هو :

أراد الله أن يظهر للناس ان محمداً يحمل إليهم رسالته : فكانت تلك العملية الضخمة : من التكذيب : الى المحاربة الى النصر :

فعلم الجميع ان محمداً رسول الله حقاً :

وأراد الله ان يظهر شجاعة رسول الله . فمرت به المقادير في ما يظهر تلك الشجاعة : فعلم للقاصي والداني : انه اشجعهم : كوقفته ، يوم حُنَيْن: حين برز وحده لأربعة آلاف وهو يقول : أنا النبي لا كذب : أنا ابن عبد المطلب ! :

وأراد الله ان يظهر سخاءه : فمرت به المقادير على اوضاع تتبدى منها تلك الخلال : حتى ليتصدق ﷺ بواد من الإبل مرة واحدة !

وأراد الله ان يظهر صبره للعالمين، فيجاهد به العرب جميعاً : ويحاولون زحزحته عن موقفه ولو قليلاً ، فما استطاعوا ان يخدعوه ، وما استطاعوا ان يستميلوه .

عرضوا عليه كل المغريات . فأبى ، واطلقها خالدة : خلود الحقائق : لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في شمالي ، على ان اترك هذا الأمر ، ما تركته حتى يظهره الله ، او أهلك دونه !!

وهكذا . . وهكذا . . تجري به المقادير ، في بحر الحياة إلى حيث يبدو للناس كافة ان ذلك رسول الله اليهم جميعاً .

حتى في الآخرة . . . . تضع المقادير النبي ﷺ في

وضع يظهر للخلائق جميعاً فيه فضله على جميع الخلق . . على الناس . على الجن. على الملائكة . يوم يموج الناس في بعضهم موجاً . وما يزالون بالأنبياء. حتى يأتون محمداً . ويرجونه فيذهب الى ربه يستأذنه أن يفصل بين الناس. فيأذن له حينئذ يدرك كل انسان . كل مخلوق . من هو محمد؟ وما هو مقام محمد ؟

والآن . . لعل ذلك الذي قدمناه يكون منه إشارة الى تلك العبارة (أدبني ربي فأحسن تأديبي).

فهرس

مقدمة
محمد رسول الله
عبقرية صلاح الدين
وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين
عمر بن عبد العزيز -١-
عمر بن عبد العزيز - ٢ -
عمر بن عبد العزيز - ٣ -
عمر بن عبد العزيز - ٤ -
عمر بن عبد العزيز - ٥ -
عمر بن عبد العزيز - ٦ -
وما ينطق عن الهوى
جبريل يسأل ورسول الله يجيب

رسول الله يعرفنا الاحسان والتوكل
ثلاثة لا يكلمهم الله
أم القرآن
الموت
لا حسد إلا في اثنتين
أنت الحق
إن في الليل لساعة
الشخصية المتوازنة
ما هذا الروح الطيب؟
الجمعة
القول الفصل في مشكلة تحضير الأرواح
واذا سألك عبادي عني
أنا بك . . . وإليك
لماذا لا أعبد الله ؟
أإله مع الله ؟
وأحل الله البيع وحرم الربا
أهل الظلمة وأهل النور
صلاة العصافير
جاجارين

أقصر الطرق الى الله
مؤهلات الحب
عصر المرأة
لا سلام .. ولا كلام
هل أنت انسان ؟
آشتراكية في الاسلام ؟
العاملون ضد الله
ضفدعة تسخر من داوود
ليس من الذوق ولا من الآدمية
أدبني ربي فأحسن تأديبي
فهرس

أخطاء لغوية

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	التصحيح
٩	١١	كاذا	كان
١٩	٧	بأكلمها	بأكملها
٨٢	٣	زواية	زاوية
٨٨	٣	سأجمل	سأحمل
٩٤	١٤	الهياروحياً	الهياً روحياً
١٦٥	١٧	مستيماً	مستقيماً
١٨٤	١	متقدات	معتقدات
٢٠٥	١٤	للتخلص	للتخلق
٢١٧	١٢	الأمي	الأمر
٢٣٧	١	وإنا لقسمة	وإن القسمة
٢٤٧	٢	أنفسه	أنفسهم
٢٥٧	١٦ قرآن	ليستجيبوا	فليستجيبوا
٢٥٩	١٢	أي إنسان أي	أي إنسان أن
٢٦٨	١٠ ١٩	وإنما ان رسول	وإنما انت رسول الله
٢٨٣	٦ ١٦	المدينة في	المدنية فيما
٢٨٤	١٣	بفقهون	يفقهون

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	التصحيح
٢٨٦	٣	عضاة	عصاة
	٦	من	من مِن
	٨	عدهم	عددهم
٢٩١	١٧	تصف	نصف
٢٩٢	٩	بفلتهم	يفلتهم
٢٩٦	٦	ووجي	ووحي
٢٩٧	١٦	ومصيبت	ومصيبة
٢٩٨	٨	حياته	حياتها
٢٩٩	١١	بارتفاهم	بارتفاعهم
٣١٧	١٠	قرانينه	قوانينه
٣٢٢	٣	لدور	لدود
	١٢	التركبي	التركيبي
٣٢٤	١٧	يتساقظ	يتساقط
٣٤٠	١٣	اليتيم	اليتم
٣٤٢	٩	لتجلئه	لتلجئه

المكتبة العصرية
للطباعة والنشر
تلفون: ٢٢٧٥٤٥ - ص ب: ٨٣٥٥
بيروت - لبنان